

الدكتور
عبد العالي قادا

بلاغة الإقناع

دراسة نظرية وتطبيقية







الدكتور
عبد العالي قادا

بلاغة الإقناع

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ ٢٠١٦م



بلاغة الإقناع

تأليف: عبد العالي قادا

الطبعة الأولى 2016م 1437هـ

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2015/5/1994

ردمك: ISBN: 978-9957-74-479-3



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع

www.darkonoz.com

عمان - وسط البلد – شارع الملك الحسين – طلوع سرفيس جبل الحسين رقم(9)

هاتف 877 4655 فاكس 875 4655 6 00962

خلوي 494 5525 79 00962

E-mail: info@darkonoz.com dar_konoz@yahoo.com

تصميم الغلاف والإشراف الفني: محمد أيوب mohayyoub@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

تضافرت اعتبارات ودوافع لغوية وأدبية وفكرية ،لتؤسس لدينا اقتناعا بموضوع هذا البحث ، ولتمنحنا الرغبة والإرادة في اقتحام مغالقه وكشف كوامنه ، ولعل أبرز هذه الدوافع اهتمامنا ببلاغة الإقناع أو الحجاج باعتبارها منطلق البلاغة القديمة وسمتها المميزة ، حيث انبثقت من رحم الفلسفة والجدل ، وغطت مناحي الحياة في المجتمع اليوناني ، ومنحت القول سلطة وقوة ؛ وباعتبارها أيضا مصدر انبعاث البلاغة الحديثة بعد عصور طويلة انحصر فيها اهتمام البلاغة في الصورة والحلية والمحسنات الأسلوبية ، حتى أضحت بلاغة «مختزلة » حسب عبارة جيرار جنيث الشهيرة ، بل و«ميته» بتعبير رولان بارت .

وبين المولد القديم والانبعاث الحديث ، تبرز حلقة عربية إسلامية ، شكلت فيها بلاغة الجاحظ المقامية أساسا خصبا للتأليف بين الرافدين الخطابي والشعري ، والمزاوجة بين الوظيفتين الإمتاعية والإقناعية للبلاغة ؛ إلا أن المسار اتخذ وجهة أخرى ، فهيمنت بلاغة البديع لعوامل ثقافية ودينية وسياسية . . .

ومما زاد اهتمامنا ببلاغة الإقناع ارتباطها بكل مجالات الحياة اليومية ، فنجدها تحاصرنا في الإعلام ، والسياسة ، والاقتصاد ، والثقافة . . . ، وتؤطر خطابات العصر الراهن بكل ما تحمله من أفكار ، وتدعو إليه من قيم ، وتؤسس له من أنماط حياة .

أما اختيارنا للرسائل الأندلسية وجعلها مجالا تطبيقيا لبلاغة الإقناع ، فيعود إلى إيماننا بكون التراث الأندلسي جزء لا يتجزأ من التراث العربي

الإسلامي ، وإلى تميز أدب الرسائل داخل هذا التراث ، بالإضافة إلى أن أغلب الدراسات الأدبية والنقدية التي جعلت من أدب الرسائل موضوعا لها ، اكتفت بذكر أنواعه وأغراضه وأعلامه ، وفي أحسن الأحوال درسته دراسة بلاغة العبارة في النثر العربي عامة ، ولم تتجاوز ذلك «إلى النظر في خصائص التخاطب الأدبي التي صنعت هذا المنتوج ، وأثمرت هذه الآثار»[1] ، مما جعلها تبدو تكرارا لبعضها البعض .

كما أننا أردنا من خلال هذا الاختيار أن نبتعد بمقاربتنا الحجاجية عن الخطبة والمناظرة باعتبارهما جنسين حجاجين بارزين ، ونفتح المجال لجنس ثالث قد يُعتقد أنه أقل خطابية .

وقد وجدنا في رسائل المفاخرات خلال هذا القرن ، مادة حجاجية جديرة بالدراسة والبحث ، فاخترنا من بين نصوصها رسالة لأبي عامر بن غرسية ، افتخر فيها بقومه العجم واحتج لأفضليتهم على العرب ، واخترنا أيضا من بين الردود العربية الكثيرة عليها رد ابن من الله القروي ، لخلق مقابلة بين الحجة ونقيضها وبين الفكرة وضدها ، وبين البناء الحجاجي المتوسل بكل الآليات الإقناعية لبسط أطروحته ، والبناء الحجاجي المضاد له الذي يعترض على تلك الأطروحة ويسعى إلى نقضها .

وهكذا توزع البحث إلى مقدمة ومدخل وأربعة مباحث وخاتمة ، ففي المقدمة كشفنا عن الدوافع والاعتبارات التي حكمته ، وفي المدخل العام عرفنا مفهوم الحجاج وتتبعنا مسار بلاغة الإقناع في الثقافتين الغربية والعربية . في حين اهتممنا في المبحث الأول بالمشروع الحجاجي الأرسطي ، ورصدنا في المبحث الثاني أهم الإسهامات العربية في بلاغة الإقناع من خلال أبرز مؤلفات

---

(١) صالح بن رمضان : الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس (مشروع قراءة إنشائية) ، جامعة منوبة ، تونس منشورات كلية الآداب بمنوبة ٢٠٠١ ، المجلد ٤٧ ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ص

كل من الجاحظ وابن وهب وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي وحازم القرطاجني ، وقدمنا في المبحث الثالث ثلاثا من أهم المدارس الحجاجية الحديثة (بيرلمان ، وديكرو ، ودجون وودس ودوكلاس وولتن) .بينما حاولنا في المبحث الرابع أن نقدم مقاربة حجاجية تطبيقية لأنموذج من الرسائل الأندلسية خلال القرن الهجري الخامس ، تمثل في رسالة ابن غرسية الشعوبية ، ورد ابن من الله القروي عليها ، من خلال البحث في أهم الآليات الإقناعية والحجاجية المتضمنة في متن الرسالتين ، وخصصنا الخاتمة لتجميع الاستنتاجات التي خلص إليها البحث .

وقد تبنينا في هذا البحث منهجا تاريخيا وصفيا في المباحث الثلاثة النظرية ، مما سمح لنا بالوقوف عند أهم المحطات التي عرفتها هذه البلاغة بدءا من النشأة اليونانية ومرورا بالإسهامات العربية وانتهاء بأقطاب «نظرية الحجاج» في العصر الحديث . أما في المبحث الرابع ، ونظرا لطبيعته التطبيقية ، فقد أمدنا التحليل التداولي عموما والحجاجي بشكل خاص بالآليات والأدوات الكفيلة بكشف البناء الحجاجي للرسالتين المدروستين ، وإبراز حمولتهما الإقناعية .

ونختم هذه المقدمة بتقديم جزيل الشكر والتقدير لأساتذتي الأجلاء في كلية اللغة العربية بمراكش على توجيههم ودعمهم واحتضانهم ، وأخص بالذكر منهم الأستاذين الكريمين الدكتور حسن جلاب والدكتور أحمد قادم .

هذا وما الموفق إلا من وفقه الله .

مدخل:

نعرض في هذا المدخل مصطلحين اثنين هما الحجاج والبلاغة ، إذ سنعرف الحجاج نظرا لجدة المفهوم في الدراسات العربية الحديثة ، وإن كان المصطلح حاضرا وبشكل ملحوظ في التراث العربي ، وسيكون تعريفنا له مقتضبا على اعتبار أننا سنتناول في هذا الفصل مفهوم الحجاج في الثقافتين الغربية والعربية .

كما سنعرض أهم المفاهيم ذات الصلة بالحجاج لنكشف طبيعة العلاقة بينها وبينه ، ونرسم حدود التقاطع والاختلاف بينهما ، ومن هذه المفاهيم البلاغة والبرهان والجدل .

أما البلاغة فليست بغيتنا تعريفها ولا تتبع المسار التاريخي للبلاغتين الغربية والعربية ، وإنما غايتنا أن نلامس البعد الإقناعي والتداولي في البلاغتين :كيف نشأ؟ وكيف تطور؟ ولماذا انحصر في مرحلة تاريخية معينة؟ وما هي الدواعي لانبعاثه من جديد؟

I- الحجاج: المصطلح والمفهوم.

الحجاج لغة من«حاج»و«حاجج» يقول ابن منظور : «حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها . . . وحاجه محاجة وحجاجا نازعه الحجة . والحجة الدليل والبرهان وهو رجل محجاج أي جدل»[1] ، وحد الجدل عنده «مقابلة الحجة بالحجة»[2] ، و«الحج»الغلبة

---

(١) لسان العرب مادة (ح ج ج) .

(٢) نفسه مادة (ج د ل) .

بالحجة» يقال: حجه يحجه حجا إذا غلبه على حجته، وفي الحديث «فحج آدم موسى» أي غلبه بالحجة، وفي حديث معاوية: «فجعلت أحج خصمي» أي أغلبه بالحجة»[1]، والحجة بالضم «الدليل والبرهان وقيل ما دفع به الخصم» والحجة مأخوذة في اللغة من المحجة وهي الطريق الواضحة»[2]، وفي التنزيل «وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان»[3]، أي «جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه»[4].

وقال الأزهري: «الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ... وإنما سميت حجة لأنها تحج أي تقصد لأن القصد لها وإليها»[5]، وفي حديث الدجال «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه» أي محاجه ومغالبه بإظهار الحجة عليه[6].

وعلى هذا يحمل الحجاج» في مضمونه دلالة ومعنى مستمدين مما يشكل سياقه أو شرطه التخاطبي، والممثل في «التخاصم» و«التنازع» و«الجدل» و«الغلبة» باعتبارها عمليات مأخوذة هنا بمعانيها الفكرية والتواصلية»[7]. وهي عمليات تفيد معاني المشاركة والتعدد والتفاعل، فلا حجاج بدون تشارك وتعدد الذوات والأصوات والآراء.. والإنسان يستعمل الحجاج «في الأصل لحل ما هو

---

(١) تاج العروس مادة حجج.

(٢) الجويني: الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين محمود، دار البابي الحلبي، القاهرة، طبعة ١٩٧٩، ص٤٨.

(٣) الأنعام الآية ٨٠.

(٤) إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د-ت)، ج٣، ص٢٥٢/٢٥٣.

(٥) تهذيب اللغة مادة حجج.

(٦) لسان العرب مادة (ح ج ج).

(٧) حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي: «عناصر استقصاء نظري»، عالم الفكر، العدد ١، المجلد ٣٠ يوليو- سبتمبر ٢٠٠١، ص٩٩.

خلافي . . باحثا عن أقرب الأحكام إلى الحق»[1] ، ويتحقق هذا البحث بمشاركة الآخر والتفاعل معه بشكل مباشر أو ضمني ، وهكذا دل لفظ الحجاج «على معنى التفاعل . . . أو قل إن الحجاج أصل في كل تفاعل كائنا ما كان»[2] . وقد عرف جميل صليبا في معجمه الفلسفي الحجاج بكونه «جملة من الحجج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله ، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها»[3] .

ومع ذلك يصعب تحديد مفهوم الحجاج بدقة ، فهو «من المفاهيم الملتبسة»[4] ، ويرجع الباحث حبيب أعراب[5] عوامل هذا الالتباس إلى تعدد مظاهر الحجاج وتنوعها وتعدد استعمالاته وتباين مرجعياته ، بالإضافة إلى خضوعه في دلالته لما يميز الألفاظ في اللغة الطبيعية من ليونة تداولية ، ومن أسباب ذلك أيضا «هو استمرار هذه النظرية في التأسيس والتشكل . . فهي نظرية لم تنغلق بعد ولم تدخل كنظريات كثيرة حيز الماضي - ماضي النشأة والاكتمال لا ماضي الفعل والتأثير- لنتناولها وفق منهج تاريخي يهتم ببداياتها وتطوراتها ويرصد خصائص فترة اكتمالها وكيفيات انغلاقها ، بل نراها تشهد كل يوم ظهور مؤلفات جديدة تغني هذه النظرية وتثريها ، وتجعل من أعسر الأمور السعي الجاد إلى الإحاطة بها»[6] ، بالإضافة إلى «وجود خلافات في صلب

---

(١) هشام الريفي : الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج . . . ص١٥٥ .

(٢) اللسان والميزان ص٢٢٩ .

(٣) جميل صليبا : المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ ، ج١ ، ص٤٤٦ .

(٤) الحجاج والاستدلال الحجاجي ص٩٨ .

(٥) نفسه ص٩٨ .

(٦) سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة : بنيته وأساليبه ، جدارا للكتاب العالمي ، عمان الأردن عالم الكتب الحديث ، ط١ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م ، ص١٥ .

هذه النظرية ، واختلافات بين الخائضين في شأنها تصل أحيانا حد التعارض والتناقض الصريحين ، وهي خلافات واختلافات لم تحسم بعد»[١] .

فالحجاج يكتسب معناه إذن ووظائفه من السياق الذي يرد فيه ، ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يندمج في استراتيجياته الفردية والجماعية»[٢] ، فنجد بذلك حجاجا بلاغيا وحجاجا فلسفيا وحجاجا قضائيا . . .

وقد ورد الحجاج مرادفا للجدل في اصطلاح العرب القدماء ، فأبو الوليد الباجي استخدم لفظ «الحجاج» في عنوان كتابه «المنهاج في ترتيب الحجاج» ، ووصفه في مقدمة كتابه بأنه كتاب في الجدل ، يقول : «أما بعد فإني لما رأيت بعض أهل عصرنا عن سبيل المناظرة ناكبين وعن المجادلة عادلين .أزمعت على أن أجمع كتابا في الجدل»[٣] ، كما ذكر أن مؤلفه مستمد من الكتاب والسنة ومناظرة الصحابة[٤] ، مما يؤكد أن الممارسة الحجاجية مكون مشترك بين كل الثقافات لأن «العملية التواصلية بين البشر بجميع أشكالها التعارفية أو التنافسية الناتجة عن التدافع الفكري والمذهبي ، أو الصراع بين المصالح ، أو الخلاف حول السلطة ، قاسم مشترك بين تلك الثقافات»[٥] .

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه ص٩٨ .

(٣) أبو الوليد الباجي : المنهاج في ترتيب الحجاج ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ ، ١٩٨٧ ، ص ٧ .

(٤) المنهاج في ترتيب الحجاج ص٩ .

(٥) علي الإدريسي : في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام ، ضمن التحاجج : طبيعته ومجالاته ووظائفه ، تنسيق حمو النقاري ، جامعة محمد الخامس منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٣٤ ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ٢٠٠٦ ، ص٨٢ .

أما ابن حزم فارس الحجاج في الغرب الإسلامي[1]، فقد كانت كتابته الفلسفية «لا تتخذ صورة إنتاج فلسفي منظم ومنسق بل طغى عليها طابع النقد والجدال»[2]، وقد ضمت موسوعته «الفصل في الملل والأهواء والنحل» «فصولا حجاجية فعلا . . . بل إن صوت الجدل لا يكاد يخفت في الفصول العديدة لهذا الكتاب، ولا تخبو حدته حتى لا تكون الأقوال تقريرا في غير استدلال، أو تسليما في غير احتجاج . . فأمر الجدل في الكتاب غير يسير، وبلاغة ابن حزم الاستدلالية من الكفاية بحيث يذهب بالأمر إلى مداه الأقصى»[3].

والأمر ذاته نجده في كتب علوم القرآن، حيث خلص الباحث عبد الله صولة من دراسته لكتابي: «البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ)، و«الإتقان في علوم القرآن» لجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) إلى أنهما» إذ وسما الفصل الذي عقداه لهذا العلم بـ«جدل القرآن» أكثرا داخله من استخدام ألفاظ «المحاجة» و«الحجاج» و«الاحتجاج» على أنها مرادفة للفظ الجدل وتسد مسده»[4]. وأما حد الجدل عندهم فيتقارب على اختلاف الصيغ والعبارات بينهم، فهو عند الباجي «تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه»[5]، وهو عند الجويني «مساواة للخصم في مقصده على نقيض مراده»[6]، ويقوم الحجاج/الجدل عندهم على المنازعة،

(١) محمد آيت حمو: ابن حزم فارس الحجاج في الغرب الإسلامي، ضمن التحاجج ص١٢٢.

(٢) سالم يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٨٦، ص١٣.

(٣) ابن حزم فارس الحجاج في الغرب الإسلامي، ضمن التحاجج ص١٢٩.

(٤) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ص١٧.

(٥) المنهاج في ترتيب الحجاج ص ١١.

(٦) الكافية في الجدل ص١٤٢ (المتن).

إذ أنه «إذا لم تكن منازعة لم يحسن أن يقال جدل»[1] .

أما فلاسفة اليونان فالحجاج عندهم أوسع من الجدل وهو «القاسم المشترك بين الجدل والخطابة»[2] حيث أن الجدل والخطابة وسيلتان لإنتاج الحجج[3] .

وقد عرض أرسطو للحجاج الجدلي في كتابه «الطوبيقى» و«مداره على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد»[4] ، كما عرض للحجاج الخطابي في كتابه «الريطوريقى» ، حيث أصبح الحجاج يتشكل في دائرة الممكن والمحتمل ويوجه إلى جمهور معين في مقامات معينة ، «ليس لغاية التأثير النظري العقلي وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات وإلى إرضاء الجمهور واستمالته»[5] . إذ لا يمكن اختزال المعرفة فيما هو قابل للصياغة الصورية ، بل إن مجالات شاسعة منها تشتغل بدون صياغات صورية مطلقة ، فتقدم نتائج معقولة بناء على مقدمات ممكنة واحتمالية .

وفي العصر الحديث عمد الباحثون الغربيون إلى بلورة مفهوم للحجاج يبعده عن مناورات الخطابة ، وصرامة الجدل وقصوره عن استيعاب حجاج اللغات الطبيعية ، بجعله مبحثا فلسفيا ولغويا مستقلا عن صناعتي الجدل والخطابة ، فكانت البداية مع كتابي : «استعمالات الحجاج Les usages de l'argumentation «لتولمين» ، و«مصنف في الحجاج : الخطابة الجديدة Traité de l'argumentation» :

---

(1) ابن سينا : الجدل ، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص١٨ .

(2) الحجاج في القرآن ضمن أهم نظريات الحجاج . . ص٢١ .

(3) أرسطو : كتاب الخطابة ، ترجمه وقدم له وحقق نصوصه وعلق على حواشيه إبراهيم سلامة ، ص٧٥ .

(4) الحجاج في القرآن ص٢١ .

٣٢ نفسه ص٢٢ .

«la nouvelle rhétorique» لبيرلمان وتيتيكا» الصادرين سنة ١٩٥٨ حيث حاول الباحثون وضع الحجاج في إطار فلسفي عام . بعدهما سيعالج الحجاج في نطاق لساني ، فيما عرف بنظرية الحجاج في اللغة مع ديكرو و انسكومبر اللذين انطلقا من مجهودات «بينفيست «و«أوستين» و«سورل» . . . وتعمقا فيها .كما استثمر ميشال ميار المجهودات الفلسفية واللسانية السابقة ليضع الحجاج في إطار نظرية فلسفية أوسع هي نظرية المساءلة .

لقد تراوح الحجاج إذن ، في الثقافتين الغربية والعربية بين ثلاثة مفاهيم على الأقل[1] : إذ جعله العرب القدماء مرادفا للجدل ، بينما استعمل في الفلسفة اليونانية باعتباره قاسما مشتركا بين الخطابة والجدل ، في حين سعى الباحثون الغربيون في العصر الحديث إلى بلورة نظرية في الحجاج ، تجعله مبحثا فلسفيا ولغويا مستقلا عن صناعة الجدل وصناعة الخطابة .

صفوة القول أن ارتباط الحجاج بمختلف العلوم والمعارف والفنون ، واختلاف تحديداته بحسب السياق الذي يرد فيه ، جعل الحديث عن مفهوم دقيق وواضح للحجاج أمرا غاية في الصعوبة ؛ فتعدد مجالات الحجاج وتعدد أساليبه ومضامينه وطرائقه ووظائفه . . أنتج تصورات حجاجية متباينة لتباين تخصصات واهتمامات أصحابها[2] ، كما جعل الحجاج يتداخل مع مفاهيم أخرى كالبرهان والجدل والخطابة والبلاغة . . .

ومع ذلك سنتبنى تحديدا إجرائيا يعتبر الحجاج «كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»[3] ، وسنسند هذا

(١) الحجاج في القرآن ص١٢ .

(٢) بدءا من قواعد البرهان والجدل والخطابة في الأرغانون الأرسطي ، إلى قواعد المناظرة والجدل في الدراسات الأصولية والفلسفية والبلاغية في تراثنا الإسلامي ، وانتهاء بنظرية الحجاج الحديثة باختلاف مشاربها المنطقية والبلاغية واللسانية .

(٣) اللسان والميزان ص٢٢٦ .

التعريف بملامحه الخمسة التي حددها أوليفي روبول ، فالحجاج :(1)

أ)-يتوجه إلى مستمع .

ب)- يعبر عنه بلغة طبيعية .

ج)-مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية .

د)- لا يفتقر تقدمه (تناميه) إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة .

هـ)- ليست نتائجه (خلاصاته) ملزمة .

II- الجهاز المفاهيمي الحجاجي: تحديدات اصطلاحية

1)- الحجاج والبلاغة: تكامل أم ترادف.

ليس هدفنا كما أسلفنا الوقوف على التعاريف الكثيرة للبلاغة ، وتبين جزئياتها ومشاربها ، وليس هدفنا كذلك تتبع مصطلحات كثيرة جاورت البلاغة ورادفتها أحيانا ، لكن هدفنا هو البحث وسط كل ذلك على ما يربط البلاغة بالحجاج .

تفيد البلاغة في اللغة الغاية والمنتهى ، يقال بلغ الأمر إذا وصل إلى غايته(2) ، والبلاغ الكفاية وما يتوصل به إلى الغاية ، والإبلاغ الإيصال(3) ، و«يقترن بقصد التأثير في اعتقادات الغير»(4) ، والبلاغة «من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها غيري ، ومبلغ الشيء منتهاه ، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته ، فسميت بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه»(5) .

---

(1) هل يوجد حجاج غير بلاغي؟ ترجمة محمد العمري ، علامات ، جدة ، الجزء الثاني والعشرون ، المجلد السادس ، شعبان 1417هـ/1996م ، ص77 .

(2) المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس ومن معه ، ط2 ، باب الباء .

(3) لسان العرب مادة بلغ .

(4) طه عبد الرحمان : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ص39 .

(5) الصناعتين ص6 .

لقد تعددت تعاريف البلاغة في الكتب البلاغية والنقدية القديمة والحديثة ، غير أنها اشتركت في أسس يقوم عليها القول البليغ ، منها :

* الإفهام : يقول الجاحظ : «البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»[(١)] ، وهو قول يجعل الإفهام شرط البلاغة الأول ، ويعلي من الوظيفة التواصلية والتداولية للبلاغة .

* حسن المعرض : يقول أبو هلال العسكري : «البلاغة ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ، وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة ، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقا لم يسم بليغا وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى»[(٢)] .

إن القول البليغ يجمع بين شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ وفصاحته ، أي بين المضمون والشكل ، وقد قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة؟ فقال : «كأنك تريد تخير الألفاظ في حسن إفهام»[(٣)] .

* البصر بالحجة : البلاغة هي «البصر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة ، ومن البصر بالحجة أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان طريق الإفصاح وعرا ، وكانت الكناية أحصر نفعا»[(٤)] ، وقيل لخالد بن صفوان : ما البلاغة؟ فقال : «إصابة المعنى والقصد للحجة»[(٥)] .

* المناسبة : وتقصد بها مناسبة المقال للمقام أو مطابقته لمقتضى الحال فمدار «الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار

---

(١) البيان والتبيين ، ج١ ، ص٦١ .

(٢) الصناعتين ص١٠ .

(٣) العقد الفريد ، ج١ ، ص١٧٣ .

(٤) الصناعتين ص٦ .

(٥) العقد الفريد ، ج٢ ، ص٤٣ . . .

لقد تعددت تعاريف البلاغة في الكتب البلاغية والنقدية القديمة والحديثة ، غير أنها اشتركت في أسس يقوم عليها القول البليغ ، منها :

* الإفهام : يقول الجاحظ : «البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»(١) ، وهو قول يجعل الإفهام شرط البلاغة الأول ، ويعلي من الوظيفة التواصلية والتداولية للبلاغة .

* حسن المعرض : يقول أبو هلال العسكري : «البلاغة ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ، وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة ، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقا لم يسم بليغا وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى»(٢) .

إن القول البليغ يجمع بين شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ وفصاحته ، أي بين المضمون والشكل ، وقد قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة؟ فقال : «كأنك تريد تخير الألفاظ في حسن إفهام»(٣) .

* البصر بالحجة : البلاغة هي «البصر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة ، ومن البصر بالحجة أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان طريق الإفصاح وعرا ، وكانت الكناية أحصر نفعا»(٤) ، وقيل لخالد بن صفوان : ما البلاغة؟ فقال : «إصابة المعنى والقصد للحجة»(٥) .

* المناسبة : وتقصد بها مناسبة المقال للمقام أو مطابقته لمقتضى الحال فمدار «الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار

---

(١) البيان والتبيين ، ج١ ، ص٦١ .

(٢) الصناعتين ص١٠ .

(٣) العقد الفريد ، ج١ ، ص١٧٣ .

(٤) الصناعتبن ص٦ .

(٥) العقد الفريد ، ج٢ ، ص٤٣ . . .

منازلهم»[١] ، ومدار «حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال ، وعلى لا انطباقه»[٢] .

* التحسين والتقبيح : إن للقول البليغ سلطة على نفس السامع بجعل المعاني والأشياء تبدو حسنة أو قبيحة ، ومن هنا عرف بعضهم البلاغة بأنها «تصوير الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق»[٣] ، ومنهم من جعل «أعلى رتب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود ، وللمحمود حتى يصيره في صورة المذموم»[٤] .

ولعل تزيين ما اعتاده الناس قبيحا أو تقبيح ما اعتادوه حسنا ، يحتاج إلى عارضة قوية وقدرة خصبة على الاحتجاج ، فإنما «الشأن في تحسين ما ليس بحسن ، وتصحيح ما ليس بصحيح بضرب من الاحتيال والتحيل ، ونوع من العلل والمعاذير ، ليخفى موضع الإثارة ، ويغمض موقع التقصير ، وما أكثر ما يحتاج الكاتب إلى هذا الجنس عند اعتذاره من هزيمة وحاجته إلى تغيير رسم ، أو رفع منزلة دنيء له فيها هوى ، أو حط منزلة شريف استحق ذلك منه ، إلى غير ذلك من عوارض أموره»[٥] .

القول البليغ إذن هو كل قول أفهم السامع قصد المتكلم وأقنعه به ، بمعنى شريف ولفظ فصيح وناسب المقام . . . فتكون البلاغة بذلك «قول مفقه في لطف ، فالمفقه : المفهم ، واللطيف من الكلام : ما تعطف به القلوب النافرة ، ويؤنس القلوب المستوحشة وتلين به العريكة الأبية المستعصية ، ويبلغ به الحاجة ، وتقام به الحجة ، فيخلص نفسك من العيب ويلزم صاحبك الذنب ،

---

(١) البيان والتبيين ، ج١ ، ص٩٢ .

(٢) مفتاح العلوم ، ص١٧٥ .

(٣) العقد الفريد ، ج١ ، ص٤٨ .

(٤) الصناعتين ص١٩ .

(٥) الصناعتين ، ص١٩ .

من غير أن تهيجه وتقلقه وتستدعي غضبه وتستثير حفيظته»[1] .

يلتقي الحجاج إذن مع البلاغة في هذه المعاني كلها فغايته إفهام المتلقي ، وإقناعه بالحجج القوية والأساليب المناسبة للمقام ، واستمالته والتأثير فيه ، فيكون الحجاج بمعناه الخطابي أساس البلاغة ومرادفها . وتكون البلاغة في جوهرها حجاجا خطابيا .

٢)- الحجاج والبرهان والجدل: تباين أم تقاطع.

١-١) الحجاج والبرهان:

البرهان لغة هو الحجة[2] ، «ويقال برهن يبرهن إذا جاء بحجة قاطعة للدد الخصم»[3] ، والبرهان كذلك «العلامة والدلالة والدليل والدال والبينة والآية»[4] ، وفي المعجم الوسيط هو «الحجة البينة الفاصلة»[5] .

إن هذه التحديدات اللغوية تجعل البرهان أقرب إلى الصواب واليقين والحقيقة ، فهو حجة قاطعة وبينة فاصلة ، كما أنه لا يحيل على معاني المشاركة والمبادلة والتفاعل المرتبطة بالحجاج . غير أنه ينبغي التمييز بين البرهان باعتباره حجة ودليلا ، فيغدو بذلك مكونا من مكونات العملية الاستدلالية ، وبين البرهان باعتباره طريقة في الاستدلال أكثر صرامة من الحجاج ، والبرهان كما يقول ابن سينا : «محدود الموضوع ، محدود المسألة التي يبنيها وينصرها ، محدود المبادئ التي منها يبين»[6] ، فمتى «قصد بالحجة مجرد الاستدلال بها لإثبات

---

(١) نفسه ص١٨ .

(٢) القاموس الوسيط فصل الباء ج١ .

(٣) اللسان مادة برهن .

(٤) الجويني :الكافية في الجدل ، ص٤٨ .

(٥) المعجم الوسيط مادة برهن .

(٦) ابن سينا : الشفاء ، ج٦ ، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٩٦٥ ، ص١٩٢ .

الحق وبيان الحقيقة بغض النظر عن المتلقي فهذا هو البرهان . . . وإذا قصد بإيراد الحجة -إضافة إلى ما ذكر- إقناع المتلقي وتوجيه ذهنه وعمله فذلك هو الحجاج»[١] ، ويعرف المنطقيون البرهان بأنه «قياس مؤلف من مقدمات يقينية»[٢] ، كما يعرفه الرياضيون بأنه «ما يثبت قضية من مقدمات مسلم بها»[٣] ، والاستدلال البرهاني «هو ما حشدت فيه الحجج والأدلة والبراهين لإثبات حق أو نظرية ، وكشف حقيقة لذاتها ، في منأى عن اعتبار المتلقي ، أو هو ما كانت علاقاته صارمة منضبطة و'جافة'»[٤] ، أما الاستدلال الحجاجي فهو ما «حشدت فيه تلك الأدلة والحجج لا لإثبات الحق فحسب ولكن لحمل المتلقي على الاقتناع به والإذعان له أو الزيادة في نسبة ذلك الإذعان»[٥] .

فالبرهان إذن دليل يتصف بالخصائص التالية :

* **التواطؤ** : ويقصد به أن صاحب البرهان يحرص «على أن تكون الألفاظ التي يستعملها والقواعد التي يصوغها خالية من كل أثر من آثار اللبس الدلالي كالاشتراك والإجمال والإشكال والخفاء ، حتى تكون الألفاظ دالة على معانيها بوجه واحد ووحيد ، وهذه الدلالة الواحدة أو الإفادة الواحدة هي ما اصطلح عليه القدامى بلفظ «التواطؤ»[٦] .
* **الصورية** : «لا يستقيم الدليل على أصول البرهان إلا إذا كان بالإمكان رده إلى جملة من الصيغ والتراكيب أو قل جملة من الصور التي سيغني شكلها

---

(١) عبد السلام أيت إبراهيم : الحجاج في الرسائل الموحدية من الدعوة إلى الدولة ، ص٢٥ .

(٢) المعجم الوسيط مادة برهن .

(٣) نفسه .

(٤) الرسائل الموحدية ص٢٥ .

(٥) نفسه .

(٦) اللسان والميزان ص١٣٧ .

وترتيبها على اعتبار المضمون الدلالي للألفاظ والعبارات التي استبدلت بها هذه الصيغ والتراكيب»[1] .

* القطعية : «لما انبنى البرهان على التواطؤ والصورية فقد ارتفع التردد أو الاحتمال عن النتائج التي يتوصل به إليها ، بمعنى أن البرهان يفيد القطع»[2] .

* الاستقلال : عندما ينتهي البرهاني من صنع برهانه «يستقل هذا الصنيع عنه كما يستقل عن المخاطب به حتى ولو كان عنصرا حاضرا في تصوره وبناء قواعده . . . يتضح أن البرهان لا تعلق له بالمجال الذي يستعمل فيه»[3] ، فهو يتوخى «معرفة يقينية أي معرفة متعالية عن المتغيرات المقامية»[4] ، في حين يعتبر المقام مكونا حاسما في العملية الحجاجية التي يراعى فيها «تأثير العوامل المعنوية والسلوكية فضلا على تأثير العوامل المعرفية والمنهجية»[5] ، بالإضافة إلى أن الهدف من الحجاج هو «إثبات الدعاوى أو إبطالها لأجل استجلاب استحسان أو استهجان جمهور ما لها ، بغرض استنهاضه لفعل أو ثنيه عنه»[6] ، وهو بذلك غير مستقل لا عن منتجه ولا متلقيه . «فمن البرهنة والمنطق إلى الحجاج يتخذ دور الباث نسقا تصاعديا ، فإذا كان لا دخل له البتة في نجاعة البرهنة وصحة الاستدلال المنطقي ، فإنه يصبح أساسيا متى تعلق الأمر بتقنيات الإقناع في الخطاب الحجاجي»[7] ، والأمر

---

(١) اللسان والميزان . ص١٣٧ .

(٢) اللسان والميزان ص١٣٧ .

(٣) نفسه ص١٣٨ .

(٤) بناصر البعزاتي : الصلة بين التمثيل والاستنباط ، ضمن التحاجج ، ص٢٦ .

(٥) نفسه ص٧ .

(٦) نفسه .

(٧) الحجاج في الشعر ص٣٤ .

ذاته يمكن قوله بالنسبة للمتلقي «فالبرهنة أو المنطق الصوري يتوجهان فعلا إلى المتلقي الكوني . . في حين يبدو جليا أن فنيات الإقناع في أي خطاب حجاجي غير ذات قيمة إلا بالنسبة إلى المتلقي الخاص فردا كان أو مجموعة»[1] .

لقد استأثر القول البرهاني بدائرة الحق منذ أرسطو الذي فهم أن العلم البرهاني يتمثل في الاستناد إلى مقدمات سابقة على النتيجة ومعروفة من قبلها وضرورية ، وبهذا المعنى فإن العلم البرهاني يجب أن يكون علما ضروريا لأنه معرفة بالكلي ، ومن ثم فإن قوام البرهان مقدمات أولية صادقة وسابقة على النتيجة وأبين منها ، أما الحجاج فوضعه المعلم الأول في دائرة الممكن والمحتمل .

والخلاصة أن البرهان يجنح إلى اللزوم المنطقي في إطار اليقينيات ، بينما يقوم الحجاج على منطلقات غير يقينية فمجاله المحتمل ، ويكون فيه «غالبا قسط من الشك ، مما يدفعنا دائما إلى البحث عن حجج من أجل تحقيق درجة أعلى من الإقناع»[2] . والبرهان غايته بيان الحقيقة بينما الحجاج غايته إقناع المتلقي ودفعه إلى الفعل أو الترك ، لذلك كان «أهم ما في البرهان هو الاستنباط وبؤرة الحجاج هي التمثيل»[3] ، كما أن القول البرهاني يقوم على الصورية والصرامة واللغة الاصطناعية ، في حين أن الحجاج مرن وينتعش في ليونة والتباس اللغة الطبيعية .

---

(١) نفسه ص٣٤ .

(٢) محمد الرويض : حول مفهوم الحجاج و الفلسفة ، مجلة فكر ونقد ، الرباط ، العدد ٢٦ ، السنة الثالثة ، ٢٠٠٠ ، ص٣٩ .

(٣) الصلة بين التمثيل والاستنباط ، ضمن التحاجج ، ص٣٤ .

٢-٢)- الحجاج والجدل:

الجدل لغة من جدل الحبل أي فتله[١] ، وجادله «أي خاصمه مجادلة وجدالا والاسم الجدل وهو شدة الخصومة»[٢] ، والجدل «اللدد في الخصومة والقدرة عليها»[٣] ، ورجل جدِل ومجدال شديد الجدل[٤] ، وفي اللسان «الجدل مقابلة الحجة بالحجة والمجادلة المناظرة والمخاصمة»[٥] .

والجدل اصطلاحا هو «مخاطبة بين اثنين يقصد كل واحد منهما غلبة صاحبه بأي نوع اتفق من الأقاويل»[٦] ، وهو «علم يدور على كيفيات الاحتجاج والسبل الكفيلة بالإقناع»[٧] ، وهو عند أرسطو استدلال تستخدم فيه مقدمات محتملة تستمد من آراء الجمهور أو العلماء ، وقد جعل الأقوال الجدلية والخطابية والشعرية تدور على الممكن والمحتمل ، «وإن كان الجدل أقربها إلى دائرة الحق وكان الشعر أبعدها وتوسطت بينهما الخطابة»[٨] ، وقد سبق معنا أن الحجاج عند أرسطو «هو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة»[٩] ، فالحجاج يأخذ من الجدل طابعه الحواري المنطلق من وضعيات ومسائل معينة ، كما يأخذ من الخطابة كيفيات تقديمها للحجج وترتيبها ومزجها بين الإقناع والاستمالة

---

(١) أساس البلاغة مادة جدل .

(٢) الصحاح في اللغة مادة جدل .

(٣) القاموس المحيط فصل الجيم .

(٤) المحكم والمحيط الأعظم ج٢ مادة جدل .

(٥) لسان العرب مادة جدل .

(٦) ابن رشد : كتاب الجدل ، ص٥٠٠ .

(٧) الحجاج عند أرسطو ، أهم نظريات الحجاج ص٤٠ .

(٨) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ، ضمن أهم نظريات الحجاج ، ص١٨ .

(٩) عبد الله صولة ضمن أهم نظريات الحجاج ص٣١,

والتأثير . والجدل والخطابة غايتهما «مخاطبة الغير»(١) ، فالإنسان «المجادل والخطيب لا يستعمل الجدل أو الخطابة مع نفسه كما هو حاله حينما يستخدم البرهان ، وإنما يستخدمهما فقط في مخاطبة الغير»(٢) . ويؤكد أوليفي روبول أن «ما يميز الجدل عن البرهنة الفلسفية والعلمية أنه يستدل انطلاقا من المحتمل ، وما يميزه عن السفسطة أنه يستدل بطريقة صارمة محترما بدقة قواعد المنطق»(٣) .

الحجاج إذن بمعناه العام أعم من الجدل ، ومن ثم فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدل ، أو بعبارة أخرى الجدل شكل خاص من الحجاج(٤) ، أما الحجاج بمعناه الخاص الذي يقربه أكثر من الخطابة والبلاغة فهو وإن اشترك مع الجدل في ارتباطهما بمجال المنازعة والمغالبة والخصومة ومقابلة الحجة بالحجة في مخاطبة الغير ، واعتمادهما على مقدمات ممكنة ومحتملة ، وفي تشابه آليات الاستدلال فيهما ، فإن بينهما فروقا : فالاستدلال الجدلي يروم الحقيقة فتكون نتائجه أقرب ما يكون إليها ، فيراهن على الإقناع الذهني ويميل إلى اعتماد الأدلة العقلية ، مما يجعله متسما بالصرامة وخاضعا لضوابط منطقية ، بينما قصد الحجاج توجيه المتلقي نحو فعل أو ترك ، فغايته عملية ، ولذلك يوظف الإمكانات الهائلة للغة الطبيعية المتسمة بالمرونة والالتباس ، فيمزج بين الإقناع والاستمالة والتأثير . . .

وإذا كان الحجاج والجدل يعتمدان معا على مقدمات احتمالية ومشهورة ،

---

(١) ابن رشد : تلخيص الخطابة ، تحقيق بدوي ، ص٣ .

(٢) مصطفى النشار : في فلسفة الحضارة وجدل الأنا والآخر : نحو بناء حضارة إنسانية موحدة ، دار قباء الحديثة ، ط١ ، ٢٠٠٧ ، ص٩٧/٩٨ .

(3) Olivier; Reboul: Introduction a la rhétorique; Press Universitaires de France; 2 édition corrigée; 1994; p39.

(٤) بهذا المعنى تعامل العلماء العرب القدامى مع الحجاج .

فإن مقدمات الحجاج تكون محتملة ومشهورة عند العامة ، في حين تكون مقدمات الجدل إما مشهورة «عند الجميع مثل أن الله موجود ، أو المشهورات عند أكثرهم من غير أن يخالفهم الباقون ، أو المشهورة عند العلماء والفلاسفة من غير أن يخالفهم الجمهور مثل ما يراه الحكماء في بقاء النفس ، أو المشهورات عند أكثر العلماء من غير أن يخالفهم الباقون ، أو المشهور عند ذوي النباهة والصيت من أهل العلم من غير أن يكون رأيا مبتدعا ؛ أعني مخالفا لما يراه الجمهور»[1] ، مما يجعل نتائج الجدل أقرب إلى اليقين من نتائج الحجاج .

هناك اختلافات إذن بين «مرتكزات الحجاج في الجدل ومرتكزاته في الخطابة ، فهي مرتكزات عقلية خالصة في الجدل فلا يخاطب المحتج لقضية أو موقف أو رأي في متلقيه سوى العقل ، في حين تكون مرتكزات الحجاج في الخطابة عاطفية بالأساس ، فهو ضرب من التأثير العاطفي يصل أحيانا كثيرة حد الإثارة والتحريض»[2] .

صفوة القول إن الحجاج بمعناه العام هو الاستدلال أي طلب الحجة والدليل ، وهو بذلك أعم من البرهان والجدل ، فيكون كل برهان حجاج وكل جدل حجاج والعكس ليس صحيحا ، أما الحجاج بمعناه الخاص أي الحجاج البلاغي والخطابي فهو شكل استدلالي مخالف للاستدلال البرهاني والاستدلال الجدلي ، «فالأقيسة البرهانية تبدأ بمقدمات يقينية ، بينما الأقيسة الجدلية تبدأ من مقدمات ذائعة أو مشهورة ، أما الأقيسة الخطابية فهي تبدأ بأقوال مقنعة»[3] ، وإن كان الفصل بين هذه الأشكال الاستدلالية لا ينفي التداخل الكبير بينها ، فالأمور «العلمية نفسها يمكن أن تكون موضع مرافعة وذلك حينما تعوزنا الأدوات البرهانية أو التجريبية لإثبات أمر ما ، أو حينما نكون في مواجهة

---

(1) ابن سينا : كتاب الشفا ، ص٥٠٩/٥١٠ .

(2) الحجاج في الشعر ص١٨ .

(3) في فلسفة الحضارة وجدل الأنا والآخر . . . ص٩٨ .

جمهور جاهل وغير متوفر على الحد الأدنى من المعرفة التي تؤهله لهضم البراهين العلمية المنطقية أو التجريبية»[١] . ثم إن «الفاعلية العقلية لا تسير على وثيرة واحدة في ظل تنوع الملابسات المقامية وتعددها حتى في العلم ، بل وحتى في أدق العلوم»[٢] ، فالبشر يتفاوتون في قدراتهم العقلية وليس «كل صنف من أصناف الناس ينبغي أن يستعمل معهم البرهان في الأشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها . وذلك إما لأن الإنسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحق ، فإذا سلك به نحو الأشياء التي نشأ عليها سهل إقناعه . وإما لأن فطرته ليست معدة لقبول البرهان أصلا . وإما لأنه لا يمكن بيانه له في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منه وقوع التصديق فيه ، فلهذا قد نضطر إلى أن نحصل التصديق بالمقدمات المشتركة بيننا وبين المخاطب أعني المحمودات ، وهذه المنفعة تشارك هذه الصناعة فيها صناعة الجدل»[٣] .

II- مسار الوظيفة الإقناعية في البلاغة الغربية:

ارتبطت نشأة البلاغة الإغريقية بقضايا الملكية التي أقيمت بعد سقوط الطاغيتين جيلون Gelon وهييرون Hieron ، إثر انتفاضة ديمقراطية ، خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد تطلبت تلك القضايا من الأهالي امتلاك القدرة على إقناع لجان التحكيم الشعبية التي تم تعينها للفصل في الدعاوي ، كما انتعشت بالجو الديمقراطي السائد بعد طردهما[٤] .

وقد شكلت مجهودات السوفسطائين اللبنات الأولى في هذا الفن حيث وضع كوراكس Corax (ق٥ق .م) مصنفا تحدث فيه عن قواعد الترتيب ، و تناول

---

(١) الاستعارة في محطات ص٢٨ .

(٢) بناصر البعزاتي : الصلة بين التمثيل والاستنباط ، ضمن التحاجج ، ص٤٦ .

(٣) ابن رشد : تلخيص الخطابة ، ص١١ .

(٤) قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ص٣٦ .

مسألة الاحتمال التي توسع فيها تلميذه تسياس Tisias (ق٥ق .م) ، لتأتي بعد ذلك إضافات أفلاطون (٣٧٥ ق .م) المنتقدة للخطابة السوفسطائية ، إلا أن أهم المصنفات الإغريقية والتي سيستمر حضورها حتى العصر الحديث ، هي مصنفات أرسطو (٣٢٣ ق .م) خاصة كتاب «الخطابة» .

لقد فصل أرسطو منذ البداية بين الشعرية والخطابية مؤكدا ارتباط الأولى بالمحاكاة ، بينما تدرس الثانية السبل المؤدية إلى الإقناع ، إقناع في مجال المحتمل والمسائل الخلافية القابلة للنقاش ، ففي صنعة الخطابة ننتقل من حجة إلى حجة ، فيما يتطور الخطاب في صنعة الشعر من صورة إلى صورة ، وهذا التفريق بين الصناعتين (الشعر والخطابة) هو جوهر البلاغة الأرسطية ودليل صفائها وانتسابها إليه[1] .

هكذا إذن كانت نشأة البلاغة الغربية مرتبطة بالإقناع وآلياته ، إلا أن تاريخها نحا بها نحو «تقلص البعد الفلسفي التداولي . . وتوسع البعد الأسلوبي حتى صار الموضوع الوحيد لها»[2] ، فكانت النتيجة أن«بدأت بلاغة أرسطو في الانحسار منذ وقت مبكر»[3] ، و يبدأ هذا الانحسار مع هوراس (٦٥-٨ق .م) وأوفيد (٤٣ق .م-١٦بعده) «فقد اشتهر عن الأول تقريبه بين القصيدة الشعرية والخطبة ، وكتب الثاني رسالة في الشعر جعل فيها الآلة الخطابية في مظهرها اللغوي أداة لدراسة الشعر حتى أصبحت تبعا لذلك كتب صناعة الشعر كتب خطابية»[4] .

وحد هوراس وأوفيد بين الشعرية والبلاغة ، فانحصرت هذه الأخيرة «في مجال المحسنات بل بلغ هذا التصنيف أوجه في تمركز الاهتمام حول الاستعارة

---

(١) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن أهم نظريات الحجاج ، ص٢٨ .

(٢) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ص١٢ .

(٣) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ص٣٦ .

(٤) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ص٢٨ .

باعتبارها الشكل الأمثل للانزياح الذي يشكل صميم نظرية الصورة البلاغية»[1] ، واستمر ذلك الانحصار مع كنتليان (٤٠-١١٨ ب م) و بلوتارك (٤٥-١٢٥ب .م) وغيرهما .

ويرى الدكتور حمادي صمود أن من العوامل التي كرست هذا التوجه نحو جانب العبارة ظهور مصطلح الأدب من جهة «بوصفه الفضاء الذي تم في رحابه الانصهار بين الشعر والخطابة»[2] ، وتفرع العلوم اللغوية من جهة أخرى إلى النحو والجدل والخطابة ، «فاهتم النحو بالتركيب والتقسيم وما يقومان عليه من صرف وأصوات ، وأصبح علم الجدل علما يدور على كيفيات الاحتجاج والسبل الكفيلة بالإقناع ، ولم يبق للخطابة إلا القسم الثالث من هذه النواة الصلبة وهو قسم العبارة»[3] ، فسارت البلاغة بذلك نحو «موتها»[4] . وهكذا تراجع البعد الحجاجي للبلاغة ليفسح المجال لسيادة الصورة والأسلوب ، وهو تراجع سيستمر «مع الشكلانيات والشعريات وبعض التيارات البلاغية الحديثة التي تريد أن تكون محض أدبية بدون أية علاقة بالإقناع»[5] .

غير أن البلاغة استطاعت أن تنفض عنها غبار السنين و تنبعث من جديد ، ففي العصر الحديث ، الذي شهد انقلابات سياسية وفكرية واقتصادية ولدت خطابات وخطابات مضادة ، مؤطرة بإيديولوجيات متناقضة ، ونابعة من تيارات متصارعة أذكتها وسائل الاتصال لارتباطها أساسا بمقاصد التأثير والفتنة والإقناع ، عرفت البلاغة نهضة «منصبة على استرجاع البعد المفقود في تجاذب

---

(١) عبد الكبير الشرقاوي : تقديم كتاب البلاغة القديمة ص١٩ .

(٢) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ، ص٤٠ .

(٣) نفسه ص٤٠ .

(٤) قراءة جديدة للبلاغة القديمة ص٨٣ .

(٥) الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية ص٨ .

بين المجال الأدبي (حيث يهيمن التخييل) و المجال الفلسفي المنطقي واللساني (حيث يهيمن التداول)»[1] .

ويرجع هنريش بليت أسباب هذه النهضة التي عرفتها البلاغة في مجال التنظير «إلى الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية ونظريات التواصل والسيميائيات والنقد الإيديولوجي ، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها»[2] ، وهكذا برز مجموعة من الباحثين أمثال : شايم بيرلمان ، وجيرار جنيت ، وتودوروف ، و جون كوهن ، وبول ريكور ، وديكرو ، وميشال ميار وغيرهم . . . فانتقلت البلاغة معهم إلى تحليل الخطاب ودراسة خصوصياته .

وقد سعت جل المجهودات البلاغية الحديثة إلى بناء مفهوم «البلاغة العامة» مفهوم نسقي يستوعب المفهومين السائدين : المفهوم الأرسطي الذي ينبني على الإقناع باعتماد الملكة الخطابية ، والمفهوم الأدبي الذي يجعل الخطاب هدفا في حد ذاته فيبحث في صور الأسلوب ، من خلال توسيع منطقة التقاطع بين الشعرية والخطابية ، فتبنى بذلك بلاغة جديدة «رائدها التأثير والتفعيل»[3] ، بلاغة ينصهر فيها الشعري والتداولي الخطبي .

وارتبطت هذه الحركات التجديدية للبلاغة بالعودة لأرسطو وجعل متنه منطلقا لها ، فبرلمان Perleman ، مثلا ، يصرح : «إن العمل الطويل النفس الذي خضت فيه مع أولبريشت تيتيكا هو الذي قادنا إلى نتائج غير متوقعة إطلاقا ، نتائج كانت بالنسبة إلينا كشفا لأمر كان محجوبا عنا ، ألا وهو أنه لا يوجد منطق للقيم ، وأن ما نبحث عنه كان قد عولج من طرف مبحث ضارب في

---

(١) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ص١٢ .

(٢) هنريش بليت : البلاغة والأسلوبية ، ترجمة محمد العمري وتقديمه وتعليقه ، منشورات دراسات سال ، ط١ ، البيضاء ، ١٩٨٩ ، ص١٥ .

(٣) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ، ص٧٧ .

القدم منسي حاليا ومستهجن هو البلاغة ، أي : فن الإقناع والاقتناع»[1] ، لقد حرص بيرلمان على «إعادة الاهتمام بتقنيات الإقناع المؤثر وإعادة الاعتبار للبعد الحجاجي وعدم حصر البلاغة في الأسلوبي والشعري»[2] ، وهكذا أدرك الغربيون أن ظواهر مثل السجال السياسي والخطاب الإعلامي والخطاب الإشهاري تتعلق بطرائق معروفة من طرف الخطباء والبلغاء منذ قرون .

ويعتقد محمد العمري أن هذه العودة إلى خطابية أرسطو (أي الريطوريك) لتكون عنوانا للبلاغة العامة تعتبر من المفارقات ، على اعتبار أن أرسطو هو أول من شطر الخطاب إلى شعرية وخطابية (Poétique et Rhétorique) ، إلا أنه يعود ليبرر هذه المفارقة بـ«كون خطابيته (أرسطو) قد تضمنت عناصر حجاجية وأسلوبية قابلة للتنمية والتوسع ، كما أن أجناسها الثلاثة قابلة لاحتواء أصناف الخطاب الاحتمالي المؤثر»[3] .

إن الشعرية والخطابية تلتقيان في كونهما تقومان على الاحتمال «الاحتمال توهيما وترجيحا ، التوهيم في التخييل والترجيح في التداول الحجاجي»[4] ، إلا أن تعامل الدارسين مع هذا الالتقاء أخذ منحيين مختلفين : فمنهم من ركز على الخصوصيات النوعية لكل جنس ففصل بين الجنسين ومنهم من وسع منطقة التقاطع والالتقاء وجعلها منطلقا لعلم عام للشعرية والخطابة ، هذا العلم هو البلاغة .

وسنمثل للفئة الأولى ببول ريكور الذي يعترف بوجود تقاطع بين الشعرية والخطابية بل ويسلم بوجود شعر في الخطابة و خطابة في الشعر ، إلا أن هذا التقاطع غير كاف ، في نظره ، للوصل بين الجنسين ومرد ذلك اختلافهما من

---

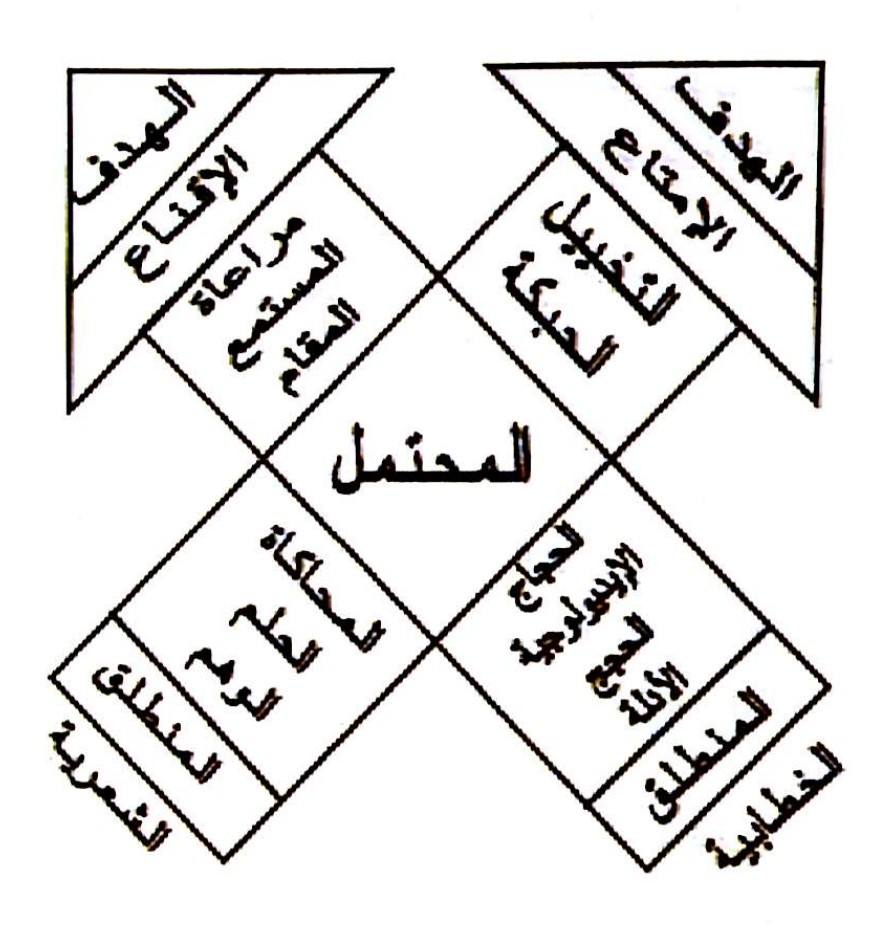
(1) Perleman Ch: L'empire rhétorique; Librairie philosophique, paris1988, p9.

(٢) الخطاب الإقناعي ص٩ .

(٣) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ، ص١٣ .

(٤) نفسه ص١٥ .

حيث المنطلق والهدف ، يقول : «غير أن تقاطعهما يعني مجيئهما من مكانين مختلفين وتوجههما نحو
هدفين مختلفين»[1] ، ونلخص تصور بول ريكور في الخطاطة التالية :[2]



أما القائلين بالوصل بين الشعرية والخطابية في نطاق بلاغة عامة أو مفهوم نسقي للبلاغة[3] ، فقد وسعوا المنطقة المشتركة بينهما ، حيث يؤكد «أوليفي

(1) Paul Ricoeur: Rhétorique.poétique et herméneutique. Bruxelle 1986 p:148.

(٢) عبد العالي قادا : الحجاج في الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الهجري ، رسالة ابن غرسية ورد ابن من الله عليها أنموذجا ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة ، مرقون بكلية اللغة العربية بمراكش ، ص١٠ .

(٣) الخطاب الإقناعي ص٩ .

روبول أن العنصر» البلاغي في أي خطاب هو ما يجعله مقنعا باتحاد الموضوع والشكل ، أقصد بالمضمون المحتوى الإخباري والبنية المنطقية للخطاب ، وبالشكل كل ما ينبع من الوجدان (الإثارة والتهييج)»[١] ، ومن ثم تصبح البلاغة شاملة للعنصرين الشعري والخطابي ويصبح ما ينتمي للبلاغة هو «كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب ، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث : المتعة والتعليم والإثارة مجتمعة متعاضدة ، كل خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعمتين بالحجاج»[٢] .

لقد أبرز أوليفي روبول العنصر المشترك بين الحجة والأسلوب في دراسته للخطاب الإقناعي ، إذ أن «هذا العنصر المشترك هو الذي يمكن أن يكون أكثر أهمية ، وهو يعني تفصل الحجج والأسلوب في الوظيفة نفسها»[٣] . ويعتقد الدكتور محمد العمري[٤] أن عملية توسيع المنطقة المشتركة بين الشعرية والخطابية اعتمدت إجراءين متكاملين وهما : النحت من الجوار المنطقي اللساني والتقريب بين قطبي الاحتمال (الصدق والكذب) من خلال فحص طبيعة الآليات الجوهرية الخاصة بكل منهما «حيث صار من الشائع الحديث عن بلاغة الصورة (أو الصور) وبلاغة الحجاج»[٥] .

وقد انتهى أوليفي روبول في مقاله الصورة والحجة إلى القول : «نعم الصورة تسهل الحجاج ، نعم إنها تشارك في الحجاج ، وتكاد الوظيفتان تكونان

---

(١) أوليفي روبول : هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ ترجمة محمد العمري ، ضمن البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ، ص٢١٨ .

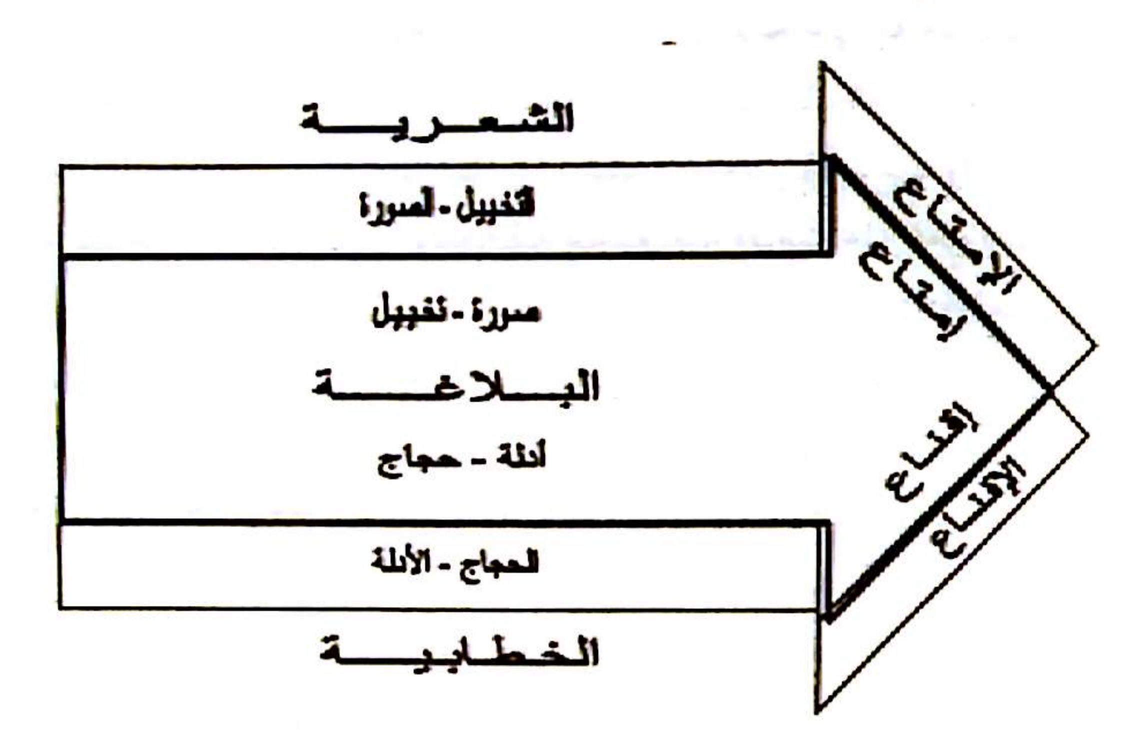
(2) Reboul-Olivier: la rhétorique. Que sais-je? paris1984. 1ère édition p32/33.

(3) Olivier, R: Introduction a la rhétorique. P4.

(٤) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ص٢٢ .

(٥) نفسه .

متلازمتين على الدوام ، وهذا التلازم هو في العمق جوهر البلاغة»[١] . ونلخص تصور روبول في الخطاطة التالية :[٢]



III- البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع:

تختلف البلاغة العربية عن نظيرتها الغربية من حيث ظروف النشأة ، والخصوصية الثقافية ، والسياق التاريخي ، فإذا كانت البلاغة الغربية نشأت مرتبطة بالخطابة ، في إطار فلسفي منطقي محاولة تصنيف الأقاويل حسب قدرتها على قول الحقيقة ، فإن البلاغة العربية ظهرت تباشيرها في أحضان الشعر ، «والشعر وقعه من إيقاعه وفضله من هيئة القول فيه»[٣] ، والمفاضلة بين

(1) Reboul-Olivier: la figure et l'argumentation in de la métaphisique à la rhétorique , Bruxelle 1986, p 186.

(٢) الحجاج في الرسائل الأندلسية ص ١١ .

(٣) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ص١٩ .

الشعراء كانت مرتبطة «بتصوير المعاني وإخراجها رائقة عذبة تسر الناظر وتخلب لب المستمع»[(١)] . وإذا كانت البلاغة الغربية فصلت الخطابة عن الشعر «فوجدنا أرسطو يفرد الشعر بكتاب ، ويفرد الخطابة بكتاب ، ويلح على الفرق بينهما من جهة الوظيفة والمقصد ، ومن جهة الوسائل الموصلة إلى تلك الغايات والمقاصد ، على ما يجمع بينهما بعد كل ذلك من تشابه في بعض الأساليب والأقسام لا سيما في باب العبارة»[(٢)] ، فإن البلاغة العربية «قامت على دمج المسلكين الخطابي والشعري»[(٣)] ، غير أن شبكة قراءة فترة تأسيس البلاغة العربية - حسب صمود- لم تختر المسلك الخطابي «ولم تعتبره نقطة ارتكاز في بناء النظرية البلاغية ، فبقي أغلبه مطمورا»[(٤)] .

ولم يتغير هذا المسار بظهور علوم القرآن الكريم ، فقد كانت أغلب البحوث الإعجازية «مبنية في حقيقتها على تقويم النصوص والحكم عليها باعتبار القرآن نصا أدبيا بليغا متفردا»[(٥)] ، وشغل جل الدارسين لمسألة إعجاز القرآن «بالبحث في بلاغة القرآن من خلال الشعر العربي»[(٦)] فلم يولوا كبير عناية للحجج والأدلة التي يبنيها النص القرآني ، والسياسة التي ينتهجها في ترتيب وتقديم هذه الحجج لتتضافر مع الشكل فيحقق النص قصده الإقناعي .

غير أن التفكير في القول سيأخذ منحى مختلفا مع أبي عثمان بن بحر

---

(١) نفسه ص١٩ .

(٢) حمادي صمود : أتكون البلاغة في الجوهر حجاجا؟ ضمن : من تجليات الخطاب البلاغي ، ص٨٦ .

(٣) نفسه ص٨٦ .

(٤) نفسه ، ص٨٩ .

(٥) عباس ارحيلة : البحوث الإعجازية والنقد الأدبي إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، دار اليمامة للنشر والإعلام ، ط١ -١٩٩٧ص٣٦٦ .

(٦) البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ص٢٩ .

الجاحظ (٢٥٥هـ) الذي سعى إلى وضع أسس البيان العربي ، والبيان عنده هو «الفهم والإفهام» .

لقد كان الجاحظ «رجل محاجة ومناظرة ومتكلم عارف بتصاريف الكلام ووجوه الاحتجاج»[1] ، معتزليا ملما باللغة والنحو والأخبار والأديان والثقافات . . . كما عايش فترة خصبة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي ، نضجت فيها العلوم ونشطت الترجمة ، وتمازجت الأجناس ، وظهرت الزندقة والإلحاد والشعوبية ، فكان من الطبيعي أن يعزز متنه بالحجة الواضحة والبرهان الساطع ليقارع الخصوم ، ويستميل الأعناق ويجذب النفوس ، فحضرت الخطبة في كتابه «البيان والتبيين» بشكل لافت ، إذ «كان أول من أفاض الحديث عن الخطبة وسياق الخطبة وتوسع في دور كل طرف من أطراف العملية التخاطبية : المتكلم والسامع والنص في جعل النص بليغا ومؤثرا مقنعا»[2] .

فالقول الخطبي عنده يكون للخصومة والمنازعة والاحتجاج على أرباب النحل ، وغاية الخطيب «أن تكون الأعناق إليه أميل والنفوس إليه أسرع والعقول عنه أفهم»[3] ، أي أن غايته التأثير والإقناع .

لقد وجه الجاحظ البيان ومن خلاله البلاغة وجهة أخرى ، مؤلفا بين الرافد الخطابي والرافد الشعري ، وجاعلا للبلاغة وظيفتين أساسيين متكاملتين هما : الإمتاع والإقناع ، إلا أن مؤلف «البيان والتبيين» «على ما فيه من نصاعة البدايات ، وفوران المادة المروية المتأتي من عطش التدوين والجمع في هذه الفترة المبكرة ، لم يستغل في الدراسات البلاغية إلا من جهة ما فيه من تعريفات بلاغية ، ومقاييس ووجوه في المعنى الضيق المقتصر على باب العبارة»[4] ، وإذا

---

(١) مقدمة في الخلفية النظرية في المصطلح ص٢١ .

(٢) مقدمة في الخلفية النظرية في المصطلح ص٢١ .

(٣) البيان والتبيين ج١ ، ص٧ .

(٤) أتكون البلاغة في الجوهر حجاجا؟ ص٨٧ .



استثنينا قراءة ابن وهب لمشروع الجاحظ والتي «ماتت في المهد تقريبا ، نتيجة تفتحه على الفكر اليوناني وتوسعه في التفريعات المنطقية»[1] ، نجد أن البلاغة ارتبطت بمنشأ البديع الذي أسسه ابن المعتز (٢٩٦هـ) في الثلث الأخير من القرن الثالث الهجري يقول : «وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين»[2] ، فأظهرت «الكثير من المصنفات منذ عبد الله بن المعتز حتى تجنيس البديع للسجلماسي احتفاء خاصا ببلاغة المحسنات دون بلاغة الخطابة التي حدد الجاحظ أهم دعائمها»[3] ، ومع مطلع القرن الهجري الرابع غدت البلاغة مرتبطة أساسا بالوجوه والصور وأساليب أداء المعنى وأنماط البديع .

وبالرغم من أن تفسير توجه البلاغة العربية نحو الأساليب البديعية وتركيزها على وظيفة الإمتاع ، «ليس بالأمر الهين المبذول لا سيما والفكر العربي الإسلامي عرف في فترات مختلفة فنونا من الجدل والمناظرة والخلاف في شتى العلوم والمعارف . . . بل إن علما قائم الذات نشأ من الخلاف حول أصول الاعتقاد وهو علم الكلام »[4] ، الذي اعتبره علماء الإسلام «ملكة حجاجية تشتغل في ميدان الملة المظنونة»[5] ، كما نادى فلاسفة الإسلام بشحذ هذه الملكة بالأداة اليونانية المناسبة لميدان الظن والعمل ، أي الأداة الجدلية والخطابية ، إذ عدوها الأداة المثلى لعقلنة المناقشة في مجالي الآراء الملية والأفعال الملية[6] ، يقول الفارابي : «الجدل والخطابة . . . عظيما العناء في أن

---

(١) البحوث الإعجازية ص٣١١ .

(٢) ابن المعتز : البديع ، تحقيق كراتشفوسكي ، لندن ، ص٥٨ .

(٣) خطاب المناظرة ص٢ .

(٤) في الخلفية النظرية للمصطلح ص٢٤ .

(٥) منطق الكلام : من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي ص١٨٢,

(٦) منطق الكلام ص ١٨٢ .

تصحح بهما آراء أهل الملة عند المدنيين ، وتنصر بهما ويدافع عنها وتمكن في نفوسهم ، وفي أن تنصر بهما الآراء إذا ورد من يروم مغالطة أهلها بالقول وتضليلهم ومعاندتهم»[1] ، فإن الدكتور حمادي صمود أبرز بعض العوامل المفسرة لهذا الانحسار نجملها مع بعض الإضافة والتعليق ، والتصنيف من عندنا ، فيما يلي :[2]

أ)-العامل الثقافي:

يتمثل في هيمنة الشعر على باقي أصناف القول في الثقافة العربية قبل نزول القرآن ، إذ لم يكن معه إلا أسجاع الكهان وتعاويذهم مع رسائل وأسمار وخطب محدودة ، والجامع بين هذه الأنواع كونها أدبا شفاهيا يعتمد وقع الشكل على السمع في غياب المعنى غيابا كليا أحيانا ، على اعتبار أن من يتقرب إليهم بالأسجاع يحكمهم منطق غير منطقنا ، ولا تقع ألفاظ لغاتهم على معانيها كما تقع في لغاتنا ، «ولعل البحث في هذا الاتجاه يعيننا على بلورة مكان الشكل في اعتبار البلاغيين للخطاب والنص»[3] .

ب)- العامل الديني:

هاجم القرآن الكريم الممارسات السابقة (أسجاع ، أدعية ، تعاويذ . . .) ، إلا أنه تحدى المخاطبين (العرب) في دائرتهم وداخل بنيتهم الثقافية لأن «النهايات والمراتب التي تقعد دونها الهمم وتنقطع الآمال لا تكون إلا من خصائص الموجود الممكن ، منه نشتق المعجز»[4] ، فالمعجزة تكون من جنس ما برع فيه

---

(1) الفارابي : كتاب الملة ص٤٧/٤٨ .

(2) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ص٢٤/٣٠ .

(3) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ، ص٢٥ .

(4) نفسه ص٢٦ .

المخاطبون ، وقد برع العرب في الشعر وفضل الشعر في شكله وإيقاعه وبنيته ، «فكان الإعجاز في الخطاب مناط أساليب القول لامناهج الأدلة»[1] .

ثم إن القرآن الكريم «حجة الحجج» ، والمحتج لقضية «يكفيه النص مؤونة حمل القول على بناء الأدلة واستنباط الحجة»[2] ، فلا حجاج إلا خارج النص أو فيما أشكل واحتاج إلى التأويل ، وبهذا أصبح القرآن باعتباره عامل وحدة لا عامل اختلاف ، محور الثقافة العربية و«أصلها المعتمد في الدين والدنيا ، يؤثر في كل شيء من المعاملات إلى النظام الرمزي والمخيال»[3] .

غير أننا نختلف -قليلا- مع الأستاذ حمادي صمود ، لأن النص الديني وإن أجمعت الأمة على أولويته باعتباره المصدر الأول للتشريع المحفوظ من التحريف المنزه عن الغلط والصالح لكل زمان ومكان ، فإنها اختلفت اختلافا كبيرا في تأويل نصوصه[4] ، فتحول بذلك في مراحل حارقة من تاريخ الأمة من عامل وحدة إلى عامل صراع وقتال ، وفي أحسن الأحوال -وهذا ما يهمنا- إلى عامل احتجاج وجدل ومناظرة[5] ، فيكون بهذا المنظور عامل توسيع وتأصيل للحجاج والإقناع لا عامل انحصار .

---

(١) نفسه ص٢٦ .

(٢) نفسه ص٢٦ .

(٣) نفسه ص٢٦ .

(٤) يكفي أن نشير هنا إلى تعليل بني أمية تصرفهم في رقاب وأرزاق الناس بإعطاء تأويلات خاصة للنصوص تتماشى مع مصالح دولتهم ، فنشروا بين الناس أن كل ما يحدث لهم هو قضاء وقدر ، وأن الإنسان مسير لا مخير (القدرية والجبر) .

(٥) نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الرسالة الجوابية للحسن البصري على رسالة عبد الملك بن مروان التي طلب منه فيها تفسيرا عن موقفه من القدر . (تنظر رسالة عبد الملك بن مروان وجواب الحسن البصري في : الفكر الأخلاقي العربي ، ج١ ، نصوص مختارة ، جمعها وقدم لها : ماجد فخري ، طبعة 'الأهلية للنشر والتوزيع' ، بيروت ١٩٧٨ . صص ٢٠/٢٨) .

ج)-العامل السياسي:

ديت الفتنة في المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام شيئا فشيئا[1] ، فتباينت المواقف واختلفت الآراء وتعارضت الحجج ،ليكتسب القول فتنة وسلطة ، وراجت سلطة الخطابة في فترة «من أهم الفترات الخصيبة في تاريخ الثقافة الإسلامية في وضع القول في مواجهة إمكاناته لإبراز ما للغة من قدرة على قول الشيء ونقيضه ، وإمكانية أن يقوم الرأي والرأي المضاد والحجة ونقيضها»[2] .

وكانت القضية السياسية الكبرى التي أذكت نار التحاجج والجدل بين المسلمين هي قضية ترسيم الخلافة والملك من قبل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[3] . فعاشت الدولة الإسلامية -بعده- وضعا غامضا ، فأطراف الصراع من أقرب المقربين للرسول صاحب الدعوة ومؤسس الدولة ، مما لزم معه : «عارضة في الاحتجاج واقتدار في تصريف اللغة يفلق الصخر ويثير حمية المستمع»[4] ، إذ

---

(١) كان أول مستجد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مسألة خلافته من قبل الأنصار أو المهاجرين في سقيفة بني ساعدة ، فكانت المناظرة الشهيرة المعروفة في المصادر الإسلامية ب«منا الأمراء ومنكم الوزراء» .

(٢) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ص٢٨ .

(٣) توجه رضي الله عنه إلى معارضيه بالقول : «أيها الناس قد علمتم أن رسول الله قبض ولم يستخلف أحدا ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فكانت بيعته هدى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين . فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظرا للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظرا لهم بعين الإنصاف» (عبد الله بن مسلم بن قتيبة : الإمامة والسياسة ، تحقيق محمد الزيني ، مؤسسة الحلبي وشركائه ، بيروت ، د-ت ، ص١٦٣ .)

(٤) مقدمة نظرية في المصطلح ص٢٨ .

ليس من الهين تبرير قتل أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصهاره وأصحابه .

لقد شكلت هذه الفترة فرصة للأمة لقبول الاختلاف والاعتراف بالرأي الآخر وبحق التعبير ، إلا أن الخلافات حسمت بحد السيف وترنحت السلطة الغالبة في منطق الإقصاء وبسط النفوذ المطلق فترتب عن ذلك انحسار مدى الاختلاف ، وأصاب المذاهب الناشئة «ما يصيب كل بنية فكرية تنقطع عن واقعها شيئا فشيئا»[1] ، فبسطت الفرقة الغالبة سلطتها بالسيف ، ومارست العنف على كل من لا يعتقد عقيدتها ، فتقلصت بذلك إمكانيات القول ، «فأصبحت صنوف الجدل والمناظرة في غياب الاقتناع بفكرة الاختلاف وإمكانية الخطاب المضاد ، مناظرات انتصار لفئة قائمة والدفاع عنها»[2] ، فأصبح «سيد الخطباء» في نظر معاوية بن أبي سفيان هو يزيد بن المقنع ، الذي قال في خطبته الشهيرة : «أمير المؤمنين هذا (وأشار إلى معاوية) ، فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد) ، فمن أبى فهذا (وأشار إلى سيفه)»[4] .

غير أن قولنا بانحسار الوظيفة الإقناعية للبلاغة العربية لا يعني اختفاءها من الدرس البلاغي العربي ، وإنما القصد هو تواريها وجعل وظيفة الإمتاع مركز هذا الدرس وخصيصته ، وإلا فالبلاغة العربية اهتمت بالبعد التداولي في مفهومها للخطاب ، واعتنت بمناسبة المقال للمقام ، واستحضرت المخاطب في تحديدها للنص البليغ ، وقد خلص أحمد المتوكل إلى أن نظرية الدلالة في التفكير اللساني العربي تتحدد بمطابقة الخطاب لوضعية التلفظ ، وبتزيين الخطاب بالطريقة التي تثير إعجاب المخاطب[4] ، كما لا ينبغي أن نغفل

---

(١) نفسه ص٢٩ .

(٢) نفسه ص٢٩ .

(٣) أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج٢ ، ص٢٤٥ .

(4) Ahmed Moutawakil: Réfléxions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe p30/31.

المحاولات الرائدة التي تناولت البلاغة باعتبارها فنا للتعبير والإقناع في الآن ذاته ، خاصة بعد الجهود التي بذلها الفلاسفة العرب في قراءتهم لمتن أرسطو في الشعر والخطابة ، وتمييزهم للخصوصية الشعرية (التخيل) والخصوصية الخطابية (الإقناع) وما بينهما من تداخل ، وإن لم تستثمر هذه الجهود بالشكل المرغوب في مجال البلاغة .

ولعل المحاولات الرائدة التي حاولت استثمار تلك الجهود هي : محاولة عبد القاهر الجرجاني(٤٧١هـ) في كتابيه الأسرار والدلائل ، ومحاولة السكاكي(٦٢٦هـ) في «مفتاح العلوم» ، ومحاولة حازم القرطاجني(٦٨٤هـ)في «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» ، فقد درس عبد القاهر الجرجاني الخطاب في أبعاده الاستدلالية والمنطقية[1] ، وقدم نظريته في النظم التي أقامها على أسس تداولية باستحضار المتلقي في تحديد القيمة البلاغية للنظم ، كما أبرز الوظيفة التداولية والإقناعية للاستعارة من خلال مفهوم الادعاء . . . ، وجعل السكاكي مركز البلاغة هو علم المعاني وامتدادها في التحولات الدلالية (علم البيان) ،وانتبه إلى الاستدلال واللزوم في البيان «فتمام علم المعاني بعلم الحد والاستدلال»[2] ، كما ركز في مشروعه على المستمع والمقام ، وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال بمراعاة سياقات الخطاب وأحوال المخاطبين مما أكسب بلاغته نجاعة تواصلية .

أما حازم القرطاجني فقد حاول استثمار مجهودات الفلاسفة العرب خاصة ابن سينا(٤٢٨هـ) ، بل وعمل على إكمال تلك المجهودات للملاءمة بين التصور الأرسطي في كتابي الشعر والخطابة وبين خصوصية الشعر والخطابة العربيين ، كما أشار إلى منطقة التقاطع بين الشعر والخطابة باعتبارهما مكونين متداخلين



---

(١) حمادي صمود : تجليات الخطاب البلاغي ص١١٢ .

(٢) السكاكي مفتاح العلوم تحقيق عبد الحميد هنداوي وتقديمه ، منشورات محمد علي بيضون . دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١ -٢٠٠٠ ص ٣٧ .

للبلاغة إذ أنها تشتمل «على صناعتي الشعر والخطابة ، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ، ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع»[1] .

إلا أن هذا التداخل بين الشعري والخطابي لا يفقد كل واحد منهما خصوصيته ، يقول حازم : «وينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة الواقعة في الشعر التابعة لأقاويل مخيلة مؤكدة لمعانيها ، مناسبة لها فيما قصد بها من الأغراض ، وأن تكون المخيلة هي العمدة ، وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها ، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة»[2] .

غير أن حازما لم يتوسع في الحديث عن الإقناع الخطابي وإنما وجه أكثر اهتمامه إلى الصناعة الشعرية ، فكان عمله بذلك في حاجة إلى إعادة القراءة والتقاط الإشارات والتوسع فيها ، الأمر الذي لم تسمح به الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية . . .التي عرفها العالم الإسلامي بعد القرن الهجري السابع والتي رصد حازم بعض مظاهرها في انتكاسة الإبداع وفساد الطباع .

---

(١) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة وتقديمه ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص١٩ .

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص٩٢ .

المبحث الأول :
الحجاج في البلاغة الأرسطية

I- المشهد الحجاجي في أثينا قبل أرسطو:

١)-السوفسطائيون[1] وسلطة القول:

قـام الطاغـيـتـان جـيلون وهيـيـرون ، حـوالي ٤٨٥ ق .م ، بنفي السكان من

---

(١) «هناك صعوبات جمة تصادف أي دراسة حول السفسطائيين ، ومؤرخ الفلسفة يجد حرجا في اعتبار نفس الأشخاص سوفسطائيين خاصة إذا علمنا أن نصوص السوفسطائيين ذاتها قد اندثرت ولم يبق منها إلا بعض الشواهد هي عبارة عن شذرات مثلما أن الشواهد الأخرى ممثلة في مواقف أفلاطون وأرسطو هي مواقف عدائية من السفسطائيين وبالتالي يصعب معها الوقوف على جوهر السفسطائية . . التي ستغدو منذ أرسطو مرادفة للاستدلال الزائف ، ولم يكن اسم «سفسطائي» معروفا ومتداولا قبل القرن السادس ق .م والكلمة مشتقة من سوفوس وهو الحكيم عند البعض ، وعند البعض الآخر من سوفيستس sophistès وتعني المعلم ، والسفسطائي لم يكن يملك ما يبيعه فكان يصنع بضاعته بصناعة الكلام واللعب بالألفاظ والمغالطة والتمويه ، وهو مغرم بالجدال والحوار والرد على ما يوجه إليه من أسئلة في أي فن . . . إلا أنه من ناحية ثانية هناك من يعترف بعراقة السفسطائية ويصبغ على السفسطائي صفة الحكيم المتقن لفن من الفنون ؛ وهكذا اعتبر المؤرخ اليوناني هيرودوت صولون وهزيود وبعض الكتاب والشعراء والفيزيائيين الأوائل والرياضيين سفسطائيين ، ومعنى هذا أن السفسطائية من هذا المنظور تشير إلى فن عريق يضم كل أوجه الثقافة من فلسفة وموسيقى ومسرح وأدب وشعر وعلم وما إلى ذلك من ميادين الثقافة المتعددة» الفلسفة الإغريقية ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، والدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٩ ، ص ص ٢١٦-٢١٧ .

صقلية ،كما نزعوا ملكياتهم وأراضيهم لتوزيعها على المرتزقة ، إلا أن انتفاضة الأهالي أسقطت هذين الطاغيتين ، ووجد المجتمع اليوناني الديمقراطي نفسه أمام «دعاوي لا حصر لها لأن حقوق الملكية كانت معتمة»[1] ، فتم تعيين لجان شعبية للفصل في تلك القضايا ، وكان على الشخص المطالب بأراضيه إقناع هذه اللجان بحججه وفصاحته ، فصاحة «امازجة بين الديمقراطي والغوغائي بين القضائي والسياسي»[2] ، فنشأت بذلك المظاهر الأولى لما سيسمى فيما بعد الخطابة الاستشارية .

وفي هذا المناخ الديمقراطي الذي يكفل حق التعبير والمطالبة بالحقوق برز السوفسطائيون باعتبارهم تيارا فكريا في المجتمع الإغريقي ، فكانوا من المعلمين الأوائل لفن الإقناع ، ويعتبر أمبادوقليس[3] وكوراكس (ق٥ ق .م) وتسياس (ق ٥ ق .م) . . .من رواد هذا التيار الفكري ، الذي سيتقوى في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ، بعد تغلب اليونان على الفرس ، حيث كان من نتائج هذا الانتصار ازدهار الحركة التجارية والسياسية والفكرية في المجتمع الأثيني .

وقد ارتبط الانتعاش الفكري والعقلي خصوصا بأعمال الناس وتجارتهم إذ «أصبح غرض الناس في تعليم أبنائهم لا تثقيفهم علميا بل إعدادهم للحياة العملية وتعليمهم البراعة في فن الخطابة وفن النقاش ، وذلك لأجل التغلب على الخصم في الميدان التجاري والسياسي»[4] ، فانبرى السوفسطائيون لأداء

---

(١) قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، مرجع مذكور ص١٥ .

(٢) نفسه .

(٣) أمبادوقليس (حوالي ٤٩٠-٤٣٠ق .م) وكان أول أساتذة هذه المادة الجديدة .ينظر بارت : البلاغة القديمة ص٣٨ .

(٤) نجيب بلدي : دروس في تاريخ الفلسفة ، أعدها للنشر الطاهر واعزيز وكمال عبد اللطيف ، ط ٢ ، دار تبقال للنشر الدار البيضاء ، ص ٦٤ .

.ـنه للهمة ، بل وأخذوا مقابل تلك أجرا ، «حتى عاش بعض [هم] في رفاهية ، ـمات جورجياس عن مال كثير»[1] .

مارس السوفسطائيون إذن ، سلطة الخطابة والحجاج بقصد الحصول على ـلمال والسلطة في المجتمع ، ودافعوا عن أولوية الخطابة ، واعتبروا القول الخطابي ـفوق المعارف والصنائع فهو أعلى سلطة لتحقيق الاعتقاد وبناء المعرفة ، فما هي ـسس المشروع الحجاجي الإقناعي لدى السوفسطائين؟

ارتبط القول لدى السوفطائيين بالإنسان أكثر من ارتباطه بالواقع والحقيقة ـلمجردة ، «فكل إنسان يرسم لنفسه قانون السلوك مجاريا في تلك ذوقه وحاسة ـطماعه وأحقاده حسب مقتضيات الحياة الخاصة والعامة»[2] ، فالإنسان هو ـمقياس قول الوجود إذ لا قيمة للوجود في ذاته ، يقول بروتاغوراس : «الإنسان هو ـمقياس كل شيء ، فهو مقياس وجود ما يوجد من الأشياء ، ومقياس لا وجود ما ـلا يوجد»[3] .

كما استندت ممارسة السوفسطائين للحجاج إلى تصورهم لـ«النافع»فـ« الغاية ـفردية دائما ونفعية دائما»[4] ، و«النافع» لديهم لا يرتبط بـ «الخير» بل يتعلق بـ «اللذة» ، «لأن الذي لا يشتهي شيئا ولا يرغب في شيء باسم بعض المبادئ ـالخلقية المزعومة رجل عاجز ضعيف ليس عنده من الشجاعة والإقدام ما يجعله ـعضوا صالحا للحياة ، قادرا على الفعل والتأثير والإنتاج وحياته أقرب إلى ـلموت»[5] ، ومن ثم يكتسب القول تعدده ونسبيته باعتباره تفاعلا بين الإنسان

---

(1) نفسه .

(2) إبراهيم سلامة :بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، مكتبة الأنجلو المصرية ط1 ، 1950 ص 32 .

(3) Gilbert Romyerk:les sophistes, Que sais-je.Presses.Universitaires de France.1985.p18

وينظر كذلك هشام الريفي ضمن أهم نظريات الحجاج ، صص55-58 .

(4) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص32

(5) الفلسفة الإغريقية ص232 .

والإنسان ، ويصبح أكثر ارتباطا بالظن والرأي والمحتمل والممكن .

وهكذا تبوأت الخطابة في نسق السوفسطائيين مكانة مركزية ، والخطابة عندهم لا تروم الحقيقة ، إذلم يكن «يعنيهم في مسعاهم طلب الحقيقة بقدر ما كان النجاح المبني على فن الإقناع والإفحام والإغراء هدفهم»[1] ، ثم إن الحقيقة «لا تكفي وحدها في أن تكون محور الخطابة ، فالفصاحة تجعل الخطيب عبقريا قادرا على الاستمالة التي تجذب الجماهير إليه»[2] ، ومطلب الخطابة هو الإفحام لذا لم يهتموا باكتشاف الحقيقة بل اكتفوا بعرض وجهات نظرهم والتي يعتقدون أنها الحقيقة ، وأجمعوا «أنه لا علم في الحقيقة ولا حكمة ، وأن قصارى ما يدركه الإنسان في الوجود هو مدركه الحسي ، ولما كان الإدراك الحسي يختلف بين الناس ، بل في الإنسان الواحد ، مختلف باختلاف الأوقات والصحة والمرض وهو متغير باستمرار ، فلزم من ذلك أنه لا حق ولا باطل لا خير ولا شر ، لا حسن ولا قبيح ، بل كل ذلك يعود إلى ما تعارف وتواطأ عليه الجمهور لتنظيم معاشهم وتدبير أمورهم وهو في ذاته غير موجود»[3] ، فربطوا القول بمطالب الحياة والمجتمع وبالعلاقات الإنسانية ومقصديات القائل وأحوال المخاطبين ، مبتعدين عن المثاليات التي سعى إليها أفلاطون ، ومبتعدين في الوقت ذاته عن الصرامة المنطقية التي سيضعها أرسطو فيما بعد .

كما جربوا الأقاويل المتناقضة ، فكان بروتاغوراس[4] يحتج للرأي مرة ولنقيضه مرة أخرى ، ويرتكز في ذلك على «تمكنه من اللغة ومعرفة أسرار

---

(١) نفسه ٢١٨ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص,٢٤ .

(٣) الفلسفة الإغريقية ص٢١٨-٢١٩ .

(٤) يؤول مذهبه على أنه نزعة نسبية شكية ينعدم فيها العنصر البنائي الإيجابي ، والواقع أنها تتأسس على ثلاث لحظات متتابعة تنكشف الأولى من خلال الحجج المتناقضة ، ثم تتلوها قاعدة الإنسان المعيار أو المقياس ، ويعقبها تأسيس الخطاب البليغ . تنظر الفلسفة الإغريقية ص٢٢١ .

الألفاظ وتركيب العبارة وحسن البيان والبصر بالمأثور من الشعر»[١] ، وهي ممارسة قد تدفع صاحبها «إلى تجاوز «مبدأ التناقض» وهو المبدأ الأول في الفكر والقول حسب أرسطو»[٢] ، وهكذا فالخطيب البليغ في تصورهم «يستطيع أن ينصر الحق كما يستطيع أن ينصر الباطل بقوة حججه أو براعته بالأقيسة والقضايا»[٣] وفقا لمطالب المجتمع ، واشتهر كوراكس باستغلال «المحتمل» وتوجيه الحجاج حسب النفع ، وتوظيف سلطة القول في الاحتيال على الحقيقة والخير إذا كانا لا يخدمان غرض المحاجج ، يقول ناصحا تلاميذه : «إن انتذبت في قضية تعد بالعنف وكان موكلك ضعيف البنية فقل : إنه من غير المحتمل لضعف بنيته أن يكون هو البادئ بالظلم ، فإذا كان موكلك قوي البنية وكانت القرائن جميعا ضده في الظاهر فقل : إنه من المحتمل جدا أن يتصور أنه المعتدي إلى حد أنه من غير المحتمل أن يكون فعلا كذلك»[٣] ، بل وحدد «كوراكس» أجزاء الخطابة وهي : المقدمة -السرد أو الحوادث- الاستدلال - الاستطراد - الخاتمة ، و«التي ستشكل طوال قرون «تصميم» الخطبة»[٤] ، وإذا كان كوراكس دعا إلى بلاغة نظمية خالصة فإن جورجياس(٣٧٥ق .م) دعا إلى الاهتمام «بالصورة البلاغية ، وأعطى للبلاغة منظورا استبداليا وجعل النثر ينفتح على البلاغة والبلاغة على الأسلوبية[٥] .

---

(١) نفسه ص٢٢٤ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ، ضمن أهم نظريات الحجاج ، ص٦٠ .

(٣) خطاب المناظرة ص١٦ .

(4) Reboul(o): I'ntroduction a la rhétorique PP15-16.

(٥) البلاغة القديمة ص٣٩ .

(٦) تحولت المراثي . . التي كانت تنظم شعرا إلى نثرية . . . وخلال هذا العبور من الشعر إلى النثر اختفى الوزن العروضي والموسيقى ، فأراد جورجياس تعويضها بسنن محايث للنثر . . : الجناس وتناظر الجمل ، وتقوية المقابلات عن طريق جناس الحركات وحروف المد والاستعارات وجناس الحروف» البلاغة القديمة ص٤١ .

جملة القول إن السوفسطائين ، وإن لم تنصفهم الثقافة الأوربية «على خلفية ارتباط مشروعهم بالمغالطة والتبكيت والتناقض»[1] ، ولا الثقافة العربية الإسلامية التي اقترنوا فيها بالعندية أو العنادية أو اللاأدرية[2] ، قد كانت مجهوداتهم منطلق الفلسفة اليونانية والغربية عموما ، إذ أنهم «أثاروا العقول وأناروا الأذهان فتخرج من مدرستهم سقراط ، ومحاورات أفلاطون مليئة بضجيج السفسطائيين ، وإذا جردنا سقراط من الحركة السفسطائية وجردنا أفلاطون من سقراط والسفسطائية ، وجردنا أرسطو من أفلاطون وسقراط والسفسطائية لم يبق بعد ذلك غير الأشباح ، ولفقدت الفلسفة اليونانية روحها ومادتها ، قشرتها ولبها ، بريقها وقيمتها»[3] .

أما جهودهم التي كانت بمثابة المبادئ الأولية المؤسسة لبلاغة الإقناع (الحجاج) فيمكن إجمالها في : اعتمادهم الاحتمال والظن والرأي والممكن ، وإتقانهم للمجادلة والمحاورة القائمة على الاستدلال المنظم ، بالإضافة إلى تنبيههم إلى ما قد ينتج عن الأقيسة من أغاليط وقولهم بالتضاد فلكل خطاب خطاب مضاد له ولكل حجة حجة تنقضها .

٢- أفلاطون (ت ٣٤٨ ق.م)[4] والخطابة البديلة:

عرفت أثينا خلال القرن الرابع قبل الميلاد انهيارا سياسيا قادها نحو الحرب

---

(١) خطاب المناظرة ص١٤ .

(٢) محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٦ ص١٠٦ .

(٣) الفلسفة الإغريقية ص٢٣٧ .

(٤) ولد أفلاطون بأثينا على الأرجح علم ٤٢٧ق .م من أسرة أرستقراطية عريقة في النسب والمجد من جهة أبيه و.أمه ، إذ ترجع أمه «فاريقطيوني» إلى أسرة حكام أثينا ومشرعيها ، ، والتي منها المشرع والحكيم «صولون» ، أما والده «أرسطون» فيرجع ، بحسب شجرة أفلاطون الجينالوجية ، إلى =

الأهلية ، وشهدت مجموعة من التحولات والاضطرابات جعلت الطبقة الأرستقراطية في قلق خوفا من فقدان مكانتها في المجتمع ، خصوصا وأن الحجاج السوفسطائي ارتكز على احتمالات الارتقاء السياسي وأعطى لسلطة القول «التي يحصل بها الإقناع المؤدي لحركية المواقف وتبدل المواقع»[١] قدرة على خلخلة بنية المجتمع انطلاقا من الإنسان وليس من الطبقة .

في خضم هذا الانحلال السياسي ، وهذه الهيمنة للفكر السوفسطائي حاول أفلاطون أن يقدم مشروعا فلسفيا يعيد من خلاله تنظيم المجتمع الأثيني من خلال نظريته في «المثل»[٢] ، والتي دافعت على مرتكزات ثلاثة هي : النظام والعقل والحقيقة ، ولم يكن «أفلاطون مثاليا شيد مدينته الفاضلة في الأحلام بل كان مدافعا لذودا عن امتيازات طبقية»[٣] . فقد سعى إلى حفظ النظام من خلال الإبقاء على المجتمع الطبقي ، يقول : «أفلا ترى في دولتنا . . . أن الإسكافي إسكافي فقط ، وليس هو ربانا مع السكافة ، والزارع زارع فقط وليس قاضيا مع زراعته ، والجندي جندي فقط وليس تاجرا مع جنديته»[٤] ، فكان طبيعيا أن يهاجم أفلاطون حركة السوفسطائين ويحملها مسؤولية انهيار

= «قودرس» آخر ملوك أثينا الذي انتصر على الدوريين في القرن الحادي عشر قبل الميلاد . ينظر أحمد فؤاد الأهواني : أفلاطون(سلسلة نوابغ الفكر الغربي) ، دار المعارف مصر ١٩٥٦ ، ص ص٩/١٠ ، وينظر أيضا إلى الفلسفة الإغريقية ، ص ص ٢٥٤/٢٥٥/٢٥٦ .

(١) خطاب المناظرة ص٢١ .

(٢) زاوج فيها أفلاطون «بين المبدأ اللامادي الفيتاغوري والمحسوس المتغير الهيرقليطي والوجود المطلق الإيلي والمفهوم الكلي السقراطي . . . فالمثل عند أفلاطون حقائق كلية ثابتة موجودة بالفعل وجودا خارجيا ومفارقا ومستقلا عن الإنسان في الوقت مصدرا للمعرفة وعلة لها . .»الفلسفة الإغريقية ص٢٨٠/٢٨١ .

(٣) خطاب المناظرة ص٢٠ .

(٤) أفلاطون : جمهورية أفلاطون ، نقلها الى العربية حنا خباز ، دار القلم ، بيروت ، ط٥ /١٩٨٥ ص ٩٠ .

المجتمع ، «ومن ثم لابد من إيقافها عبر نقدها والتشدد الأخلاقي والعقلي إزاءها»[1] .

يرى أفلاطون أن كمال المدينة لا يتحقق إلا بالعدالة ، والعدالة أن يؤدي المرء الوظيفة الخاصة به وهو بذلك يرفض تبادل المواقع واحتمالات الارتقاء السياسي التي أشاعها السوفسطائيون ، وهكذا كان «وراء الصراع في مبادئ القول الحجاجي بين الفيلسوف والسفسطائي صراع في تصور القول وممارسة السياسة»[2] ، فالبلاغة السفسطائية -حسب أفلاطون- هي بلاغة الحشود الشعبية ، «والواقع أن هذه الحشود هي العنصر الأساسي في مقام الإغراء الذي تقيمه البلاغة ، إنها تمثل الاقتناع المكثف ودون أن توفر إمكانية الاعتراضات أو الانتقادات ، إذ إنه من المتعذر أمام الجمهور المتلقي للخطابة هنا وضع الأسئلة أو مساءلة الآثار التي يحدثها إغراء الخطابات ، ففي مقابل الحشود يمكن بسهولة إقامة واقع اجتماعي بل قهري للخطاب البلاغي»[3] .

كما دافع أفلاطون عن دولة العقل والحقيقة باعتبار العقل وسيلة المعرفة والعلم الصحيح الذي هو : «الإدراكات الكلية العقلية التي تنصب على الأنواع ، وليس الإدراكات الحسية الجزئية التي تقع على الأفراد»[4] ، هذه الإدراكات الحسية اعتبرها السوفسطائيون أساسا للمعرفة باعتبار الإنسان هو أساس ومقياس الوجود .

وقد اشتدت الخصومة بين أفلاطون والسوفسطائين بعد تأسيسه

---

(١) خطاب المناظرة ص٢٠ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ، ضمن أهم نظريات الحجاج ص٦٢ .

(3) Monique Canto: "Introduction" in Platan. Gorgias ed fflamarion. Paris 1993 p61.

(٤) زكي نجيب محمود وأحمد أمين : قصة الفلسفة اليونانية ، مكتبة النهضة المصرية ط ١٩٨٠/٨ ص١٢٨ .

لأكاديميته[(١)] ، واصطدامه باستقطاب الحركة السوفسطائية للشباب ، فهاجم خطابتهم القائمة على التملق والتسلط بالقول والرأي ، والآراء «تحيل دوما ، حسب أفلاطون ، على وقائع مزعومة هي في الواقع وفي غالبيتها ناتجة عن الأهواء والمصالح والرغبات والظروف ، إن كل واحد يرى الواقع كما يشتهيه ، ويدعو»واقعا» ما يناسب أحواله الذاتية»[(٢)] ، ولعل محاورتي[(٣)] جورجياس وفيدر تلخصان مواقف أفلاطون من بلاغة السوفسطائين وتقدمان البديل الذي يسعى إلى تأسيسه ، «فالأولى تتابع مستويات الموضوع والقيم في خطابة السوفسطائيين ، والثانية تنقل البحث إلى مجال المقاربة التطبيقية لنصوصهم»[(٤)] .

٢-١) محاورة جورجياس:

بحث أفلاطون في هذه المحاورة في موضوع الخطابة ووظيفتها ، «أما البحث في الموضوع فهو عنده بحث في مدى شرعية قيام هذا القول ، وأما البحث في

---

(١) تعتبر أكاديمية أفلاطون أول جامعة عرفها العالم ، وقد نقش على بابها «من لم يكن مهندسا فلا يدخلن علينا» ، وهناك ألقى أفلاطون دروسه وألف كتبه وظلت هذه الأكاديمية بعده حتى أمر الحاكم الروماني جوستينيان بغلقها وملاحقة أتباع الأفلاطونية الجديدة أو المحدثة سنة ٥٢٩م . تنظر الفلسفة الإغريقية ص٢٥٥ .

(2) Francois Chtelet: Un histoire de la raison enyentiens avec Emile Noel. Ed seuil.1992. p50.

(٣) صيغت جميع كتب أفلاطون «بأسلوب الحوار لذا سميت بالمحاورات ، ما عدا مقالتي «الخير» و«الحدود» التي يذكرها أرسطو وكذلك الدفاع عن سقراط والرسائل الثلاث عشر التي اختتم بها مؤلفاته بطريقة الكلام المرسل وليس بطريقة الحوار . في كل محاورة جعل أفلاطون سقراط بطلا يدير لعبة الحوار ولسان حال يعبر من خلاله وبه أفلاطون عما يجول بخاطره من أفكار وطروحات فلسفية . . . «الفلسفة الإغريقية» ص٢٦٢ .

(٤) خطاب المناظرة ص٢٣ .

الوظيفة فهو بحث فيما يقدمه هذا القول للإنسان في المدينة»[1].

ففي هذه المحاورة يحاور «سقراط»[2] أفلاطون جورجياس الصقلي(٤٢٧ق.م) في منزل كاليكليس تلميذ جورجيا س وفي أثنائه يتقهقر القول السوفسطائي أمام القول السقراطي وهو قول جدلي، و«في ذلك تمثيل نصي لمشروع أفلاطون في استبدال ممارسة للحجاج بممارسة أخرى»[3].

انطلق أفلاطون في المقطع الأول من المحاورة من تقسيم الإقناع إلى نوعين: إقناع يعتمد العلم وإقناع يعتمد الظن، وجعل الثاني موضوع الخطابة السوفسطائية، وهكذا وانطلاقا من المقابلة بين العلم والظن خلص إلى أن العلم يقوم على مبادئ صادقة وثابتة وأزلية، فكان بذلك الإقناع المعتمد عليه مفيدا للإنسان ويكتسب منه معرفة، أما الإقناع المعتمد على الظن القائم على الممكن

(١) الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج في التفاليد الغربية ص٦٢.

(٢) المحاور الرئيس والمعبر عن أفكار أفلاطون في محاوراته، وهو فيلسوف يوناني ولد بأثينا عام (٤٧٠ق.م أو ٤٩٠ق.م) كان صاحب عقل مبدع وفكر خلاق يملك قدرة كبيرة على الإقناع، يقوم منهجه على التهكم والتوليد، إذ يعتبر التهكم أداة عقلية لتنقية الجو الفكري عند اليونان مما أذاعه فيه السفسطائيون من اضطراب وشك وهدم للعقائد والقيم، ويبدو سقراط في مرحلة التهكم جاهلا ويثير في نفس محاوره الشعور بالتفوق، غير أن شخصيته الحقيقية تبدأ بالبروز حينما يدلي الخصم بآراء هزيلة وغير متناسقة، هنا يتناول في تهكم وسخرية ما يعرضه الخصم حتى يشعره بعدم قدرته على مناقشته، فيطهر نفس محدثه من المعارف الزائفة والمشوهة لتبدأ بعد ذلك مرحلة التوليد، أي توليد الأفكار واستنباطها. ونقل سقراط البحث في المعرفة من الجزئيات المادية المحسوسة إلى الماهيات والكليات، واعتبر العلم الكلي موجودا في النفس وما علينا سوى اكتشافه بالإيقاظ والتنبيه، وقد قدمت أبرز أفكاره من خلال محاورات أفلاطون، وكانت جرأته في مهاجمة ما يراه غير مستقيم من عادات أثينا وتشريعاتها سببا في القضاء عليه، حيث حكم عليه بالإعدام وكانت وفاته سنة (٣٩٩ق.م). تنظر الفلسفة الإغريقية ص ص٢٣٨/٢٥٢.

(٣) الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج ص ٦٢.

والمحتمل فهو ينشئ لدى الإنسان اعتقادا ولا يكسبه معرفة .

إن الحجاج السوفسطائي ، حسب أفلاطون ، لا ينتج المعرفة بل يولد الظن والاعتقاد ، ولما كان هذان الأخيران مهددين بالأخطاء فإن الحجاج السوفسطائي لا يقدم خدمة للعدل والحقيقة ، فالظن»يستند إلى التخمين أو الحدس أوالغريزة وهو لا يقدم أساسا محددا لما نعتقده صادقا ، ولهذا فإن الاعتقاد حتى لو كان صحيحا فهو ليس معرفة في رأي أفلاطون لأنه لا يمثل سوى ظنا صادقا ، أما إحراز المعرفة فيستوجب من الإنسان أن لا يعرف فقط أن الشيء هو على هذا النحو بل ينبغي معرفة السبب الذي يجعله على هذا النحو»[1] ، والظن قد يكون زائفا أو حقيقيا أما المعرفة فلا تكون إلا حقيقة «لأنه إذا صح أن للملكات موضوعات مختلفة ، وأن المعرفة والظن ملكتان وملكتان مختلفتان ،كما نؤكد ، فإنه يترتب على ذلك استحالة أن يكون الشيء نفسه موضوعا للمعرفة والظن في آن واحد»[2] .

وفي المقطع الثاني من المحاورة سيقيّم أفلاطون وظيفة الخطابة ، فالخطباء ، في رأيه ، متملقون»لا يستحقون الوضع الاعتباري الذي يحظون به ، فالتقدير يجب أن يتجه للفنون الحقيقية التي تنفع الإنسان وتحقق سعادة المدينة ، وهذه الفنون أربعة هي :الطب والرياضة البدنية والتشريع والعدل»[3] ، في حين اندلقت ممارسات خداعية تحت هذه الفنون : فاندلق الطبخ والأكل تحت الطب ، والزينة والعناية بالمظهر تحت الرياضة البدنية ، والسفسطة تحت التشريع ، والخطابة تحت العدل . وهي ممارسات تقوم على التملق وتحقق للإنسان» لذة خادعة «وكمالا ظاهريا فـ»نسبة الرياضة والطب والتشريع والقضاء إلى الكمال

---

(١) الفلسفة الإغريقية ص٢٦٩ .

(٢) أفلاطون : الجمهورية ، دراسة وترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٥ ،الكتاب الخامس ، الفقرة ٤٧٨ ، ص٣٧٤ .

(٣) خطاب المناظرة ص٢٦ .

الحقيقي كنسبة العناية بالمظهر وبالأكل والسفسطة والخطابة إلى الكمال الظاهري»[1] ، واللذة ليست قرين الخير لدى أفلاطون فالسوفسطائيون «يعاملون الشعوب معاملة الأطفال . . ولا تهمهم معرفة هل كانوا بتلك الطرق يجعلونهم أحسن حالا أو أسوأ حالا»[2] ، ثم إنهم يولون التأثير الشكلي للخطاب في المتلقين عناية كبيرة في حجاجهم ، بينما يرى أفلاطون ، وعلى العكس من ذلك ، «أن المبالغة في تحسين العبارة تخلخل علاقة الفكر باللغة في الخطاب ، وبالتالي فالجمال عنده مداره على نشدان الحقيقة والفضيلة وتلازم اللغة والفكر»[3] .

لقد قابل أفلاطون بين الخير واللذة ليبين أن وظيفة الخطابة هي تحقيق اللذة لا الخير ، لذة خادعة لا تفيد الإنسان ولا الشعب ، وهو بذلك يبحث في صلة القول بالقيم ، فوزن القول الخطبي بمعيار» العلم» في المقطع الأول ، ووزنه بمعيار «الخير» في المقطع الثاني ، والخير عنده هو الحق ، وبذلك تتحد القيمتان علم وخير في فلسفته[4] .

٢-٢) محاورة فيدر:

إذا كان أفلاطون قد وجه نقدا لاذعا لخطابة السوفسطائيين في محاورة «جورجياس» ، فقد خصص المحاورة الثانية «محاورة فيدر» إلى تحديد خصائص الحجاج في خطابته البديلة التي سيدعو إليها بعد «استحالة حظر فن الخطابة داخل المجتمع الأثيني»[5] .

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص٢٥ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ص٦٥ .

(٣) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص٢٨ .

(٤) الحجاج عند أرسطو ص١٠٥,

(٥) خطاب المناظرة ص٢٧ .

وهكذا لم يجادل في هذه المحاورة السوفسطائيين في تصورهم للخطابة ، فقد اقتنع بإمكانية الإبقاء عليها وربطها بالفلسفة حيث دعا إلى «قيام نوع من الخطابة الفلسفية التي لا تقنع بإيهام الجمهور تبعا لأهواء الخطباء بل تلتزم التعبير عن الحقيقة و التوجه إلى الخير»[١] ، لقد سعى أفلاطون في الحقيقة «إلى تطوير فلسفة مناهضة للبلاغة باعتبارها خطابا برهانيا قائما على مفهوم الصدق ومعياره يتسم أولا وقبل كل شيء آخر ، بصفة إقصاء كل تناقض ممكن ، إن الخطاب الحقيقي لايعرف الرأي والاحتمال»[٢] .

دارت محاورة فايدورس حول نص حجاجي في الحب ألفه ليزياس وعنونه باسم «حديث الحب» ذم فيه عاطفة الحب ، تلاه فايدورس وعبر عن إعجابه متحديا سقراط ، إلا أن سقراط سينشئ نصا أولا يحاكي فيه نص ليزياس في بعض مواطنه ، «وفي تلك المحاكاة المنقوصة حركة أولى في الخروج من الرأي الشائع إلى ما يريد أن يستدرج سامعه إليه»[٣] ، وفق المنهج الأفلاطوني الجدلي «ويتمثل مضمون هذا المنهج في قبول فرض أو فرضية (افتراض) الخصم حتى يبين له جميع النتائج التي قد تنجم على ذلك والتي يرفضها بطبيعة الحال لأنها سوف تكون خاطئة أو هزيلة أو متناقضة أو ما شابه ذلك من دواعي النقص والضعف والتهافت التي تقلل من قيمتها ومن حظوظ وفرص الإقناع والاقتناع بها»[٤] ، لذلك فسقراط ما لبث أن تراجع عن حديثه الأول معتذرا لإله الحب إيروس ، «فعارض نصه الأول بنص ثان فيه حجاج مضاد»[٥] ، محاولا استدراج فيدر من حجاج السوفسطائين إلى حجاج الفيلسوف الذي يبني الخطابة

---

(١) نفسه .

(2) Michel Meyer: Question de rhétorique; éd Le livre de poche; paris; 1993 p234.

(٣) الحجاج عند أرسطو ص٦٩ .

(٤) الفلسفة الإغريقية ص٢٧٤ .

(٥) الحجاج عند أرسطو ص٧٠ .

الحقيقية ، «فانتقال سقراط من النص الأول إلى النص الثاني كان انتقالا من حجاج إلى حجاج آخر ومن ممارسة حجاجية إلى ممارسة حجاجية أخرى»[1] فكيف حدد أفلاطون شروط هذه الممارسة الحجاجية الجديدة ، أو الخطابة الجديدة التي دعا إليها؟

كان السوفسطائيون يتنافسون في إقناع الناس بما يخالف المشهور ، وكان هذا الإقناع «لعبتهم الحجاجية المفضلة» ، فليزياس أراد إثبات مقدرته على الحجاج من خلال أصعب أنواعه : الاحتجاج بما يخالف المشهور وهو «ذم الحب» في المحاورة ، غير أن سقراط أفلاطون عاد إلى منطلق ليزياس في حجاجه فاعتبره يعتمد ظنا لا حقيقة ، فاحتجاج ليزياس لمزية الانصراف عن الحب بكونه عاطفة تستعبد الإنسان وتسلب منه زمام عقله ونفسه احتجاج ضعيف ،حسب أفلاطون ، لأن ما اعتمده ليزياس «هو ظاهر الحب و ليس إياه . . .وجوهر الحب انعتاق من ثقل المحسوس و عروج في السماء و جناح التوق على الوجود ذاته»[2] .

إن الفيلسوف لا يعتمد على المظاهر والاعتقاد ، إنه يبحث في الحقائق فهو يمتلك القدرة على النفاد إلى الماهيات والجواهر ، باعتماده على المنهج الجدلي الذي يهدف إلى بلوغ الحقيقة «لاسيما أن الجدل عنده (الفيلسوف) يختلف عن العلم اختلافا يسيرا»[3] ، وقد حاول أفلاطون من خلال هذا المنهج نقل الحجاج من مجال الاحتمال إلى مجال الحقيقة .

بينما السوفسطائي هدفه الإثارة والاستهواء لذلك يعتمد الظن والرأي والاعتقاد ، فاستحق بذلك انتقادات أفلاطون ، لأن «من لا يعرف الحقيقة بل

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

يقتصر على اتباع الظنون لا يصل إلا إلى فن مضحك ، بل إلى فن لا ينطوي على أية قيمة»[(١)] .

كما أولى أفلاطون أهمية كبرى لتنظيم القول الخطبي ضمن بنية متكاملة ومتماسكة ومتينة ، وربطه بالنفس ، فـ«النفس تأتي بعد الآلهة في القداسة وواجب الإنسان تكريمها وتعليتها ، وهذا التكريم لا يكون بالمعارف ولا بالثروة ولا بالسلطان ، وأحرى ألا يكون بالخطابة ولكن بالعمل على تنمية الفضيلة في ذاتها ولذاتها»[(٢)] ، فقسم بذلك النفوس البشرية إلى تسعة مقامات جاعلا نفس الفيلسوف في المرتبة الأولى ، بينما جعل نفس السوفسطائي مجاورة لنفس الطاغية في المرتبة الثامنة «ولعل في هذا التقريب بين السفسطة والطغيان ما يلخص بشكل بليغ الموقف السلبي لأفلاطون من الخطباء السوفسطائين»[(٣)] .

إن تصور أفلاطون للخطابة/البلاغة يتكون من شقين اثنين : يقوم أولهما على الرفض الحاسم للبلاغة بسبب اعتمادها على الرأي العام الذي يسعى إلى التعبئة لا المعرفة ، فالخطيب يقدم نفسه باعتباره أعرف من العلماء بأمور تعود إليهم دون غيرهم ، ولعل هذا ما جعل سقراط يقول : «إنني أصرح بأن الخطباء والطغاة لا يتمتعون في حواضرهم إلا بسلطة تافهة»[(٤)] ، فالبلاغة «قد اكتشفت أنها أداة تستخدم للإقناع ، والنتيجة هي أنها أمام جمهور من الرعاع تبدو وكأنها تعرف أكثر مما يعلمه العلماء»[(٥)] . وثانيهما أن شكل البلاغة الذي يقبله أفلاطون يقوم على الحوار الثنائي ، ويكون فيه المتخاطبان ندين ومختصين في

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص٥ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص٥ .

(٣) خطاب المناظرة ص٣٠ .

(4) Laupie; Frédéric: Gorgias de platon, lzcon philosophique; p:166.

(5) Ibid p:149.

المجال المطروح للمناقشة حيث يحتكم فقط إلى المعرفة ويتجنب أي نوع من أنواع السلطة القهرية[١] .

صفوة القول إن أفلاطون رفض بلاغة السفسطائيين وأدانها ، وقدم بلاغة بديلة دافع عنها وأشاد بها ، «فقد هاجم في «جورجياس» على الخصوص الممارسات المتمثلة في استعجال النتائج دون نقض حقيقي ، وفي فيدر حلم أفلاطون بخطاب يكون جديرا بالفيلسوف ، خطاب يمكنه أن يقنع الآلهة نفسها»[٢] .

II- المشروع الحجاجي لأرسطو:

١)- موقف أرسطو من الخطابة السابقة:

وضع المشهد الحجاجي في أثينا قبل أرسطو الخطابة/البلاغة ومن خلالهما الحجاج في أزمة حقيقية ، فمن جهة أغرق السفسطائيون الخطابة في مجال المحتمل والرأي والظن مسوغين كل الوسائل بهدف التأثير في المخاطب دون التقيد بقيم معينة ، كما أعلوا سلطة القول وجعلوه فوق كل المعارف ، ومن جهة ثانية اعتبر أفلاطون الخطابة أداة تزيينية تمويهية تحقق «اللذة» ولا تحقق «الحقيقة» ولا «الفضيلة» ولا «العلم» ، فهي»فيما يبدو منتجة الإقناع ، إنها تجعل المستمع يعتقد أن العدل والظلم هما هذا وذاك ، إلا أنها لا تفيد علما بهما . . إن الخطيب ليس الرجل الذي يعلم في المحاكم أو في أي تجمع آخر ما هو عدل وما هو ظلم ، إنه يجعل المستمع على العكس من ذلك ، يعتقد أن العدل هو هذا والظلم هو هذا لا أكثر ولا أقل»[٣] . وقد ربط أفلاطون البلاغة البديلة التي

---

(١) الاستعارة في محطات ص,٣٥٠

(٢) ليونيل بلنجر : الآليات الحجاجية للتواصل ، ترجمة عبد الرفيق بوركي ، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته ، ج٥ ، ص٩٢ .

(3) Gorgias de Platon p144.

قدمها بالجدل ، والجدل عنده هو «هذا النقاش البريء الميال إلى المناقشات التي تتم بين متفلسفين أو بين عالمين ، هو الذي يمكن أن ينتج المعرفة لا التعبئة أو التحريض الجماهيري»[(١)] ، أي أنه لم تعد هناك أية بلاغة ، فمقابل البلاغة نجد إما السفسطة أو الفلسفة . هكذا إذن كان دور أرسطو هو إخراج الخطابة والبلاغة من هذه الأزمة من خلال الموازنة بين الطرحين السفسطائي والأفلاطوني .

ميز أرسطو في كتابه الطوبيقا بين القياس البرهاني الخاص بالقول العلمي المعتمد على المقدمات الصادقة الأولية ، والقول الجدلي المعتمد على مقدمات «ذائعة» وهي : «التي يظنها جميع الناس أو أكثرهم أو جماعة الفلاسفة أو أكثرهم ، أو المشهورون منهم و اللذين في غاية النباهة»[(٢)] ، وهو بهذا البحث الواقع في دائرة الممكن والمحتمل والمستند إلى الرأي يخالف أستاذه أفلاطون الذي «اعتبر الجدل الآلة الحاسمة في مجال اكتشاف الحقيقة ومعرفة المثل»[(٣)] ، ففي حياة الإنسان ، حسب أرسطو ، مجالات لا يكفي البرهان وحده لفهمها لغلبة الإمكان و الاحتمال والظن فيها .

وعلى الرغم من أنه وضع القول البرهاني في المرتبة الأولى واعتبره مطمح الإنسان الأساسي ، فإنه درس الأجناس الجامعة للأقاويل الأخرى الواقعة في بابي التصديق والتخييل فجعل الحجاج مقابلا للبرهان ، يلتقيان في كونهما حركة انتقال ضرورية من مقدمات إلى نتائج ، ويختلفان في كون البرهان قولا كليا يهدف إلى إنتاج اليقين ، بينما الحجاج قد يكون كليا أو جزئيا ، كما أن البرهان يعقد في مجال الضروري ولا يعقد في مجال الممكن في حين يعقد الحجاج فيهما معا ، ويندرج هذا التصور الأرسطي في نطاق مشروعه الحاضن لأجزاء الأرغانون كلها ، وهو دراسة الاستدلال عموما ،»الاستدلال في العلم

---

(١) الاستعارة في محطات ص٣٤٩ .

(٢) خطاب المناظرة ص٣٥ .

(٣) نفسه ص٣٤ .

والاستدلال في المباحث الفكرية الخلافية والاستدلال في الأحكام و الأفعال في ضوء القيم»[1] .

لم يشمل أرسطو الخطابة بالمعاني القدحية الأفلاطونية ، بل اعتبرها من الأدوات الأساسية التي لايمكن لأي مجتمع أن يستغني عنها ، إنها أداة تسيير المجتمع في المؤسسات الديموقراطية الأثينية (المحاكم والجمعية الشعبية والأولمبيا)[2] ، كما أعاد الاعتبار إلى الرأي والاحتمال والممكن والتخييل «على اعتبار أنها ذات دلالات بالغة لا في حياة الناس فحسب ، لكن أيضا في التواصل بصفة عامة ، وفي فتح المجال أمام الآخر للإدلاء برأيه»[3] . وبهذا دخل أرسطو في نقاش جدلي قوي «مع كل من البلاغة الأفلاطونية (الأستاذ) والبلاغة السفسطائية (الخصوم) ، وعلى الرغم من أن البلاغة الأرسطية اتخذت لنفسها مسارا تحليليا جديدا ، إلا أنها احتفظت من كلتا البلاغتين ببعض المكونات البنائية»[4] ، فأخذ عن السفسطائيين ما ذكروه في أقسام الخطبة ومآتي التأثير بالقول فيها وأدرجه في مشروع شامل و مختلف محولا مركز الثقل في هذه الصناعة من التأثير إلى الإقناع ، محاولا إقامة توازن بين هذين الطرفين ، «يكون التأثير بمقتضاه خادما للإقناع وتابعا له»[5] ، وبهذا التنظيم للبنية العامة للحجاج الجدلي» يعتبر أرسطو حجاج السوفسطائين ظاهريا وغير منتج وقائما على الأغاليط»[6] ، لأن الخطابة السوفسطائية تقوم على الإيهام والمراوغة ، لهذا

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص٩٩ .

(٢) الاستعارة في محطات ص ٢٥٢/٢٥٣ .

(٣) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص٣٢ .

(٤) نفسه ص٢٣ .

(٥) الحجاج عند أرسطو ص١١٨ .

(٦) خطاب المناظرة ص٣٦ .

ركز في انتقاده لهم على طرق إنتاجهم للحجاج وعلى المغالطات التي يوظفونها فيه لنصب فخاخ قولية للإيقاع بخصومهم .

لقد اشتغل أرسطو في كتاب (السوفيسطيقا) أو التبكيتات السوفسطائية بنقد الحجاج السوفسطائي ، مميزا بين القياس والمغالطة وكاشفا آليات الحجاج الظاهري الذي «يوهم بالاستقامة وهدفه إيقاع المخاطب في الغلط»[١] ، كما كشف أغراض السوفسطائين ومقاصدهم وفضح مغالطاتهم اللغوية وغير اللغوية التي تحول الجدل إلى خداع وتمويه وتجعل الخطاب فتنة وإغراء «فتبني القضايا على غير تحقيق ، فهي إما فاسدة الاستقراء أو مجهولة المبادئ ، أو مثبتة لغير المطلوب أو متجاهلة للمطلوب مبرهنة على ما لا يحتاج إلى الاستدلال أو فاسدة الاستنتاج»[٢] . وقام «بصياغة أنماط من الحجاج المضاد لكل مغالطاتهم اعتمادا على منهج تفكيكي لأقوالهم للوقوف على خطلها ، لأنه رأى أن خطابهم مبني على أغاليط دلالية متنوعة يتم فيها أحيانا التلاعب بمعنى المقدمات أو إحداها كي يكون القياس مخالفا للمتوقع وموافقا لمآرب السفسطائي ، الذي يعتمد بالأساس في حجاجه هذا على التفنن في توجيه اللغة»[٣] .

وهكذا تجاوز التمييز الأفلاطوني الثنائي بين السفسطة والجدل ، إلى تمييز ثلاثي ميز فيه بين السفسطة والخطابة والجدل ، معطيا معنى جديدا للجدل إذ لم يعد الجدل هو «فن التحاور الندي . . . الذي يقوم بين فيلسوفين أو عالمين يلتزمان موقف الابتعاد عن العامة وأهوائها ، بل وربما ضد أهوائها ، إنه يحاول إرضاء الآلهة لا العامة والغوغاء»[٤] ، إن هدف الجدل عنده ليس الوصول إلى الحقيقة وإنما «القصد الأول منه هو امتحان ما هو خلافي في «المشهورات» أي

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص١٩٠ .

(٢) خطاب المناظرة ص٤٦ .

(٣) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص٣٥ .

(٤) الاستعارة في محطات ص٣٥٣ .

عوالم الاعتقاد كما نقول اليوم، للاقتراب أكثر ما يمكن في هذا المجال من الحقيقة»[1]، وهكذا تقلصت المسافة التي جعلها أفلاطون بين الخطابة والجدل، فالخطابة «قد تشارك الجدل باعتبار وتشاكله باعتبار، أما المشاركة فمن جهتين: إحداهما في القصد والثانية في الموضوع، أما المشاركة بالقصد فلأن كل واحد منهما يروم الغلبة في المفاوضات... والجهة الثانية من الجهتين الأوليين أنه ليس ولا لواحد منهما موضوع يختص به نظره... وأما المشاكلة فلأن مباديهما جميعا المحمودات، لكن الجدل محموداته حقيقية والخطابة محموداتها ظنية»[2]. وقد استعمل ابن رشد كلمة «تناسب» لتحديد علاقة الخطابة بالجدل، يقول: «إن صناعة الخطابة تناسب صناعة الجدل وذلك أن كلتيهما تؤمان غاية واحدة وهي مخاطبة الغير... وتشتركان بنحو من الأنحاء في موضوع واحد إذ كانت كلتاهما تتعاطى النظر في جميع الأشياء»[3]، أما روبول فوجد أن الخطابة ليست «سوى إحدى تطبيقات الجدل... الخطابة هي تطبيق للجدل من حيث إنها تستعمله باعتباره وسيلة فكرية للإقناع ولكنه وسيلة لا تغنيها البتة عن الوسائل التأثيرية»[4].

ويعتقد هشام الريفي أن كلمة «تناسب» التي استعملها ابن رشد هي الأقرب لأن الجدل والخطابة، عند أرسطو، «تتماثلان في انتسابهما إلى الاستدلال الجدلي»[5]، والجدل الأرسطي «عبارة عن مسلمات صورية محدودة العدد قابلة لكي تحتوي مضامين إنسانية بمعنى أن الجدل قابل لاستثمار خطابي، وهذا يكسب الخطابة مظهرا علميا أو مظهرا خطابيا قابلا لكي

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص١١٥.

(٢) ابن سينا: الخطابة، تحقيق محمد سليم سالم، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥٤، ص٤/٥.

(٣) ابن رشد: تلخيص الخطابة، تحقيق بدوي، توزيع دار العالمين بيروت(د.ت) ص٣.

(4) Reboul (O): Introduction a la rhétorique p47/49.

(٥) الحجاج عند أرسطو ص٩٦.

يستقطب قبولا ما ، قبول كل الناس أو أغلبهم أو أخيارهم أو النبلاء منهم»[1] .

غير أن أرسطو وإن قرب بين الخطابة والجدل فإنه أبرز الفروق بينهما ، فمدار «الجدل هو امتحان قول خلافي لبناء قول نقارب به اليقين في مجال الممكن ، ومدار الخطابة هو إنتاج قول نبني به الإقناع في مجال المحتمل»[2] ، فللخطابة سمات جدلية لكن سماتها الأهم هي سمات اجتماعية إنسانية تجعلها توظف أنماط الحجاج «ذي الصبغة الاجتماعية لكل مفاهيم ومضامين المحتمل والممكن ، والملاءمة بين الأسلوب والمقام»[3] .

لقد اهتم أرسطو بالأسلوب في كتابه «الخطابة» مركزا على خصائصه وأقسامه وما ينبغي أن يكون عليه من الوضوح والدقة ومناسبة المقام والمتلقي . . . غير أنه حافظ ، مع ذلك ، على الحدود القائمة بين بلاغة الخطابة وبلاغة الشعر ، «فالتقنية البلاغية تتناول فني التواصل اليومي ، والخطاب وسط الجمهور ، في حين أن التقنية الشعرية تتناول فن الاستحضار التخييلي : ففي الحالة الأولى يتعلق الأمر بتقعيد تطور الخطاب من فكرة إلى فكرة ، أما في الحالة الثانية فيتعلق الأمر بتقعيد تطور الأثر من صورة إلى صورة»[4] .

٢)- الخطابة الأرسطية: مراحل بنائها وأنواعها:

تتحدد الخطابة ، لدى أرسطو ، ببعدها الإقناعي ، لهذا جعل الإقناع غرضه الأساس ، كما أشاد بأهمية القول الخطبي في الاجتماع البشري مخالفا بذلك أستاذه أفلاطون ، إلا أنه حرص على صيانة الخطابة فذكر «ما به يمكن أن يكون الإقناع في الخطبة وحدد فضاء التأثير ومعدنه وعرض بذلك جميعا نظريته في

---

(١) الاستعارة في محطات ص٣٥٤ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ص١١٠ .

(٣) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص٣٣ .

(٤) البلاغة القديمة ص١٩ .

الحجج والخطبة»[١] ، فمدار الخطابة -عند أرسطو- إنتاج قول يهدف إلى الإقناع في مجال المسائل الخلافية القابلة للنقاش ، وهي بذلك علاقة بين طرفين تتأسس على اللغة والخطاب .

ويحصل الإقناع في الخطابة الأرسطية بتضافر أركان ثلاثة : «اللوغوس logos أي القول بما هو فكر ، والأخلاق Ethos أخلاق القائل ، و الانفعال Pathos انفعال المقول له»[٢] . وعلى هذا كانت أقسام الخطابة الأساسية المتعلقة بالخطاب ثلاثة وهي :[٣]

أ - البصر بالحجة و في مصطلح أرسطو Eurisis ، والمراد بها التقاط المناسبة بين الحجة وسياق الاحتجاج ، «والغالب على التأليف في الخطابة . . أن الخطيب لا يبتدع تلك الحجج أو ينشئها بالنص على غير رسم ، و إنما هي موجودة يكشفها أو يكشف عنها»[٤] .

ب - ترتيب الأقسام Taxis : بعد الظفر بالحجج يأتي التفكير في ترتيبها ووضعها في المكان المناسب ليزيدها ذلك قوة «فالمطالع والمقدمات مدعوة إلى استمالة الأعناق . . . أما الخبر فحديث عن الوقائع . . . وشروطه الإيجاز والوضوح والمحتمل . . . أما الخاتمة أو مخارج النص فإنها تلخص ما انتهى إليه الخطيب وتسعى إلى تحريك الجمهور»[٥] .

ج - العبارة Lexis : بعد جمع الحجج وترتيبها في الذهن يبحث الخطيب عن اللفظ المناسب لإخراج ما كان في الذهن إلى الوجود ، «وبالعبارة يتغير حكم الخطبة من أعمال مستورة لآراء وحجج وقضايا ، إلى وجود ظاهر لا

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص٢٥٥ .

(٢) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ص١٧ .

(٣) نفسه ص١٣ .

(٤) نفسه ص١٤ .

(٥) [illegible] ص١٦ .

يمكن بدونه أن يحدث الالتقاء بين المتكلم و السامع»[1] .

وانطلاقا من نوعية التجمعات في المجتمع الأثيني حدد أرسطو الأنواع الثلاثة للخطابة :

* خطابة متعلقة بالخطاب السياسي وبالمداولات الجماعية وهي الخطابة المشورية .

* خطابة متعلقة بمجال المرافعات القضائية ومقامات الاتهام والدفاع وهي الخطابة المشاجرية .

* خطابة متعلقة بالمحافل الجماهيرية الكبرى وتكون مدحا أو ذما وهي الخطابة التثبيتية .

وللخطاب الإقناعي في هذه الأنواع الثلاثة بعد قيمي وخلقي ، فالخطابة المشورية تروم تحقيق الخير والنفع ، والخطابة المشاجرية غايتها خدمة العدل ، أما الخطابة التثبيتية فغايتها الشريف والفاضل .

٣)- الحجج والأدلة الخطابية:

يعرف أرسطو الخطابة/البلاغة بأنها «الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان»[2] ، فبلاغة أرسطو «هي على الأخص بلاغة الحجة والاستدلال»[3] ، إذ تمثل الحجج «النواة المفهومية للحجاج التي ينتمي بمعناها الحصري إلى الإيجاد ، ويستعمل مفهوم الحجة استعمالين : الأول عام يشمل كل أنواع الحجج الصناعية وغير الصناعية ، والثاني يقصد منه الحجج الصناعية وحسب»[4] . فالخطيب يتوسل بنوعين من الأدلة لتحقيق الإقناع : حجج وأدلة

---

(١) نفسه ص١٧ .

(٢) الخطابة ترجمة بدوي ص٢٩ .

(٣) البلاغة القديمة ص٤٧ .

(٤) الاستعارة ص٣١ .

غير صناعية أوتصديقات غير صناعية أو جاهزة ، وحجج وأدلة صناعية أو تصديقات صناعية أو غير جاهزة .

٣-١)- الحجج والأدلة غير الصناعية (الجاهزة):

درس أرسطو الحجج غير الصناعية في مجال القضاء بالخصوص ، وحددها في خمسة أنواع ، يقول : «هذه التصديقات عددها خمسة : القوانين والشهود والعقود والعذاب والأيمان»[(١)] ، غير أنه «من الممكن أن نتصور استخدامها في الحياة الشخصية للحكم على فعل ما ، أو معرفة ما . . . ومن ثم فإن الحجج الخارجية يمكن أن تدخل في تشخيصات تخييلية»[(٢)] ، ويرى بارت أن هذا النوع من الحجج يقع «خارج مجال حرية إبداع ما هو عرضي ، إنها تقع خارج الخطيب (فاعل الفن) ، وهي براهين ملازمة لطبيعة الشيء»[(٣)] ، فهي عناصر جاهزة تستمد من القول الاجتماعي وكل ما يستطيعه الخطيب إزاءها هو «ترتيبها وإبرازها عن طريق تنظيم منهجي»[(٤)] .

غير أن هشام الريفي يطرح تساؤلات مشروعة حول هذا النوع من الحجج فيقول : «هل التصديقات غير الصناعية غير صناعية بالضرورة؟ ألا يوجد نوع من «المواضع» هي بمثابة «المواضع التأويلية» تستعمل في معالجة هذا النوع من التصديقات؟ أو ليس كل تأويل حجاجا؟»[(٥)] ، فالحجج والأدلة غير الصناعية وإن كانت متوفرة قبليا ، فإن الخطيب لا يستعملها كما هي بل يتصرف فيها بالحذف أو الإضافة أو التحويل أو التحوير . . . بما يخدم «الحركة الحجاجية

---

(١) الخطابة ترجمة بدوي ص٩٣ .

(٢) الاستعارة في محطات ص١٠٣ .

(٣) البلاغة القديمة ص١٠٢

(٤) نفسه ص١٠٢ .

(٥) الحجاج عند أرسطو ص١٨٥ .

المحققة لمقصده»[1] ، والخطيب يهدف من استخدام هذه التصديقات تحقيق مقصد اجتماعي لذلك فهو يتبناها إذا خدمت مقصده ، وينتقدها إذا لم تخدم هذا المقصد ، بل وقد يؤولها خدمة لذلك المقصد ، يقول أرسطو : «إذا كان القانون المكتوب يتعارض مع موقفنا فعلينا اللجوء إلى القانون العام والإنصاف ، لأن هذا أقرب إلى العدل . وأن نبين أن القاضي حين أقسم أن يحكم بأحسن الحكم فهو يقصد أنه لن يلتزم التزاما صارما (بحرفية) القوانين المكتوبة . . . لكن إذا كان القانون المكتوب يخدم وجهة نظرنا فيجب أن نقول أن قسم القاضي بأن يحكم بأحسن الحكم لا يخول له أن يحكم حكما مخالفا للقانون»[2] .

٣-٢)- الحجج والأدلة الصناعية:

٣-٢-١)- المواضع:

ويعتبر مفهوم الموضع (topos) من المفاهيم الأساسية في الحجاج الأرسطي إذ عليه تقوم عملية استكشاف التصديقات الصناعية باعتبارها النوع الأهم في بناء القول الحجاجي[3] ، بل إن «الموضع هو المفهوم الرئيس بلا منازع في نظرية أرسطو الحجاجية»[4] ، غير أننا لا نجد تعليلا لاستعارة «الموضع» في الجهاز المفاهيمي الذي اعتمده في وصف صناعة القول الحجاجي ، وقد حاول ابن سينا تعليل ذلك فقال : «يشبه أن يكون الموضع إنما سمي موضعا لأنه جهة قصد للذهن ، معتبر ، معتد به ، وكما أن الموضع المكاني يقال عموما على مكان معين ويقال خصوصا على الموضع الذي له خاص حكم يعتد به ، حتى يقال : إنه موضع أمن وإنه لموضع خوف ، كذلك قد يخص ما يهم التفات الذهن إليه

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص١٨١ .

(٢) الخطابة ترجمة بدوي ص٩٣/٩٤ .

(٣) الحجاج عند أرسطو ص١٨٦ .

(٤) نفسه ص١٨٦ .

موضعا ، فيقال : إن هنا موضع بحث وموضع نظر فكان الحكم النافع على سبيل القانون موضع انتفاع وموضع اعتبار»[1] ، وحديثا طرح بارت السؤال ذاته وحاول الإجابة عليه ، لأن المقاربة الاستعارية للموضع هي أكثر دلالة من مجرد تعريفه ، ولقد استعملت استعارات عديدة لتوضيح هوية الموضع ، وقبل كل شيء نسأل : لماذا استعملت كلمة «موضع»؟ لأنه على حد قول أرسطو يكفي لنتذكر الأشياء أن نتعرف الموضع الذي توجد فيه ، فالموضع هو عنصر تداعي الأفكار . . ، فالمواضع حينئذ ليست الحجج ذاتها بل الحجرات التي تحفظ فيها[2] .

وكما لم يعلل أرسطو الاستعارة المكانية «للموضع» ، فهو لم يعرفه وإن كان مفهوما رئيسا في جهازه النظري ، إلا أن ابن سينا قدم تعريفا له يقول فيه : «معنى الموضع حكم منفرد من شأنه أن تتشعب منه أحكام كثيرة تجعل كل واحد منها جزء قياس مثل قول القائل : إنه إن كان الضد موجودا لشيء فضده سيكون موجودا لضد الشيء»[3] . ويعرف ابن رشد المواضع بأنها : «أحوال وصفات عامة وقوانين يصار منها إلى استنباط المقدمات الجزئية في قياس قياس»[4] .

ويدل مفهوم «الموضع» عند أرسطو على أمرين اثنين : «يدل على قضية عامة جدا منها يولد عدد غير متناه من المقدمات ، ويدل على شكل القياس الذي تستعمل فيه كل قضية من تلك القضايا العامة جدا»[5] ، فالمواضع إذن ليست حججا «وإنما هي مستودع للحجج ، أشكال فارغة مكونة من شبكات تقسمها

---

(١) ابن سينا : الجدل ص٤٢ .

(٢) قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ترجمة قنيني ص٦٠/٦١ .

(٣) ابن سينا الجدل ص٣٨ .

(٤) ابن رشد : تلخيص الجدل ص٩٣ .

(٥) الحجاج عند أرسطو ضمن ص١٩٦ .

البلاغة التقليدية إلى مواضع مشتركة ومواضع خاصة»[1] .

لقد كان بناء أرسطو للمواضع نتيجة لحرصه الشديد على استقصاء الأشكال المتناهية التي يرجع إليها المنجز أو الممكن إنجازه[2] ، وهكذا فالمواضع «التي ذكرها أرسطو في كتاب «المواضع» هي الجهات التي ينبغي أن يصرف الجدلي ذهنه إليها عند امتحانه القضية محل الدرس ، و«المواضع» التي يمكن أن نستخلصها من كتاب «التبكيتات» هي الجهات التي ينبغي أن يطرقها الجدلي ،وهو المؤتمن عند أرسطو على محاربة السفسطائيين ، عند فحص أقاويلهم ، و«المواضع» التي ذكرها في كتاب «الخطابة» هي الجهات التي ينبغي أن يسلكها الخطيب في بحثه عما به يكون الإقناع في قضية قضية»[3] .

٣-٢-١-١)- مواضع الجدل:

اشتق أرسطو «المواضع الجدلية» من صور الأقيسة الجدلية وقسمها إلى أربع مجموعات كبرى وهي العرض والجنس والخاص والحد ، كما استعرض نوعين من المواضع اعتبرهما ملحقين بمواضع العرض وهما : مواضع المقايسة[4] ومواضع المؤثرات[5] ، ويبرر ابن رشد هذا الإلحاق بقوله : «مطالب المقايسات . . . إنما توجد في العرض لأن العرض هو الذي يقبل الأقل والأكثر»[6] . وسنقف ببعض التفصيل على مواضع المقايسات والمؤثرات لأنها مواضع «قيمية مستندة

---

(١) محمد طروس : النظرية الحجاجية ص١٩ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ص١٩٧ .

(٣) نفسه ، ص١٨٨/١٨٩ .

(٤) ابن رشد : تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل ص١٣٣ .

(٥) نفسه ص١٣٦ .

(٦) نفسه ص١٣٤ .

إلى الإديولوجي . . . ولعله كـان ينبـغي أن تدرج في الخطابة فـهي بها أنسب»[١] .

تقوم مواضع المقايسات ومواضع المؤثرات على فعل المقايسة ، غير أن هذا الفعل يستخدم لمقصدين مختلفين ، «فهو في مطالب المقايسة يعتمد لاكتساب معرفة ويعتمد في مطالب المؤثرات لتحقيق اختيار عملي»[٢] ، وليتضح الأمر أكثر نمثل للموضعين :

- من أمثلة «مطالب المقايسة» : «إن كـانت العـافيـة لذيذة ونافعة ، فأيها يوجد لها أكثر المنفعة أم اللذة؟»[٣] .

- ومن أمثلة «مطالب المؤثرات» : «أيها آثر الجميل أم النافع؟»[٤] .

وقد ناقش أرسطو معاني المؤثر فأكد أنه «ينبغي أن نميز على كم جهة يقال المؤثر ومن أجل أي الأشياء ، بمنزلة النافع أو الجميل أو اللذيذ»[٥] ، ويشرح ابن رشد هذا النص بقوله : «ينبغي أن نميز على كم جهة يقال المؤثر ، فإنه يقال على ثلاثة معـان : النافع واللذيذ والجمـيل ، فـالجمـيل هو المؤثر بالطبع ، والمؤثر عند واحـد من الناس من هذه غيـر المؤثر عند الآخر ، فإن الجمـيل آثر عند الحكماء والنافع آثر عند مدبري المدن واللذيذ آثر عند المترفة»[٦] .

٣-٢-١-٢)- المواضع السفسطائية:

سعى أرسطو في كـتابه «التـبكيـتات السـفسطائيـة» إلى الكشف عن أنواع

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص٢٢٠ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ص٢١٦ .

(٣) ابن رشد : تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل ص١٣٣ .

(٤) نفسه ص١٣٣ .

(٥) نفسه ص١٦٥ .

(٦) نفسه .

الخلل في الاستدلال السفسطائي ، كما حاول حصر هذه الأنواع ، ولتحقيق ذلك يلح أرسطو على ضرورة معرفة أهداف السفسطائيين ، يقول : «ينبغي في الأول أن نعرف ما هي الأهداف التي يقصد إليها الذين ينازعون ويرومون الغلبة في المناقشات (يقصد السفسطائيين) ، وهي أهداف خمسة : التبكيت ، الإيقاع في الخطأ ، الدفع إلى الخروج عن المشهور ، إيراد ما يتميز فيه المخاطب ويثبته عليه من جهة اللفظ ، الدفع إلى الكلام الفارغ أي جعل المخاطب يكرر نفس الكلام مرات عديدة»[١] .

وهكذا يمكن أن نرد المغالطات السفسطائية إلى مجموعتين كبيرتين : تضم الأولى المغالطات التي يعتمدها السفسطائي في إنتاج الاستدلال ، وتضم الثانية مغالطات ينصب بها السفسطائي الفخاخ لخصمه في أثناء النقاش[٢] . وتشكل هذه المغالطات مواضع يشتق السفسطائي منها «حججه» ، ويكون التغليط إما من جهة اللفظ أو من جهة المعنى أو من جهة القياس[٣] :

أ)-التغليط من جهة اللفظ : «وهو تغليط دلالي به يتم الاحتيال على المخاطب ليفهم من اللفظ ، مفردا كان أو مركبا ، بدل المقصود منه شيئا آخر ، يفيد السوفسطائي في تحقيق غرضه إبطالا كان أم حفظا»[٤] ، وتتوزع أقسام ما يغلط من الألفاظ مجموعتان : يترك اللفظ في الأولى على حاله سواء كان مفردا أو مركبا ، ويكون التغليط في هذه الحالة إما بالاشتراك وإما بالتشكيك وإما بالاستعارة وإما بالنقل وإما بالوزن إذا كان اللفظ مفردا[١] ،

---

(1) Aristote: Les réfutations sophistiques 165b25-30-Ibid.

(٢) الحجاج عند أرسطو ص٢٢٠ .

(٣) من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي . دار الأمان . ط١ . الرباط ٢٠٠٥ . ص٢٠٣ .

(٤) نفسه ص٢٠٣ .

ويكون التغليط ،إذا كان اللفظ مركبا ، بالقول «المشترك التركيب المتواطىء الأجزاء» ومثاله قولنا «ما قال زيد أنه كذا فهو كما قاله» ، وبما أن زيد قال «أن هذا حجر» فإذن زيد حجر (هو كما قاله)»[٢] . أما في الثانية فيغير اللفظ من طرف السوفسطائي إما كلية وإما يغير اللفظ المركب إلى مفرد أو العكس وإما يغير تصريف اللفظ وإما يغير إعرابه وإما يغير الترتيب تقديما وتأخيرا . . .[٣]

ب)-التغليط من جهة المعنى : ويقسم بدوره إلى نوعين : «نوع يكون فيه مصدر التغليط فعله التمويهي ، ونوع آخر يكون منبع التغليط فيه قصوره المعرفي»[٤] ، ويرد التغليط في النوع الأول إلى جملة من الأقاويل التمويهية يقوم بها السوفسطائي لتحقيق غرضه ، وتتعلق هذه الأقاويل بالمعاني والمضامين الصادقة أو المشهورة وهي غير مغلطة في أصلها ،لكن السوفسطائي يعمد إلى إجراء تحويل عليها كأن يحول المطلق إلى مقيد أو العكس ، أو المتعدد إلى واحد أو العكس . . .[٥] . أما النوع الثاني فيرد إلى استثمار المحمولات التي تقال على الشيء بالعرض ، وهو استثمار باطل لأنه «متى اتفق أن كان الأسبق إلى معرفة إنسان ما ، في علم من العلوم ، أمر بالعرض ، ولم يشعر أنه بالعرض ، فأخذه على أنه ذاتي ، وكان ما أخذه غير ممكن أو كان ذاتيا وممكنا بالعرض لزم ضرورة أن يعتقد فيما هو كذا أنه

---

(١) نفسه ص٢٠٥ .

(٢) الفارابي : الأمكنة المغلطة في المنطق عند الفارابي ، تحقيق وتقديم وتعليق رفيق العجم ، دار الشرق ، بيروت ١٩٨٦ ، ص١٣٥ .

(٣) من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي ص٢٠٦/٢٠٧ .

(٤) نفسه ص٢٠٧ .

(٥) نفسه ص٢٠٨ .

ليس كذا وفيما هو ليس كذا أنه كذا»[1] .

ج)-التغليط من جهة القياس : القول السوفسطائي قول غير قياسي سواء القياس الطبيعي الذي يغير أو يبدل ترتيبه أو تأليفه ، أو تطوى فيه بعض المقدمات ، وبه جرت العادة في المخاطبات والكتب ، أو القياس المنطقي الصوري ، فهو «في ابتعاده عن صورة المخاطبة القياسية النموذجية لا يحترم المقتضيات العادية بالقياس (التبديل ، الإضمار ، الإطناب) بقدر ما يسقط في استعمال صور فاسدة في الإثبات والإبطال يموه بها ويجر إلى المعتقدات الباطلة»[2] . ومن الصور التدليلية السفسطائية الفاسدة :

- الاستدلال بطريق المصادرة على المطلوب .
- الاستدلال بالتقابل على غير شروطه المنطقية .
- الاستدلال بما ليس سببا حقيقة باعتباره سبب .
- الاستدلال باللاحق للشيء أو لازمه . . . . . .[3]

٣-٢-١-٣)- المواضع الخطبية:

حاول هشام الريفي الكشف عن شجرة المواضع الخطبية انطلاقا من مواضع الاستدلال الخطابي أو مواضع الإقناع ، ومواضع إحداث الانفعال أو مواضع التأثير ، فاهتمام أرسطو بالإقناع والتأثير في الحجاج الخطبي جعله يقدم الموضعية الخطبية بشكل أوسع من الموضعية الجدلية ، إذ أن الحجاج الجدلي إنتاج فكري يقوم على ما في المناقشة من استدلال لا اعتبار فيه «لأخلاق السائل» ولا «لانفعالات المجيب» ، بينما يقوم الحجاج الخطابي على أركان ثلاثة الإيتوس

(أخلاق القائل) ، والباتوس (انفعال المقول له) ، واللوغوس (أي القول بما هو فكر)[1] .

وتنقسم المواضع الخطابية إلى نوعين :

* مواضع خاصة : «هي عبارة عن تلك البديهيات المعتمدة في هذا الجنس الخطابي دون ذاك»[2] ، فما يكون مقبولا باعتباره موضعا في جنس خطابي قد لا يكون كذلك في جنس آخر ، لأن المواضع الخاصة «مختصة بموضوعات محددة ، وحقائق جزئية ، وقضايا خاصة مقبولة عند الجميع ، إنها الحقائق التجريبية المرتبطة بالسياسة والحقوق المالية والتجربة والحرب . . .»[3] .

* مواضع مشتركة : وتعتمد عليها كل أنواع الخطابة ، «وربما جاز القول كل أشكال الخطاب»[4] ، وهي عبارة عن «أفكار مجردة جدا قابلة للتطبيق على كل الموضوعات»[5] . كما أنها وسائل عامة لأي حجاج ، فهي «إثباتات عامة جدا متعلقة بما يظن أنه أصلح في أي مجال من المجالات»[6] . فما هي أبرز المواضع العامة والخاصة في البلاغة الأرسطية؟

٣-٢-١-٣-١)- المواضع الخاصة:

٣-٢-١-٣-١-١)- المواضع الخاصة بالخطبة المشورية:

جعل هشام الريفي المواضع المشورية التي درسها أرسطو في أقسام كبرى

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص٢٦٤/٢٦٥/٢٦٦ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٤٠ .

(٣) البلاغة القديمة ص١٢٩ .

(٤) الاستعارة في محطات ص٣٦ .

(٥) نفسه ص٣٨ .

(6) Perleman: L'empire rhétorique ed vrin. 1977. p43.

ثلاثة : «قسم أول يستعمل في الحال التي تقتضي الاستدلال على خيرية المشار به أو نفعه ، وقسم ثان يستعمل في الحال التي تقتضي خيرية المشار به أو نفعه ودفع ما قد يكون في ذهن السامع من شك في شأنه ، وقسم ثالث يستعمل في الحال التي تقتضي بناء استدلال من شأنه أن يجعل السامع يتجاوز ما قد يكون في خاطره من تردد فيما هو أفضل أو أكثر نفعا»[١] .

ا)-مواضع الاستدلال على خيرية المشار به أو نفعه:

وتنقسم بدورها إلى موضعية الخطبة السياسية التي تهدف إلى تحقيق «الخير» أو «النفع» للمدينة ، والخير كما حدده أرسطو هو «ما يختار لأجل نفسه أو هو ما من أجله نختار شيئا آخر ، وهو الذي يتشوق إليه الكل وكل ذوي الحس والعقل أو ما يشتاقه الذين يملكون العقل أو ما يجب أن يقتضيه العقل عامة من كل فرد معلوم أو ما يقتضيه عقله الخاص»[٢] . وموضعية خطبة النصيحة وغرضها تحقيق السعادة والفضيلة .

لقد وصف أرسطو في كتابه «الخطابة» ما ينبغي أن تكون عليه ثقافة الخطيب السياسي و«في أعطاف هذا الوصف قرائن تساعد على تبين موضعية هذا النوع المشوري الأول»[٣] . وعدد الميادين التي ينبغي على الخطيب السياسي أن يكون عارفا بها وهي : المداخيل والحرب والسلم وحماية البلاد والصادرات والواردات والتشريع ، فمعرفة الخطيب بهذه الميادين تقدم خبرة يعتمدها «في مرحلتين من مراحل إنشاء الخطبة : مرحلة تحديد «القضية» التي يرى من النافع الإقناع بها . . . ومرحلة تحديد ما يكون من القضايا كفيلا بجعل فعل الإقناع

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص٢٦٩ .

(٢) الخطابة ترجمة بدوي ص ٤٩. .

(٣) الحجاج عند أرسطو ص٢٧١ .

بتلك القضية»[1] ، كما عدد أيضا «أشكال الحكم» التي كانت معروفة في عصره ، وهي لها علاقة «بمواضع التأثير» وهي مواضع تخص الأخلاق والانفعالات»[2] ، يقول : «لكن لما كانت الأدلة تتقرر ليس فقط بالاحتجاج البرهاني ، بل أيضا بالاحتجاج الأخلاقي . . . فيلزم عن هذا أنه ينبغي علينا أن نكون على معرفة بأخلاق كل شكل من أشكال الحكم لأن الخلق ، بالإشارة إلى كل واحد منها ، الذي يرجح أن يقنع ، ينبغي أن يكون المميز له»[3] .

ب)-مواضع الاستدلال على أن ما يشير به الخطيب خير حقا أو نافع حقا:

ذكر أرسطو منها حوالي ثلاثة عشر موضعا قسمها الريفي إلى مجموعتين : يقوم الموضع في الأولى على خاصية من خصائص المشار به ويستند إلى اقتضاء منطقي مثل : «كل شيء مضاد لما هو شر فهو خير»[4] ، أو يستند إلى مقايسة مثل : «ما ليس مفرطا فهو خير أما ماهو أكثر مما يجب فهو شر»[5] ، بينما لا يقوم الموضع في المجموعة الثانية على المشار به في ذاته بل على شيء خارجي هو موقف بعض السلط المرجعية في المجتمع منه ، كسلطة العدد ومثالها : «ما يبحث عنه الكثيرون وما يبدو أهلا للتنافس فيه فهو خير لأننا رأينا ما يريده الناس كلهم خير»[6] .

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص٢٧٠/٢٧١ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ص٢٧٢ .

(٣) الخطابة ترجمة بدوي ص٦٢ .

(٤) نفسه ص ٤٨/٥٣ .

(٥) نفسه ص٤٨/ ٥٣ .

(٦) نفسه .

ج)- مواضع الاستدلال على أن ما يشير به الخطيب أفضل من غيره وآثر:

يستعمل هذا النوع من المواضع إذا اتفق الناس على خيرية بعض الاختيارات لكنهم ترددوا في أيها أفضل أو أكثر نفعا[١] ، وقد أحصى الريفي ستة وثلاثين موضعا تقع تحت «مواضع المؤثرات» الجدلية ، ووجد أنها تقوم على اعتبارات مختلفة : قد تكون فلسفية ومثالها : «إذا كان شيء مبدأ أولا والآخر ليس كذلك ، وإذا كان شيء علة والآخر ليس كذلك فإن الأول أكثر خيرا»[٢] ، وقد تكون قائمة على المقايسة ومثالها : «الأشياء التي تبقى مدة أطول أفضل من تلك تكون ذات مدة أقصر»[٣] ، وقد تكون قائمة على بعض السلط المرجعية في المجتمع ومثالها : «ما حكم عليه أهل الحكمة كلهم أو جلهم أو أفاضلهم أو ما عسى أن يحكموا عليه أنه خير أكبر يجب أن يكون كذلك»[٤] .

٣-٢-١-٣-١-٢)- المواضع الخاصة بالخطبة المشاجرية:

اهتم أرسطو عند دراسته للخطبة المشاجرية بأركان الجور الثلاثة : حدث الجور والجائر والمجور عليه ، كما اهتم بطريقة استغلال القانون المكتوب والقانون الطبيعي في الحجاج ، وبناء على هذه المعطيات قسم الريفي مواضع الخطبة المشاجرية إلى أربعة أقسام مسترشدا في الأقسام الثلاثة الأولى بقولة ابن رشد : «أصناف المقدمات التي تعمل منها أقاويل الشكاية هي بالجملة ثلاثة أصناف : أحدها المقدمات المأخوذة من الفاعل أعني الجائر ، والصنف الثاني المقدمات المأخوذة من المفعول أعني المجور عليه ، والثالث المقدمات المأخوذة من الفعل نفسه»[٥] .

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص,٢٧٦

(٢) الخطابة ترجمة بدوي ص٥٣ .

(٣) الخطابة ترجمة بدوي ص,٥٣

(٤) الخطابة ترجمة بدوي ص٥٧ ..

(٥) تلخيص الخطابة ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، ص٨٣ .

أ)- موضعية فعل الجور:

يعد الفعل المتشاجر فيه هو مدار الحجاج في الخطبة المشاجرية، لذلك خصه أرسطو بتحاليل «تمثل في الحقيقة المرجعيات التي يشتق منها الخطيب المشاجري مقدماته»[1]، وقد ردها الريفي إلى المجموعات التالية:

* مصادر المقدمات التي ينبغي أن تستعمل في الإقناع بنوع الدافع إلى فعل الجور في القضية محل النظر: فبعد أن عرف أرسطو الجور حدد دواعي الإنسان إلى فعله، وهي سبعة: الحظ والاتفاق، والطبيعة والقسرية والإكراه، والعادة، والتقدير والحساب، والغضب، والرغبة والشهوة[2]، ثم فصل بعد ذلك في كل داع من هذه الدواعي، ويمثل ذلك التفصيل «مرجعية من المرجعيات التي ينبغي على الخطيب المشاجري أن يشتق منها مقدمات حجاجه حسب أرسطو، وهذه المرجعية هي نظرية عامة في دواعي الفعل الإنساني وما يقصد إليه به من لذائذ بحسب أوضاع الفرد المختلفة»[3].
* مقدمات الأقيسة المستعملة في تعيين اسم الفعل المتشاجر فيه: فقد يكون الخلاف أحيانا في اسم الفعل المتشاجر فيه، لذلك ألح أرسطو على اعتماد التعريفات للإقناع، يقول: «الألفاظ مثل إهانة وسرقة تدل على قصد وعرض لأنه إذا دفع إنسان إنسانا آخر فلا يعني هذا في جميع الأحوال أنه ارتكب إهانة، وإنما يكون كذلك إذا دفعه بغرض تحقيره أو تفضيل لذة نفسها، ولهذا السبب يجب أن تعرف السرقة والإهانة من أجل أننا إذا أردنا إثبات أن جريمة وقعت أو لم تقع نستطيع أن نصف الحالة بالوصف الصحيح»[4]، وتكمن أهمية التعريفات في كونها مقدمات «تعقد عليها

(١) الحجاج عند أرسطو ص٢٨١.

(٢) الخطابة ترجمة قنيني ص ٥٩/٦٠/٦١.

(٣) الحجاج عند أرسطو ص٢٨٣.

(٤) الخطابة، ترجمة بدوي ص٨٩.

بعض الضمائر في الخطبة المشاجرية التي تشتق منها مقدمات الحجاج في هذا الجنس الخطبي»[1] .

* المقدمات التي ينبغي أن تستعمل في الاحتجاج لدرجة خطورة الفعل الجائر :استعرض أرسطو المواضع المتعلقة بدرجة خطورة الفعل الجائر ، وهي «عبارة عن معايير شائعة تعتمد عادة في تقدير خطورة الجور»[2] ، ومن أمثلة هذه المواضع : «الظلم يكون أكبر كلما كان الاستعداد لارتكابه أكبر» ، و«الأفعال الظالمة تعد أعظم . . على حسب الضرر الناتج عنها» ، و«يكون الظلم أفدح إذا لم يسبق له مثيل»[3]

ب)- موضعية الجائر:

عرض أرسطو الأحوال التي إذا كانت في الإنسان سهل عليه الجور ، ومن الأمثلة على هذه الأحوال ما جاء في قوله : «والبشر يرتكبون الشر عندما يعتقدون أن ارتكابه ممكن ، والممكن بالنسبة إليهم إما لأنهم يرون فعلهم لا ينكشف أو حتى إذا انكشف فسوف يبقى غير معاقب عليه ، وإن وجب أن يعاقب عليه فسوف يكون العقاب أقل من اللازم أو أنقص من الربح والمنفعة المحصلة»[4] ، ويجور الناس حين يجلب لهم جرمهم المدح لكونهم «انتصروا للشرف ، فإذا حصل لهم أن انتقموا مثلا لأبيهم أو لأمهم كما هو الأمر في حال زينون»[5] ، ويجور المحتاجون وهم «على ضربين : الشديد الفاقة والعوز ، وهؤلاء

---

(1) الحجاج عند أرسطو ص٢٨٤ .

(2) نفسه ص٢٨٤ .

(3) نفسه ص٩١ .

(4) الخطابة ترجمة بدوي ص٦٨ .

(5) نفسه ص٧٠ .

هم الفقراء ، والشديد الشره ، وهذه حال بعض الأغنياء»[1] ، ويمكن للخطيب أن يشتق منها مقدمات مناسبة إن احتاج في بعض الأقسام من خطبته إلى الاحتجاج بأن المتهم كان بالفعل في حالة تيسر له فعل الجور .

ج)- مواضع المجور عليهم:

حدد أرسطو أصناف المجور عليهم وأبرز ملامحهم في مجتمع عصره ، وهي إما أصناف اجتماعية كالفقير والغريب ، أو أصناف نفسية كالخجول أو الشخص الذي تعرض كثيرا إلى الإهانة[2] ، وقد اعتبر الريفي ما قدمه أرسطو في حديثه عن المجور عليهم مواضع ، فمنها تشتق مقدمات مناسبة إذا احتاج الخطيب إلى الاحتجاج بأن الشاكي هو بالفعل من الأصناف المعرضة للجور[3] .

د)- موضعية تأويل القانون بحسب ما يوافق الاتجاه الحجاجي في الخطبة:

لما قدم أرسطو حديثه عن القانون المكتوب والقانون الطبيعي باعتبارهما المرجعية التي يحتكم إليها في المحاكم بأثينا ، تناول الزوج عدل/إنصاف ، وقدم الإنصاف على العدل ، يقول : «من الإنصاف أن نصفح عن ألوان الضعف الإنساني ، وأن ننظر لا إلى القانون بل إلى المشرع ، لا إلى النص الحرفي للقانون بل إلى قصد المشرع ، لا إلى الفعل ذاته بل إلى النية والمشيئة ، لا إلى الجزء بل إلى الكل ، لا إلى الشخص كما هو الآن بل إلى ما كان عليه دائما وعموما»[4] ، وعند التعامل مع نصوص القوانين نبرز مواضع التقييم والتأويل في الحجاج المشاجري ، فإذا كان «معنى القانون مشتبها فعلينا أن نقلبه على أوجهه

---

(١) نفسه .

(٢) الخطابة ترجمة بدوي ص٧٠/٧١/٧٢ .

(٣) الحجاج عند أرسطو ص٣٨٦ .

(٤) الخطابة ترجمة بدوي ص٩٠/٩١ .

وننظر كيف يفسر بحيث يناسب تطبيق العدالة والمنفعة»[1] ، وإذا كانت «الظروف التي أدت إلى سن القانون قد عفي عليها ، بينما ظل القانون قائما ، فيجب على المرء إيضاح ذلك والطعن في القانون على هذا الأساس ، لكن إذا كان القانون المكتوب يخدم وجهة نظرنا فيجب أن نقول إن قسم القاضي بأن يحكم بأحسن الحكم لا يخول له أن يحكم حكما مخالفا للقانون»[2] .

٣-٢-١-٣-١-٣)-المواضع الخاصة بالخطبة التثبيتية:

تضطلع الخطبة التثبيتية عند أرسطو بعملي المدح والذم ، ويكون الحجاج فيها لتثبيت «قضايا متفق عليها لا ترجيح إحدى القضايا المختلف فيها»[3] كما هو الشأن في الجنسين الآخرين ، وهي تشبه خطبة النصيحة لأن «المدح والنصيحة ذوا مظهر واحد لأن ما نسدي من نصيحة يصير مدحا بتغير في العبارة . . . فمثلا العبارة : يجب على الإنسان ألا يفتخر بخيرات راجعة إلى البخت وإنما يفخر بتلك التي ترجع إلى الذات وحدها ، إذا صيغت هكذا فإن لها قوة الإيحاء ، لكن لو صيغت هكذا : إنه لم يكن فخورا بالخيرات الراجعة إلى البخت بل إلى تلك الراجعة إلى ذاته وحدها ، فإنها تصير مدحا»[4] .

ويدور فعل المدح أو الذم في هذا الجنس الخطبي على إثبات الفضيلة للممدوح أو سلبها عن المذموم ، لذلك عرف أرسطو الفضيلة واستعرض أجزاءها وهي : «العدل والشجاعة وضبط النفس والمروءة وكبر الهمة والسخاء والحلم واللب والحكمة»[5] ، ثم فصل القول في هذه الأجزاء ذاكرا الأفعال والعلامات

---

(١) نفسه ص٩٤ .

(٢) نفسه ص٩٤ .

(٣) الحجاج عند أرسطو ص٢٧٩ .

(٤) الخطابة ترجمة بدوي ص٦٩ .

(٥) نفسه ص٦٤ .

التي بها تعرف الفضيلة في الشخص ، ومن هذه التعريفات والأفعال والعلامات «يشتق الخطيب مقدمات عليها يعقد ضمائر لإثبات أن المتحدث عنه يتحلى بجزء من أجزاء الفضيلة أو الفضيلة كاملة ، ومن أضدادها يشتق مقدمات لسلب الفضائل عن المذموم»(١) .

٣-٢-١-٢)-المواضع المشتركة:

المواضع المشتركة ،كما سبق معنا ، هي أفكار عامة تعتمد عليها كل أنواع الخطابة لما تتمتع به «من المقبولية ، وهذا هو الذي يقربها أكثر من المنطق والمقبولية والكلي والعامة ، وهي المواضع التي تضفي على هذا المجال المائع المتلون ثباتا ما . . . وبهذا فإن الخطابة لا تعود هنا متعارضة مع المنطق تعارضا تاما»(٢) ، وقد حدد أرسطو ثلاثة مواضع مشتركة ، فكل الخطباء «ملزمون في خطبهم بأن يستعملوا أيضا موضع الممكن ، وأن يحاول البعض منهم أن يبينوا أن شيئا ما سيحدث ، والبعض الآخر قد حدث ، وهناك من جهة أخرى موضع مشترك بين كل أجناس الخطاب ويتعلق الأمر بموضع الكبر ، فكل الخطباء يعمدون إلى الحط والرفع حينما ينصحون ويمدحون أو يذمون ويتهمون أو يدافعون»(٣) .

٣-٢-١-٢-١)- موضع ممكن/غير ممكن:

تعطي لفظتا ممكن وغير ممكن «حين نقابلهما بالزمن (الماضي ، المستقبل) . . سؤالا موضعيا : هل أمكن فعل الشيء أم لا ، وهل يمكن أن يفعل أم لا؟ ويمكن

---

(١) الحجاج عند أرسطو ص٢٧٨ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٣٨ .

(٣) الخطابة ترجمة بدوي ص١٥٠ .

أن ينطبق هذا الموضع على علاقات التضاد : إذا كان ممكنا أن يبدأ شيء فمن الممكن أن ينتهي»[١] .

وتستعمل مواضع الإمكان للبرهنة على أن شيئا ما سيحدث أو حدث وتتم هذه البرهنة بالنقيض أو الشبيه أو بدرجة القدرة والعجز أو بالتعاقب الطبيعي أو العادي أو بإمكان الوسائل أو بإمكان الأجزاء أو بتفوق الوسائل[٢] .

٣-٢-١-٢-٢)- موضع الكم: أكثر/أقل:

يتعلق هذا الموضع بالكمية والعدد ، فهو موضع التكثير والتصغير ، ومثاله : من المحتمل جدا أن يكون زيد ضرب جيرانه بالنظر إلى أنه يضرب أباه ، ويتجلى هذا الموضع في التفوق النسبي من مجموع إلى آخر أو التلازم غير المتبادل أو المقارنة بطرف ثالث أو الأصل والسبب[٣] .

٣-٢-١-٣-٢-٣)-مواضع النوع:

يلجأ إلى هذا النوع من المواضع عندما يكون موضع الكم مرفوضا ، و«يتحقق هذا مع المصلحين وأولئك الذين يتمردون على الرأي العام . . . ويؤدي موضع النوع إلى تثمين الفريد الذي يعتبر مثله مثل الأمر الشائع أحد مدارات الحجاج . . . إن الزائل يمكن اعتباره قيمة نوعية تتعارض مع القيمة الكمية للمستديم»[٤] ، إنها مواضع النوعي والفريد والمتميز والنخبة . . . ، فنحن «نعتمد هذا الموضع حينما نزعم أن اختيار النخبة أفيد من اختيار العامة ، إن «الجماهير هي صانعة التاريخ» حجة تقوم على الكم يمكن الطعن فيها بحجة الكيف أو

---

(١) البلاغة القديمة ص١٢٩ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٣٨/٣٩ .

(٣) الاستعارة في محطات ص٣٩ .

(4) Perelman: Traité de l'argumentation pp119/120.

النوع من قبيل : «إن الجماهير بدون قادة عباقرة لا يمكنها صناعة التاريخ» القادة هم إذن صانعوا التاريخ وليس الجماهير»[1] .

٣-٢-٢)- الحجج والأدلة الصناعية:

النوع الثاني من الحجج التي يوظفها الخطيب هي الحجج الصناعية ، وهي ثلاثة أجناس «باثية ومتلقية وخطابية»[2] ، أي أن منها ما يتعلق بأخلاق الخطيب (الإيتوس) ، ومنها ما يتعلق بميول المتلقي ونوازعه (الباتوس) ، ومنها ما يتعلق بالخطاب (اللوغوس) ، وللعاملين الأولين (الإيتوس والباتوس) «دور مهم في الخطاب الشفوي يفوق الدور الذي يلعبانه في الخطاب الكتابي ، وعلى العكس من ذلك ففي الخطاب الكتابي يتقلص دور هذين العنصرين لكي يتقدم للهيمنة عنصر المقومات المنطقية أو النصية أي المرتبطة بالموضوع»[3] .

٣-٢-٢-١)- أخلاق الخطيب (الإيتوس):

إن للخطيب دورا في الإقناع إذ ينبغي أن يكون موضع قبول لدى المتلقي خلال بث الخطاب وتلقيه ، فالقائل «هو خلق يكسب المقولة «مصداقية» ويوفر في الحركة الحجاجية عنصر «الثقة» وهو عنصر خارج الاستدلال لكن له دوره في تحقق عملية الإقناع»[4] . وقد حدد أرسطو الأخلاق التي ينبغي أن تتوفر في الخطيب بقوله : «ولا بد للخطيب أن يتحلى بثلاث خصال كي يحدث الإقناع ، لأنه بصرف النظر عن البراهين فإن الأمور التي تؤدي إلى الاعتقاد ثلاثة هي : اللب والفضيلة والبر ، لأن الخطباء إنما يخطئون بينما يقولون وفي النصيحة التي

---

(١) الاستعارة في محطات ص٤٠ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٣١ .

(٣) نفسه ص٣٥/٣٦ . غير أنه يبقى في الخطاب دائما مؤشرات دالة عليهما .

(٤) الحجاج عند أرسطو ص١٤٦ .

يسدونها إذا فقدوا الخصال الثلاث كلها أو واحدة منها ، فإنهم إذا فقدوا اللب كانت ظنونهم فاسدة وآراؤهم غير سديدة ، وإذا كانت آراؤهم صحيحة فإن شرارتهم تحملهم على ألا يقولوا ما لا يعتقدون ، أو إذا كانوا ذوي لب وخير فإنه يعوزهم البر (حب الخير) ، وهذه الخصال هي كل الخصال الضرورية حتى إن الخطيب الذي يبدو أنه يملك هذه الخصال الثلاث سيقنع سامعيه لا محالة»[(١)] ، فاللب أو الفطنة والذكاء وهي صفات «من يتشاور في الأمر جيدا ، ومن يزن الأمور جيدا»[(٢)] ، والفضيلة وهي «إعلان عن صراحة لا تهاب العواقب وتعبر عن نفسها مباشرة مطبوعة بأمانة استعراضية»[(٣)] ، والبر أو حب الخير ، «وتتجلى هذه الصفة في عدم إثارة السامعين أو صدمهم ، بل الظهور بمظهر محبب (بل وظريف) والدخول في تواطؤ مجامل مع مجموع السامعين»[(٤)] ، كلها أخلاق متى أظهرها الخطيب خدمت مقصده وأسهمت في تحقيق الإقناع . و«إجمالا فعلى الخطيب وهو يتكلم ويعرض مراسيم حججه المنطقية أن يقول أيضا باستمرار : اتبعوني قدروني وأحبوني»[(٥)] .

غير أن ما يثيرنا في قولة أرسطو السابقة هو لفظة «يبدو» في العبارة التالية : «حتى أن الخطيب الذي يبدو أنه يملك هذه الخصال الثلاث» ، أي أنه قد لا يملكها حقيقة ، فالإيتوس هو «سمات الشخصية التي ينبغي للخطيب أن يظهر بها أمام السامعين (وليس مهما مدى صدقها) ليترك انطباعا حسنا ، إنها مظاهر ، فالأمر لا يتعلق إذن بسيكولوجية تعبيرية بل سيكولوجية متخيلة . . .

---

(١) الخطابة ترجمة بدوي ص١٠٣ .

(٢) البلاغة القديمة ص١٣٥ .

(٣) البلاغة القديمة ص١٣٥ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه .

ينبغي أن يكون ما أدل عليه هو ما أريد أن أظهر به بالنسبة للآخر»[١] ، فالخطيب يبني لنفسه صورة وأرسطو يصرح بذلك ، فهذا «الضرب من الإقناع مثل سائر الضروب ينبغي أن يحدث عن طريق ما يقوله المتكلم لا عن طريق ما يظنه الناس عن خلقه قبل أن يتكلم»[٢] .

٣-٢-٢-٢)-انفعالات المتلقي (الباتوس):

لما كانت الغاية من البلاغة الأرسطية هي إقناع الآخر والتأثير فيه ، كان بدهيا أن يحتل المتلقي في هذه الخطابة موقعا متميزا ، بل جعل أرسطو انفعالاته مقدمات استدلالية وسبيل من سبل الإقناع والتأثير أو الإقناع بالتأثير ، فالانفعالات «هي كل التغيرات التي تجعل الناس يغيرون رأيهم فيما يتعلق بأحكامهم . . . وكل واحد منها يجب أن ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، مثلا بالنسبة إلى الغضب : الحالة النفسية التي تجعل الناس غاضبين ، والأشخاص الذين يغضب عليهم عادة ، والظروف التي ينشأ عنها الغضب»[٣] ، ثم إن غاية الحجاج ليست هي التدليل على قضية معينة فحسب بل إن غايته الأهم هي استمالة الآخر ودفعه إلى اعتقاد شيء أو تركه ، والحجج «لا تقصد إلى البرهنة على صدق قضية ما ولكنها تقصد إلى كسب واستمالة ذهن واحد أو أكثر ، والحال أن ما قد يبدو حجة جيدة في نظر شخص ما يمكن أن يبدو عديم القيمة في نظر شخص آخر ، ينبغي للخطاب الإقناعي أن يتلاءم مع المستمع الذي يقصد إلى إقناعه إذ أنه لا يمكن أن يتطور إلا انطلاقا مما يقبله الآخر»[٤] . إن الذات التي

---

(١) البلاغة القديمة ص١٣٤ .

(٢) الخطابة ترجمة بدوي ص٣٠ .

(٣) نفسه .

(4) Perleman: La philosophie du pluralisme et la nouvelle rhétorique; in Revue internationale de philosophie (La nouvelle rhétorique the new rhétoric) n 127/128. 1979. p14.

نخاطبها تحركها معارف وأهواء وانفعالات . . . وكلما تمكنا من معرفتها أو معرفة بعضها على الأقل كانت لنا القدرة على الحجاج الجيد ، فالقدرة على الإقناع «تقتضي المعرفة بما يمكن أن يحرك الذات التي نتوجه إليها با-خطاب ، أي معرفة ما يحركها . . . إن باتوس الإنسان الحسود على سبيل المثال يجعل المخاطب حساسا أمام ما يملكه الآخرون ، والذي يجعله يحس بالظلم لأنه محروم منه ، إننا نستطيع أن نؤثر فيه بلفت نظره إلى الفوارق البارزة ، وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان السخي سيكون أقل حساسية أمام هذا النوع من الحجج ، إن فعل الخير سيحركه أكثر مما يمكن أن يحركه رفض هذا الفعل»[1] .

ولما كان التحكم في انفعالات تتعلق بالآخر ليس بالأمر الهين ولا بالأمر القابل للقياس ، فإن أرسطو «لم يتبنها إلا من منظور فن الخطابة techné ، أي بوصفها مقدمات لترابطات استدلالية ، لذا يميزها بفعل esto (ليكن . .) الذي يسبق وصف كل انفعال ، وهو الفعل المميز «للاحتمال العرفي» . يتحدد كل «انفعال» بهيئته الخارجية (المعطيات العامة المساعدة على ظهوره) وبموضوعه (اتجاه من ننفعل) وبالظروف المثيرة (البلورة) . . .»[2] ، وهكذا يجد بارت أن السيكولوجية الخطابية عند أرسطو تعتبر رأي الجمهور «هو المعطى الأول والأخير . . ولا نجد عنده أية فكرة تأويل (تفكيك الرموز) ، فالانفعالات عنده شذرات من اللغة مهيأة سلفا ، ما على الخطيب إلا أن يحسن معرفتها ، ومن ثم كانت فكرة شبكة الانفعالات لا كمجموعة من الجواهر بل كمجموعة من الآراء»[3] .

إن هدف الخطيب ليس البحث في الانفعالات الحقيقية للمتلقي ووصفها وصفا علميا ، بل إن هدفه هو آراء العامة والجمهور حول هذه الانفعالات وإن

---

(1) M.Mever: Introductrion in Aristote Rhétorique pp 32/33.

(٢) البلاغة القديمة ص١٣٥/١٣٦ .

(٣) البلاغة القديمة ص١٣٦ .

كانت هذه الآراء أحيانا خاطئة ، فقد «يبدو سطحيا (وغير صحيح دون شك) القول بأن الغضب يستبد بالفتيان بسهولة أكبر مما يستبد بالشيوخ ، غير أن هذه السطحية . . تصبح جديرة بالاهتمام لو أدركنا أن مثل هذا الطرح ليس إلا مكونا من مكونات لغة الآخر العامة هذه ، والتي يعيد أرسطو تركيبها»[1] ، لذا يحتاج الأمر من الخطيب تحكما كبيرا في القول لدفع المتلقي إلى انفعال معين يقوده إلى تقبل موضوع معين أو اتخاذ موقف معين منه ، فبالقول «يبني الخطيب بحسب ما يريد إحداثه من رد فعل نمطا من أنماط الانفعالات النفسية الاجتماعية ويستدرج السامعين للحلول فيه ، وبذلك يضع حيادهم بين قوسين إن كانوا محايدين ، ويجعلهم بحكم ذلك النمط الانفعالي في علاقة معلومة بالموضوع المقول فيه ويوجه رد فعلهم بل يكاد أحيانا يتحكم فيه»[2] .

٣-٢-٢-٣)- اللوغوس:

سبق معنا أن أرسطو يقسم الحجج التي يقدمها إلى ثلاثة أضرب : يقوم الأول على أخلاق الخطيب (الإيتوس) ، والثاني على تصيير المتلقي في حالة نفسية ما (الباتوس) ، والثالث على القول نفسه من حيث هو يثبت أو يبدو أنه يثبت (اللوغوس)[3] ، واللوغوس هو الحجج المستندة إلى الخطاب نفسه أو الموضوع ، ويشكل «الحجاج المنطقي الذي يمثل الجانب العقلاني في السلوك الخطابي ، ويرتبط بالقدرة الخطابية على الاستدلال والبناء الحجاجي»[4] . إن هذا النوع من الحجج تربطه بالمنطق وشائج بل إنها تخضع إلى منطق «قد ثم

---

(١) البلاغة القديمة ص ١٣٦/١٣٧ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ص١٤٦ .

(٣) الخطابة ترجمة بدوي ص٢٩ .

(٤) النظرية الحجاجية ص١٨ .

تبسيطه عن قصد وتكييفه حسب مستوى «الجمهور» أي حسب الحس المشترك والرأي الشائع»[1] ، وتستند هذه الحجج إلى أداتين أساسيتين هما : القياس المضمر ويقابله في المنطق الصوري الاستنباط ، والمثل ويقابله في المنطق الصوري الاستقراء ، فكل الخطباء «ينحتون الاعتقاد باستخدام الأمثلة أو الضمائر ولا شيء غيرها كحجج»[2] ، غير أن الأمر في الخطابة يتعلق «باستقراء واستنباط غير علميين بل هما «عاميان» من أجل الجمهور فحسب»[3] .

ويعتبر أرسطو القياس المضمر هو الوحدة الأساسية في الخطابة ، أما المثال فيعتمد كلما أعوز الضمير الخطيب أو احتاج دعما ، يقول أرسطو : «فإن لم توجد لدينا ضمائر فيجب أن نستعمل الأمثلة براهين لأن الإقناع يتم بها ، لكن إن وجدت لدينا فلابد من استعمال الأمثلة كبينة وكنوع من الخاتمة للضمائر»[4] ، فالأسبقية في العملية الحجاجية للضمائر بينما نلجأ للأمثلة إذا لم تتوفر الضمائر ولتدعيم الضمائر إن وجدت ، ففي الممارسة الخطابية ينتج المثل «إقناعا أكثر لطافة وأكثر استحسانا من قبل العامة ، إنه قوة نيرة تدغدغ اللذة الكامنة في كل تشبيه ، أما القياس المضمر وهو الأشد قوة وجزالة فينتج قوة عنيفة مثيرة ، إنه يستفيد من طاقة القياس ، القياس المضمر يحدث انجذابا حقيقيا ، فهو الحجة في منتهى صفائها وجوهرها»[5] .

والخلاصة أن استغلال الحجاج الخطابي في مجال المحتمل يترك هامشا من عدم التوثق لذلك فالضمير الواحد لا يكفي لإبراز حركة اللزوم مما يجعل

---

(١) البلاغة القديمة ص٤٧ .

(٢) الخطابة ترجمة بدوي ص٣١ .

(٣) البلاغة القديمة ص١٠٤ .

(٤) الخطابة ترجمة بدوي ص١٥٧ .

(٥) البلاغة القديمة ص١٠٤/١٠٥ .

الخطيب في حاجة دائمة ومستمرة إلى جملة من الضمائر يسند بعضها بعضا ويدعم ذلك جميعا بأمثلة وحكم(١) .

٣-٢-٢-٣-١)- القياس المضمر:

اهتم أرسطو في دراسته للقياس المضمر بالاستنباط باعتباره مبدأ في الاستدلال ينطلق من العام إلى الخاص ، ويتكون القياس من مقدمة كبرى تشكل قانونا عاما ، ومقدمة صغرى تمثل حدثا خاصا يندرج تحت القانون العام مما يقودنا إلى النتيجة . غير أنه في القياس المضمر لا يصرح بهذه الأطراف الثلاثة إذ يضمر بعضها ، وقد شغلت مسألة إضمار المقدمات أو النتائج أرسطو في كتابيه «المواضع» و«الخطابة» حيث اعتبر الإضمار شرطا لاسترسال حركة بناء الإقناع في الحجاج الخطبي ، وتختلف استراتيجية الإضمار في الجدل عن نظيرتها في الخطابة ، «فالإضمار في الخطابة غالبا ما يكون في المقدمات التي من شأنها أن تستثير اعتراضا ، اعتراض يعرقل حركة الحجاج ، أما الإضمار في الجدل فهو إخفاء يعقبه تصريح ، فهو يتمثل في إخفاء المقدمات الأساسية في أثناء المناقشة مع دفع «المجيب» دون أن يحتسب إلى التسليم بقضايا يقتضي التسليم بها التسليم بتلك المقدمات الأساسية المضمرة»(٢) .

غير أن صفة الإضمار هاته «توحي بأن الفرق بين القياس المنطقي والمضمر هو مجرد حذف عنصر أو عناصر منه ، تلك العناصر يمكن استرجاعها بالعقل وقد تكون محذوفة في الظاهر فقط ، والواقع ليس كذلك إذ أن المضمر بالإضافة إلى الحذف يقوم على مقدمات احتمالية ، ولهذا فإن قابلية الصياغة المنطقية للقياس لا تؤدي إلى استنتاجات ضرورية كما هو الأمر بالنسبة إلى القياس الصوري»(٣) .

(١) الحجاج عند أرسطو ص١٦٥ .

(٢) الحجاج عند أرسطو ص٢٦١ .

(٣) الاستعارة في محطات ص٤٥ .

وقد اهتم الفلاسفة المسلمون في دراستهم للخطابة «بالضمائر» ، فهي عند الفارابي «تقنع بصورها وتقنع بموادها ، وإنما تصير مقنعة بأن يبقى فيها موضع عناد ، ومتى لم يكن فيها عناد خرجت من حد المقنع ورتبته إلى رتبة اليقين وحده»(١) ، ويستعمل ابن سينا مصطلحي «تفكير» و«ضمير» للدلالة على القياس المضمر يقول : «التفكير هو الضمير بعينه في الموضوع ، ولكن من حيث اعتباره بالحد الأوسط ، فإنه من حيث أخذ فيه وسط يقتضيه الفكر هو تفكير ، ومن حيث فيه نقصان مقدمة هو ضمير ، ليكون التفكير أو الضمير واحدا بالموضوع»(٢) .

وينطلق القياس المضمر من مقدمات معلومة «يقينية غير أنه ليس اليقين العلمي بل يقيننا الإنساني»(٣) ، وتتحدد هذه المقدمات في ما يقع تحت الحواس ، وما هو مشترك عام ، وما يتفق عليه الناس عموما ، وما شرعته القوانين ، وما جرى به العرف ، ويضع أرسطو بين هذين النوعين من «اليقين» الإنساني مقولة أكثر إيهاما وهي العلامات وهي شيء يصلح لإدراك شيء آخر(٤) . ترتكز مقدمات القياس المضمر إذن على الاحتمال العرفي الذي يرتكز بدوره على نواتين أساسيتين : أولاهما فكرة العام في تقابلها مع فكرة الكلي ، فالكلي ضروري وهو صفة العلم ، أما «العام» فهو إنساني وغير ضروري ويتحدد إحصائيا برأي الأكثرية ، وثانيتهما إمكانية التناقض ، فالنقيض ليس دائما مستحيلا في حدود التجربة الإنسانية والحياة الاجتماعية والخلقية التي هي

---

(1) Alfarabi: Deux ouvrages inédits sur la rhétorique p89.

(٢) ابن سينا : الخطابة من كتاب الشفاء ، تحقيق محمد سليم سالم ، وزارة المعارف العمومية ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ١٩٥٤ ص٣٥/٣٦ .

(٣) البلاغة القديمة ص١١٩ .

(٤) نفسه .

حدود الاحتمال العرفي[١] ، ولعل هاتين النواتين هما اللتان تمنحان المضمر فاعلية عملية ومقبولية لدى «الجمهور» ، فهو يمنح لذة للمتلقي ، لذة الإنجاز والكشف لذلك ألح أرسطو على استثمار الاعتبارات النفسية للمتلقي ، إذ ينبغي أن نعطيه «انطباعا بأنه هو نفسه الذي قضى على ذلك الجهل بقدرته العقلية الذاتية ، فالقياس المضمر قياس مبتور بسبب نقص أو خلل ، بل إنه من اللازم أن نترك للسامع لذة إنجاز كل شيء في بناء الدليل»[٢] .

٣-٢-٢-٣-٢)- المثل:

يختلف المثل عن المضمر بكونه لا ينطلق من فكرة أو قضية عامة لتبرير فكرة أو قضية خاصة بل ينطلق من فكرة خاصة لتبرير فكرة خاصة أخرى ، ويقوم المثل في الخطابة «مقام الاستقراء في المنطق ، أو المثل هو استقراء بلاغي ، والمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتيهما ويراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها»[٣] ، وإذا كان الاستدلال الاستقرائي ، خاصة في شكله الخطابي ، لا يصل إلى تعميمات وحقائق يقينية «فإن هذا اللايقين هو ما يهم البلاغيين بالأساس في دراستهم للحجاج والسفسطة والحجج التجريبية»[٤] .

ويقسم أرسطو المثل إلى نوعين : «أحدهما يقوم في أن يورد المتكلم أحداثا متقدمة ، وثانيهما أن يخترعه المتكلم من تلقاء ذاته ، وفي هذه الحالة الأخيرة يتعين أن نميز من ناحية أولى الرمز الممثل . . . ومن ناحية ثانية الحكايات

---

(١) البلاغة القديمة ص١١٦ .

(٢) نفسه ص١١٣ .

(٣) في بلاغة الخطاب الإقناعي ص٦٨ .

(٤) النظرية الحجاجية ص٢٥ .

الخرافية»[1] ، فنصير بذلك إلى ثلاثة أنواع من المثل :

* المثل التاريخي «وهو الذي يستخدم في أغلب الأحوال ، إذ أنه يعتمد على الحقيقة ، وهو تبعا لذلك الأكثر إثارة للتصديق»[2] ، ومثاله قول أرسطو : «لا ينبغي أن نترك ملك الفرس الأعظم يستولي على مصر إذ إن داريوس استطاع بعد أن احتل مصر أن يتمكن من أوربا وكذلك فعل كركيس»[3] .

* المثل المبتكر «ويقوم على تخييل شبيه ممكن واقعيا مماثل للحالة المطروحة للنقاش»[4] ، ومثاله قول أرسطو : «إن القضاة لا يمكن اختيارهم بواسطة القرعة ، إذ أنه لا يمكن تعيين ربان السفينة على سبيل القرعة ، ولكن يتم اختيار ذلك الذي يتقن القيادة»[5] .

* المثل الخرافي ويندرج ضمن المثل المبتكر ، ويقوم على حكايات خرافية «مثل حكايات إيزوب ، والحكايات المنسوبة إلى مجهول ليبي»[6] . وحكايات كليلة ودمنة في التراث العربي الإسلامي .

إن هذه الأنواع الثلاثة من الأمثلة تفيد الخطيب في تدعيم حججه وتيسير الحركة الحجاجية لخطابه ، فالحال أن البدائل المجلوبة من الأحداث التاريخية الماضية تمتاز عنها جميعا لأنها مفيدة للتشاوريات المهتمة بالأحداث الواقعية ، وحيث إن المستقبل يشبه الماضي ، ولكن نظرا لأن التاريخ هو في الغالب صامت وأن المواقف يمكن أن تكون غير مسبوقة بنظائر فإنه يبدو أن الخطيب يعمد في الغالب إلى الخرافات والحكايات المجازية لأن حاجات الخطابة الجماهيرية تنزع

---

(١) الخطابة ترجمة قنيني ص١٤٦ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٤٨ .

(٣) الخطابة ترجمة بدوي ص١٥٤/١٥٥ .

(٤) الاستعارة في محطات ص٤٨ .

(٥) الخطابة ترجمة بدوي ص١٥٥ .

(٦) الخطابة ترجمة قنيني ص١٤٦ .

إلى تفضيل «المنطق الشعري» على «المنطق الخطابي» ، غير أن كينتليان ينبه إلى ضرورة التمييز عند استعمال الأمثلة لأنها «في الغالب خادعة ولهذا فلا ينبغي استعمالها بدون تمييز والواقع فإذا كانت سفينة جديدة أحسن من القديمة فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الصداقة ، وينبغي أن نثني على المرأة التي تعير بحرية مالها ، ولكننا لا نستطيع أن نثني على المرأة التي تعير بحرية جسدها ، ففي الأمثلة نلاحظ أن الكلمتين «القديمة» و«الحرية» هي نفسها غير متغيرة إلا أن قيمتها تختلف حينما تطبق على المال وحينما تطبق على العفة وعلى سفينة أو على صديق . في هذا الجنس ينبغي الاحتراس من كون النتائج متشابهة»[1] . لأن التشابه الظاهري بين واقعتين «لا يجب أن يضغط على الذهن في اتجاه مسايرة ما هو سائد من الأحكام ، والتشابه نفسه قد يخفي تباينا خفيا عن الحس»[2] ، وقد ذهب الفارابي إلى أنه «إذا وجد شيئان متشابهان ثم ظهر أن شيئا ثالثا هو سبب لأحدهما ، فإن الوهم يسبق ويحكم بأنه أيضا سبب للآخر ، وذلك لا يصح في كل متشابهين ، إذ التشابه قد يكون بعرض من الأعراض وقد يكون بالذات»[3] .

٤)- الترتيب:

يقول أرسطو : «الكلام يتضمن جزأين إذ لا بد من ذكر الموضوع الذي نبحث فيه ، ثم بعد ذلك نقوم بالبرهنة ولهذا فمن المستحيل بعد ذكر الموضوع

---

(1) Quintilien: Institution oratoire; les belles letres,1980; livres 5 p:217.

(٢) بناصر البعزاتي : الصلة بين التمثيل والاستنباط ، ضمن التحاجج : طبيعته ومجالاته ووظائفه ، تنسيق حمو النقاري ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم١٣٤ ، ٢٠٠٦ ، ص٣٣ .

(٣) أبو نصر الفارابي ، الأعمال الكاملة ، تقديم جعفر آل ياسين ، ج١ ، بيروت ، دار المناهل ، ١٩٩٢ ، ص٢٨٥ .

أن نتجنب البرهنة ، أو نقوم بالبرهنة قبل ذكر الموضوع أولا ، ذلك أنه حيث نبرهن إنما نبرهن على شيء ، ولا نذكر شيئا إلا من أجل البرهنة عليه . وأولى هذه العمليات هي العرض والثانية الدليل ، وهذا يفضي إلى وضع تفرقة بين المسألة وبين البرهان ، أما الاستهلال والمناقشة بالتساجل والتكرار بإيجاز لما قبل فإنها توجد في خطبة المحافل ، إلا إذا كان ثمة مناظرة فكثيرا ما يقع في هذه الخطب اتهام ودفاع ولكن لا يمكن أن نسمي هذا فصلا خطابيا . أما الخاتمة فلا تدخل في كل نوع من أنواع الخطب القضائية ، فهي مثلا بدون فائدة سهلة الحفظ ، ففي هذه الحالة يحدث أن يحذفها المرء تجنبا للإطناب . وهكذا ليس ثمة من ضرورة إلا للقضية والدليل ، فهذا فهو الملائم حقا للكلام وقصارانا السماح بالاستهلال والعرض والدليل والخاتمة»[١] .

يبرز أرسطو في هذا النص الطويل أجزاء القول الخطبي مشيدا بأهمية جزأين أساسيين هما العرض والدليل اللذان يعتبرهما جوهر القول الخطبي ، لكنه في الوقت ذاته يسمح بإضافة جزأين آخرين وهما الاستهلال والخاتمة وإن كانت أهميتهما تختلف من جنس خطابي إلى آخر ، والمهم عندنا أن أرسطو وبعد فراغه من تحديد الأدلة أدرك «أن الحجة وحدها لا يمكن أن تكون فعالة لمجرد أنها حجة جيدة ، بل ينبغي بالضرورة لكي تكون فعالة حقا أن تصاغ الصياغة المناسبة ، وفي هذه الحالة تتدخل كل الأمور المتعلقة بالترتيب»[٢] .

وهكذا ينقلنا أرسطو من بنينة الخطاب وتكوينه عبر المراحل الأساسية (البحث/الترتيب/الأسلوب) ، إلى بنية الخطاب باعتباره إنجازا يتكون من أجزاء بعضها جوهري وبعضها الآخر ثانوي (استهلال/عرض أو سرد/الدليل أو الاستدلال والحجاج/ الخاتمة) ، ويعتقد بارت أن الترتيب الأرسطي ينطلق «من انشطار ثنائي كان موجودا وبصورة أخرى في البحث (الأدلة والحجج) : هذا

---

(١) الخطابة ترجمة بدوي ص٢٢٨/٢٢٩ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٥٧ .

الثنائي هو تحريك النفس (التأثير، التعلم/ الإفادة، الإقناع)، ويغطي المفهوم الأول (مخاطبة العواطف) الاستهلال والخاتمة أي طرفا الخطاب، ويغطي المفهوم الثاني (الاعتماد على الوقائع والعقل) السرد (عرض الأحداث) والإثبات (إثبات الحجج أو وسائل الإقناع) أي الجزءان المتوسطان للخطاب . . . وهكذا نجد أنفسنا أمام تركيب متقاطع : قطعتان من «الانفعالي» تؤطران كتلة برهانية»[1] . وفي ما يلي تفصيل لهذه الأجزاء :

٤-١)- الاستهلال (المقدمة):

الاستهلال هو ابتداء الخطاب، ويجعله أرسطو مناظرا للمطلع في الشعر الدرامي أو الافتتاحية في قطعة معزوفة على الناي[2]، فهو يضع المتلقي أمام موضوع الخطاب ويزيل عنه الغموض والإبهام ليتابعه باهتمام، إذ أننا إذا «وضعنا الابتداء في يديه(المستمع) ورهن إشارته إذا جاز التعبير كنا أعطيناه ما يشبه خيطا يسمح له بأن يتابع الخطاب»[3]، وتختلف أهميته من جنس خطابي إلى آخر فهو في الخطب التثبيتية ضروري «لأنه إذا كان الخطاب خاليا من مقدمة أو استهلال ربما ظهر عليه كونه مرتجلا وبدون تحضير»[4]، بينما تقل أهميته في الخطب القضائية اللهم إذا كان الخطيب متهما يسعى إلى الدفاع عن نفسه إذ «ينبغي أن يبتدئ الظنين الكلام بمقدمة متى كان يدافع عن نفسه، وأن يحتفظ بها إلى الخاتمة متى كان متهما»[5]، فالقاضي لا يمكن أن يترسم خطوات شخص متهم ساخط عليه بسبب سمعته أو صورته التي لطخها

---

(١) البلاغة القديمة ص١٣٩/١٤٠ .

(٢) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٢٤ .

(٣) نفسه ص٢٢٥ .

(٤) نفسه ص٢٢٨ .

(٥) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٢٦ .

الخصم ، أما إذا كان هذا الشخص متهما فمن الحكمة الخطابية أن يترك تلطيخ سمعة الخصم حتى الخاتمة لكي يجعل كلامه يلتصق بذاكرة القاضي[١] .

ويجعل أرسطو للاستهلال وظيفتين أساسيتين : أولاهما وهي الأكثر ضرورة أن يدل «على الغرض الذي يستهدفه الخطاب ، ولذلك إذا كانت الوظيفة واضحة بذاتها ، وكانت المسألة تافهة الأهمية تعين ألا تستعمل مقدمة ما»[٢] ، أما الوظيفة الثانية فهي استمالة المتلقي وتهييئه واستدراجه ليقبل على الموضوع باهتمام ، وإذا أردنا أن نحقق ذلك «يتعين علينا أن نرده إلينا وأن نقصر كل انتباهه على ما نقوله بل يمكن أن نتظاهر بالجدية والنبل ، لأننا غالبا ما نعير انتباهنا للخطباء ذوي هذه الطبائع ، ويلتفت المستمعون باهتمام إلى الأشياء المفيدة والتي تدخل فيما يجري حول مصالحهم الشخصية ، وإلى الأشياء التي تحدث لهم الاستغراب والتي يستلذونها : لذلك يجب أن يوهم الخطيب الاعتقاد بأن خطابه يدور حول هذه الموضوعات»[٣] . لقد قسم أرسطو ما يحقق استمالة المتلقي وإثارة انتباهه بين الإيتوس (جدية الخطيب ونبله) ، واللوغوس (أهمية الموضوع وفائدته) ، والباتوس(إثارة الاستغراب واللذة) .

وتتعلق استمالة المتلقي وإثارة انتباهه بعلاقة القضية المطروحة أو الموضوع بالرأي الشائع ، أو بأجناس القضايا والتي حددها كينتليان في خمسة ، يقول : «إلا أننا نحذف من بين كل ما سبق أن تحدثنا عنه بعض الأمور ، وذلك تبعا لطبيعة القضية يعمد كثيرون جدا إلى اعتبار عددها خمسة وهي : الشريف والحقير والمحير والمنفر والغامض»[٤] . فالشريف يقوم على تطابق القضية مع الرأي الشائع ، فإذا «كان الأمر يتعلق بقضية «دعاية» مراعية للأصول ، فلا حاجة إلى

---

(١) الاستعارة في محطات ص٦١ .

(٢) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٢٦ .

(٣) نفسه .

(4) Quintiliaine: Institutions oratoires. P:207.

إخضاع القاضي لأي إغراء أو ضغط ذلك هو النوع الفاضل»[١] ، والحقير تكون فيه القضية في علاقتها بالرأي الشائع «محايدة ولا تثير في المتلقي الاهتمام ولا الشغف لأن الأشخاص أو الأشياء الموضوعين موضع نقاش لا يكتسون في رأي الجمهور أية أهمية»[٢] ، وهنا لا بد من إثارة فضول القاضي «لا بد من فعل ملموس للتغلب على سكون القاضي . . وجعله منتبها ، وذلك هو النوع المتضع»[٣] ، أما المحير ويسميه بارت الالتباسي[٤] فتكون فيه القضية ملتبسة «إذا حدث مثلا نزاع بين رأيين شائعين»[٥] هنا ينبغي جعل القاضي متعاطفا باستمالته نحو جهة معينة ، و«في هذه الحالة يكتسب الخطاب الكثير من الأهمية لأنه هو الذي يمكن أن يرجح هذه الكفة أو تلك كما أن المستمع يتساءل جديا هنا عن شرعية القضية التي يتبناها أحد الطرفين»[٦] ، أما المنفر فتكون فيه القضية خارجة عن المعتاد ومستفزة «ومثيرة للاندهاش لكونها بعيدة عن ما هو شائع ومناقضة للحس الإنساني»[٧] ، أما الغامض فتكون القضية فيه مختلطة وغير واضحة وهنا لابد من جعل القاضي «يقتفي خطواتك ويهتدي بالأضواء التي تثبتها في طريقه . . . فقبل أن نلتمس إثارة المستمع في الاتجاه الذي نريده ينبغي تبديد الغيوم التي تغبش فكره»[٨] .

---

(١) البلاغة القديمة ص١٤٢ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٥٨ .

(٣) البلاغة القديمة ص١٤٢ .

(٤) نفسه ص١٤٣.

(٥) البلاغة القديمة ص١٤٣ .

(٦) الاستعارة في محطات ص٥٩ .

(٧) البلاغة القديمة ص١٤٣ .

(٨) الاستعارة في محطات ص٥٩ .

٤-٢)- السرد (العرض):

السرد هو العرض المفصل لما تم إجماله في الاستهلال، وهو «محكي الوقائع المعروضة... غير أن هذا المحكي لا يتم عرضه إلا كحجة»[١]، فهو محكي ليس بالمعنى الروائي اللانفعي للكلمة بل هو مقدمة استدلالية تمتاز بخلوها من الاستدلال المباشر بل ينبغي أن يكون واضحا واحتماليا ووجيزا، ووظيفته هي تحضير للاستدلال[٢].

وقد ميز أرسطو بين السرد في أجناس الخطابة الثلاثة، فهو ضروري في الخطابة القضائية في حين يمكن الاستغناء عنه في الخطابة الاستشارية «بافتراض أن المستقبل لا يمكن أن نقص عنه شيئا»[٣]، أما في الخطبة التثبيتية «فإن ضرورة السرد وإمكان الاستغناء عنه تابعان لمعرفة الأحداث أو عدم معرفتها»[٤]، يقول أرسطو: «فمثلا إذا أردنا أن نمدح **أشيل** فإن الجميع يعرفون أفعاله ومآثره، وإنما ينبغي أن نستفيد منها، أما إذا أردنا أن نمدح **كرتياس** فمن الواجب أن نسرد أفعاله لأن كثيرا من الناس يجهلونه»[٥]. ويشترط أرسطو في السرد:

* تجنب التطويل دون الإفراط في الإيجاز، إذ «يجب أن نتجنب التطويل في السرد، كالحال تماما في المقدمة الاستهلالية، وكذلك في عرض الأدلة، لأن الأفضل هنا ليس هو السرعة والدقة لكن المقدار الوسط»[٦].

---

(١) البلاغة القديمة ص١٤٥.

(٢) البلاغة القديمة ص١٤٥.

(٣) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٣٥.

(٤) الاستعارة في محطات ص٦٣.

(٥) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٣٢.

(٦) نفسه ص٢٣١.

* أن يطعم الخطيب سرده بكل ما يثير انتباه المستمع ففي «كل مناسبة ملائمة يجب أن تدخل في القصة كل ما يثير الانتباه»[1] .

* إغناء السرد بالوقائع الماضية خاصة في الخطب القضائية على «شرط أن نبرزها وكأنها حاضرة حتى يثير الإحساس بالشفقة أو التمرد»[2] .

* أن يكون السرد ذا طابع خلقي «وتحصل هذه النتيجة إذا عرفنا ما تعبر عنه العادات والأعراف والتقاليد : والشرط الأول هو إظهار عقد عزمنا الأخلاقي لأنه كما تكون العادات والتقاليد يكون عزمنا وقصدنا مثلها»[3] .

* أن يضيف الخطيب الأسباب والدواعي متى كان الحدث مصدقا به «كما فعل سوفوكل وقد أعطى عنها مثالا في مسرحية أنتجون عندما صرحت البطلة بكونها تهتم بأخيها أكثر من عنايتها بالزوج والأطفال لأن هؤلاء يمكن أن يعوضوا إن هي فقدتهم»[4] .

ويتضمن السرد نمطين من العناصر : الأوصاف والوقائع ، فنحن «نعمد إلى التفصيل أو الوصف حيث لا يلعب الزمن أي دور ، ويكون الهدف هو وصف الشيء ضمن حيز مكاني . ونعمد إلى السرد أو الحكي حيث يلعب الزمن دورا أساسيا في القضية المعروضة حيث نتحدث عن الأحداث أو الأشياء باعتبار توزعها الزماني»[5] .

---

(١) نفسه ص٢٣٣ .

(٢) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٣٣ .

(٣) نفسه ص٢٣٣/٢٣٤ .

(٤) نفسه ص٢٣٤ .

(٥) الاستعارة في محطات ص٦٢ .

٤-٣)- الاستدلال (الإثبات):

مرحلة الاستدلال أو الإثبات أو الحجاج هي المرحلة التي يدلي فيها الخطيب بالأدلة التي بلورها في البحث، «وهي عملية تطرح مشكلا بنيويا داخليا: كيف ننظم الحجج؟ هل ننطلق من الحجج الأكثر قوة وننتهي إلى الأشد ضعفا؟ أم نسير في الاتجاه المعاكس؟ أم نلجأ حسب شيشرون إلى نسق مختلط من الحجج الحاسمة؟»[1]، إنها عملية تجعل الخطيب مجبرا على وضع استراتيجية لحجاجه: من أين يبدأ وكيف يتطور وأين سينتهي؟

لقد سبق معنا أن أرسطو جعل عرض القضية والاستدلال عليها أساس القول الخطبي بمختلف أنواعه، بل ويجعل الاستدلال أصل الخطبة وغايتها، فهو «مفخرة الخطباء والنواة المركزية لكل خطابة، بل لكل خطاب، إذ ما الفخر الذي يمكن أن يجلبه حكي الحدث للخطيب ما دام الحدث شيئا معطى واقعيا، إن مظهر الموهبة الخطابية يتمثل في القدرات الحجاجية المبتكرة والمركبة على المادة الحدثية المحكية»[2].

ويرى أرسطو أنه في الخطبة التثبيتية تعطى المكانة الأولى للتكبير والتفخيم «حتى نبرهن على أن الأفعال كانت جميلة ونافعة»[3]، وأنها لا تحتاج إلى كثير من التدليل «اللهم إذا كانت (الأفعال) لا يمكن أن تصدق أو إذا تحمل أحد المسؤولية فيها»[4]. أما في الجنس المشوري فيحتاج الخطيب إلى الاستدلال للإقناع بنجاعة التدابير المقترحة أو التي يرمي إلى إلغائها إذ «يمكن أن نثبت بأن التدابير المقترحة لن تكون لها مثل هذه النتائج، وإما أن هذه النتائج سوف تحدث لكنها لن تكون منصفة ولا مفيدة ولا مهمة، وأيضا يجب أن ننظر ما إذا

---

(١) النظرية الحجاجية ص٢١.

(٢) الاستعارة في محطات ص٦٣.

(٣) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٣٦.

(٤) نفسه.

كان الخصم يكذب»[١] ، كما ينبغي التصريح بحجة الخصم وتفنيدها وإفراغها من كل قوة إقناعية ، فكل حجاج يتألف من «حجج مدعمة وأخرى مفندة ، فإذا كان المخاطب واقع تحت تأثير اقتناع بحجج الخصم ، فمن الضروري البدء بتفنيد مزاعم الخصم قبل أن نسوق الحجج المدعمة الخاصة ، وعلى العكس من ذلك فحين نأخذ الكلمة قبل الخصم فمن الطبيعي ألا نفند حججا لم نسمعها بعد ولهذا ندفع بدءا بحججنا المساندة للأطروحة التي ندافع عنها»[٢] . ويركز أرسطو كثيرا على تفنيد حجج الخصم وأدلته أو تبكيت الخصم ويجعل هذا التبكيت «جزءا من الأدلة»[٣] ، ويكون «تارة بالسؤال أو الاعتراض وتارة بالقياس المستقيم»[٤] ، ويكون هذا التفنيد ضروريا في الجنس القضائي إذ ينبغي أن نوطئ لحججنا بإلغاء حجج الخصم لجعل القاضي أكثر استعدادا للتجاوب مع احتجاجنا ، يقول أرسطو : «إذا كانت حجة الخصم تكتسي أشكالا متعددة ، فيجب حينئذ أن نهاجم أولا الحجج المضادة كما فعل كاليستراوس أمام جمعية الميسينيين ، فهو نقض مسبقا الأسباب التي كان ينبغي أن يعترض عليها ، ثم بعد ذلك عرض قضيته الخاصة ، وإذا أخذنا الكلام في المرتبة الثانية أي كنا مجيبين تعين أن نرد على خطاب الخصم وذلك بإبطاله بقياس مضاد ، ولا سيما إذا كانت حججه قد أثرت وأمتعت الناس فقدروها»[٥] .

ويذهب أرسطو أبعد من ذلك فيحدد الأدلة والحجج الناجعة لكل جنس خطابي ، فالتفخيم والتكبير في الخطبة التثبيتية ، «وتكون المثالات في موضعها على وجه خاص من ضروب الخطب الموجهة إلى الشعب ، والأقيسة المضمرة

---

(١) نفسه .

(٢) الاستعارة في محطات ص٦٤ .

(٣) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٣٨ .

(٤) نفسه .

(٥) الخطابة ترجمة قنيني ص٢٣٨/٢٣٩ .

بالأولى في الخطب القضائية . وفي الحقيقة فإن أية خطبة تتجه إلى المستقبل يجب بالضرورة أن تأخذ مثالاتها من الماضي ، في حين أن الخطاب القضائي يعتمد على الشيء الموجود أو غير الموجود من الوقائع ، و إذن يحتل البرهان مكانا كبيرا مثلما هو الحال كذلك في كل ما هو ذو طابع ضروري ، لأن للماضي طابعا ضروريا»[1] . ويمضي أرسطو في إبراز الاستراتيجية الحجاجية المثلى إذ يجب «ألا تصرح بالأقيسة المضمرة تباعا وعلى نسق واحد بل يجب أن نخلطها بحجج أخرى ، وإلا أضر بعضها بعضا فتفسد»[2] .

٤-٤)- الخاتمة:

يقول أرسطو : «وإذن فإن النتيجة الختامية إنما تتألف من أربعة عناصر : يقوم أحدها في أن تضع المستمع على هيأة جيدة ، وتثبت صحة ما تقول حتى يميل إليك ، كما تجعله على حال رديئة بالنسبة إلى خصمك ، وثانيها أن تفخم الشيء المتكلم فيه ، وتكبره أو تصغره ، وثالثها أن تثير الانفعالات النفسانية عند المستمع ، ورابعها أن تقوم بتلخيص جامع»[3] .

لقد جعل أرسطو إذن للخاتمة وظائف أربع أغلبها ذو طابع انفعالي ، تهدف إلى وضع البصمة والصورة الأخيرة في ذهن المستمع ، والتي بعدها مباشرة قد يصدر الحكم ، لذلك وجب علينا «أن نعطي ملخصا للحجج التي استخدمت في البرهان . . وأن نقول أننا وفينا بما عاهدنا به ووعدنا به ومن ثم يجب أن نقول ما أثبتناه وبأي أسلوب ودواع استدللنا عليه»[4] ، ثم بعد ذلك نثير انفعالات وعواطف في المستمع مساندة لأطروحتنا ومعارضة لأطروحة الخصم حسب

---

(١) الخطابة ترجمة قنيني ٢٣٧ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ص٢٤٤ .

(٤) نفسه ص٢٤٥ .

طبيعة القضية كإثارة الشفقة أو الغضب . . .

ويقترح أرسطو أن يبنى التلخيص الجامع على المقارنة والتوازي والمقابلة ، أي مقارنة حججنا بحجج الخصم ووضع هذه الحجج وجها لوجه وبشكل متواز ، «وينجز هذا التوازي إما بأن نقارن ما قاله الطرفان حول نفس الفكرة ، وإما أن نوازن وأن نقابل علة بعلة : «إن خصمي قال كذا حول هذا الموضوع وأنا قلت ذاك لأجل هذه الأسباب» ، وإما أن نسلك سبيل السخرية ، مثلا «قال خصمي هذا وأنا تحدثت عن ذاك ، وماذا عساه يقول لو برهن على هذا النحو بدل هذا» ، أو قد نضع السؤال «ما الذي بقي ولم نبرهن عليه . . .»[1] . ويستحسن أرسطو أن نجعل في آخر الخطاب جملة «محذوفة الروابط حتى تكون نتيجة ختامية وليست بسطا للأقاويل :! لقد خطبت وسمعتم وملكتم السؤال فاحكموا!»[2] .

٥)- الأسلوب:

ذكر أرسطو في مطلع المقالة الثالثة من كتابه «الخطابة» بالمراحل الثلاث لبنينة القول الخطبي ، فإيجاد الأدلة وإنتاج الحجج مرحلة أولى لن تكون ناجعة بدون تجويد العبارة وتحسينها ، يقول : «إننا تحدثنا عن الحجج والمصادر التي تؤخذ منها تلك الأدلة . . . وفيما يلي من عرضنا يختص الكلام بضروب التعبير والأسلوب لأنه لا يكفي أن نملك الحجج بإيجادها وإنتاجها ، بل لابد كذلك من إجادة العبارة عنها وتحسينها وتقديمها كما يجب أن تعرض»[3]. غير أن اهتمام أرسطو بالأسلوب ليس باعتباره مكونا حجاجيا حقيقيا في نظره ولكن فقط لأنه ضروري بسبب فساد العامة ، وعنايته بمسألة الأسلوب «لا باعتبارها سليمة ، بل لأنها ضرورية لأنه من حيث الصواب ينبغي على المرء أن يهدف

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) الخطابة ترجمة قنيني ص١٧٩ .

في خطبته إلى تجنب إثارة الألم ، إذ العدالة تقتضي ألا يعالج القضية إلا بالوقائع وحدها ، حتى أن أي شيء آخر إلى جانب البرهان يعد فضولا ونافلة ومع ذلك . . . فبسبب فساد السامع من المهم الاهتمام به»[1] ، ولعل هذا ما دفع محمد الوالي إلى القول أنه «من شأن هذه المواقف المشددة على الحجج المحايثة أن تجعلنا نتريث في الحكم على بلاغة أرسطو المطروحة في الكتاب الثالث هي 'بلاغة محسنات'»[2] ، فالمقالة الثالثة من كتاب «الخطابة» تشدد بدورها على مسألة الحجاج «منظورا إليها من الزاوية اللغوية : فليست المقومات اللغوية أو «المحسناتية» أو الإيقاعية أو البيانية الاستعارية أو التشبيهية أو التناسبية مجرد أدوات تزيينية ، بل إنها مقومات حجاجية لا تقل أهمية عن القياسات الإضمارية وعن الشاهد وعن الأخذ بالوجوه وعن الانفعالات . إننا بصدد كتاب آخر في البلاغة الحجاجية ، كتاب يغير زاوية النظر اللفظية والبنائية»[3] . وقد تعامل أرسطو مع الأسلوب بشكل واسع فهو يقصد به طريقة أداء الفعل ، وتشمل هذه الطريقة : الإلقاء والإيقاع والألفاظ والمجاز . . .

٥-١)- الإلقاء والإيقاع:

أكد أرسطو أن لكل فن من فنون الكلام جنسا من الأسلوب ، وميز بين أسلوب الكلام المكتوب والأسلوب الشفهي ، فأسلوب «تأليف الكلام يكون دقيقا مضبوطا ، أما أسلوب تأليف حديث المناقشات فهو أكثر اختصاصا بإنجاز الفعل (الإلقاء)»[4] ، لكنه مع ذلك لم يعْلِ من قيمة الإلقاء ، فغاية الخطابة عنده الإقناع وهي غاية تتحقق «بالحجاج المستند إلى الموضوع أو المحتوى وليس

(١) نفسه ص١٩٣ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٦٨ .

(٣) نفسه ص٦٨/٦٩ .

(٤) الخطابة ترجمة قنيني ص٢١٨ .

بالاعتماد على اللفظ أو التحقق الصوتي»[1] ، ومع ذلك فهو لم يقص مقومات الإلقاء من دراسته بل اعترف بدورها وأهميتها في الشعر كما في المنازعات السياسية ، لقد درسها ونبه إلى مخاطرها ، فالدور الذي تلعبه «يمكن أن يحجب عن الأنظار الضعف الحجاجي المنطقي الذي يحظى بالسبق في الخطابة الجيدة»[2] .

إن أرسطو كان يعلم أنه لا يمكن أن تكون هناك خطابة بدون أسلوب وبدون إجادة الإلقاء ، لكنه كان يعلم كذلك أن هذه الأشياء تخاطب عواطف الجمهور لا عقولهم ، وأن عددا كبيرا من هذا الجمهور مستعد للتأثر والاقتناع بانفعاله وعاطفته أكثر من فكره وعقله ، فهو يكاد يجزم «بأنه بفضل هذه الوسائل كان المؤدون على وجه التأويل يفوزون بالجوائز في المسابقات . . . وهكذا كما يجري الآن في مناقشات أهل المدينة ومواطنيها تبعا لاختلال الدساتير وفسادها»[3] ، ويقوم أداء الفعل الخطابي أساسا على كيفية استخدام الصوت لتشخيص الانفعالات ، إذ أنه يجب أن يعرف الخطيب متى «يخرج الصوت ويتلفظ به قويا أو ضعيفا أو متوسطا ، وكيف تستعمل ضروب تمديد التلحين أعني التمديد الحاد الرقيق والغليظ أو المتوسط ، وكذلك متى نستعمل أي إيقاع من الإيقاعات التي ينبغي أن نلجأ إليها عند إثارة كل إحساس»[4] .

لقد اعترض أرسطو على الوزن في القول الخطبي ، فالوزن خصيصة الشعر فهو يحقق اللذة ولا يحقق الإقناع ، يقول : «وفي الحقيقة فإن الوزن لا يكون مختصا بالإقناع ، إذ أنه يشبه أن يكون مصطنعا ، وكل شيء وقع موزونا فإنه

---

(١) الاستعارة في محطات ص٦٩ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٧٠ .

(٣) الخطابة ترجمة قنيني ص١٨٠ .

(٤) نفسه ص١٨٠ .

بصرف الانتباه لأننا نتساءل متى يرجع الوزن نفسه»[1] . ولكن اعتراضه هذا يقوم دونه إشكال فما لا «يكون موزونا فهو غير محدد ، والحال أن الأسلوب يجب أن يكون محددا ولكن ليس بالوزن ، إذ ما ليس بمحدد لا يصلح لأن يلذ ولا أن يعرف»[2] ، ولذلك وجب أن يكون للقول الخطبي إيقاع ولا يكون له وزن حتى لا يكون شعرا ، ولتحقيق ذلك على هذا الإيقاع «ألا يكون محققا ولا محافظا عليه بدقة»[3] .

٥-٢)- صفات الأسلوب وعيوبه:

٥-٢-١)- صفات الأسلوب:

ميز أرسطو بين الأسلوب الخطابي والأسلوب الشعري في أكثر من فقرة في مقالته الثالثة من كتابه «الخطابة» ، بل إنه اعتبر الأسلوب الخطابي نوعا جديدا «أما فيما يخص الأسلوب القديم فقد تناولناه في كتابنا (فن الشعر)»[4] ، كما اشترط في الأسلوب الخطابي الجيد شروطا متعددة نقف على بعضها كالآتي :

٥-٢-١-١)- البيان والوضوح:

يجعلهما أرسطو من مزايا الأسلوب الخطابي الجيد ، فالإفهام شرط لتحقيق الإقناع ، والإفهام لا يضمن تحققه إلا بأسلوب واضح مبين ، والقول الخطابي «إذا لم يبن عن موضوعه لم يؤد وظيفته»[5] . ويكون كمال الأسلوب وفصاحته بالتنويع بين الألفاظ المتداولة المستعملة والألفاظ الخاصة والمجازات ، ليصير

(١) نفسه ص٢٠١ .

(٢) نفسه ٢٠١ .

(٣) نفسه ص٢٠١ .

(٤) نفسه ص١٨٢ .

(٥) الخطابة ترجمة قنيني ص١٨٣ .

للأسلوب «مظهر غريب من غير أن يظهر عليه أثر التعمل والتصنع ، ويسلم له الوضوح»[1] . خاصة وأن «الاهتمام بالوضوح في بداية الحجاج كما في نهايته يحدث عادة أثرا طيبا في المتلقي»[2] .

٥-٢-١-٢)-الملاءمة:

على الأسلوب الخطابي أن يكون ملائما للخطابة أولا ، ثم لكل جنس من أجناسها ثانيا ، ثم لمنشيء الخطاب ومتلقيه وموضوعه ثالثا . وهكذا تأخذ الملاءمة عند أرسطو أبعادا متعددة ، فالأسلوب الخطابي يكون معتدلا وسطا لا ينزل باللغة إلى مستوى الابتذال ، ولا يأخذ بها إلى مجال الغرابة والغموض ، إذ يجب «ألا يكون الأسلوب تافها ولا مفخما مبالغا فيه ، وإنما يجب أن يكون ملائما ، ولا شك أن اللغة الشعرية ليست تافهة ولكنها لا تلائم القول الخطابي»[3] . وبعد أن نحصل على هذا الأسلوب الخطابي المعتدل ينبغي جعله ملائما لكل جنس من أجناس الخطابة ، «فالأسلوب المناسب للجمعيات الشعبية يشبه في جميع وجوهه التصوير من جهة المنظور . . غير أن الأسلوب القضائي يقبل زيادة الدقة ولاسيما إذا كانت القضية يختص فيها قاض واحد»[4] .

ثم إن اختلاف الموضوعات في الجنس الخطابي الواحد يجعلنا أمام أساليب مختلفة ، إذ أن الموضوعات «الجليلة لا تعالج بخفة . . . ولا الموضوعات التافهة تعالج بجلال»[5] . وبعد تحديدنا للموضوع وخصوصيته ننظر إلى الخطيب لأنه

---

(١) الخطابة ترجمة قنيني ص١٨٤ .

(2) Lionel Bellenger: L'argumentation: Principes et méthodes; Paris, 1984,p 78.

(٣) الخطابة ترجمة قنيني ص١٨٣ .

(٤) نفسه ص٢٢٠ .

(٥) الخطابة ترجمة بدوي ص٢٠٩ .

حتى في الشعر «إذا عبر العبد أو الشاب في لغة مزخرفة فقد يحصل له من عدم الملاءمة وظهور التكلف الشيء الكثير»[1] .

وأخيرا وبعد أن تحددت مواصفات الأسلوب بالنظر إلى الجنس الخطابي وموضوعه ومنشئه يتوجب علينا النظر إلى المتلقي لأن أرسطو لم يجعل الأسلوب مكونا إقناعيا إلا من أجل هذا المتلقي ، واهتمامه بالأسلوب جاء «تبعا لانحلال المستمع وفساده»[2] .

لقد كانت نظرة أرسطو إلى الأسلوب الخطابي نظرة شمولية لم تغفل أي مكون من مكونات الخطاب ، فاشترط فيه مراعاة خصوصيات القول الخطابي وأجناسه ومواضيعه ومنشئيه ومتلقييه .

٥-٢-٢)- عيوب الأسلوب الخطابي:

لما كان الأسلوب يتحقق بإلباس المعاني ، أو كما عند أرسطو الحجج والأدلة ، ألفاظا ، فإن الملاءمة بمختلف أبعادها السابقة لا تتحقق إلا بصفات ينبغي توفرها أو انتفاؤها في هذه الألفاظ ، وقد كشف أرسطو عن أربع علل تنتج عنها برودة الأسلوب وثقله[3] :

٥-٢-٢-١)- التعسف في استعمال الألفاظ المركبة:

يقصد أرسطو بالألفاظ المركبة أن نصف الشيء بكلمات متعددة بدل تسميته في كلمة واحدة ، هذه الأوصاف والتحديدات يبتكرها الخطيب مما يجعلها تأخذ «مظهرا شعريا»[4] ، ومن أمثلة ذلك عبارات لليكورفون : «السماء

---

(١) الخطابة ترجمة قنيني ص١٨٤ .

(٢) نفسه ص١٨١ .

(٣) الخطابة ترجمة قنيني ص١٨٨ .

(٤) الخطابة ترجمة قنيني ص :١٨٨ .

ذات الأوجه المتعددة» و«الأرض ذات القمم العالية» و«الشاطئ ذو الممر الضيق» .

٥-٢-٢-٢)- استعمال الحوشي والمستعجم من الألفاظ:

إن استعمال الألفاظ الحوشية الغريبة يتعارض مع وضوح الأسلوب الخطابي ، فمثلا ليكورفون يطلق «لقب الرجل الضخم على كسيركيس ، ويسمي شيسرون وكان لصا «المخرب» ، وعند الكيدماس أن الشعر هو «لعب الأطفال»»(١) .

٥-٢-٢-٣)- الإسهاب والحشو:

ويحدث ذلك «متى استخدمت الأسماء الموضوعة مطولة وفي غير مكانها وأوانها وبدون مناسبة ، أو وقع تكرارها بلفظها عن قرب»(٢) ، وقد يكون الحشو مقبولا بل ومستملحا في الشعر بينما يخل بالمعنى في القول الخطابي ، خاصة إذا تجاوز الاعتدال والقصد ، فقد «يصح ويلائم أن يقال في الشعر «اللبن الأبيض» أما في الكلام المنثور فإما أن تكون هذه الألفاظ منقولة إلى غير محلها ، وإما أنها استعملت إفراطا في التعمق ومن ثم فإنها تخل بالمعنى»(٣) ، فالإفراط في استعمال الصفات يكشف عن الصنعة ويكسب القول طابعا شعريا وينحو به نحو الغرابة والغموض .

٥-٢-٢-٤)- عدم ملاءمة المجازات:

«إذ قد يكون بعضها باعثا على الضحك . . . وبعضها الآخر قد يظهر

---

(١) نفسه .

(٢) الخطابة ، ترجمة قنيني ص١٨٨ .

(٣) نفسه .

مفخما ومأساويا . فقد ينقص المجازات الوضوح إذا كان مأخذها بعيدا ومكان انتزاعها ملتويا»(١) .

على الخطيب إذن أن يتعامل مع المجاز بحذر ولا يتجاوز فيه القصد والاعتدال ، وألا يفعل مثل جورجياس إذ قال وهو يصف الأحداث : ««لا تزال طرية دامية» وكذلك «إنك زرعت هذه الأمور في الخزي والعار وتحصدها في الشقاء» . وهذه عبارات داخلة في باب الشاعرية . . . وجميع هذه العبارات غير صالحة للإقناع»(٢) .

٥-٢-٣)- المجاز في الأسلوب الخطابي:

ميز أرسطو بين الأسلوب الخطابي والأسلوب الشعري معليا من شأن الأول مشترطا فيه التوسط والاعتدال والقصد ، ومس هذا التمييز حتى الاستعارة والتشبيه ، فهذان المكونان البلاغيان يخضعان بدورهما لشرط التوسط والاعتدال في القول الخطابي ، والكلمات تكون جذابة إذا احتوت على مجاز شرط ألا تكون غريبة ، إذ يصعب حينئذ إدراكها من أول نظرة ، وشرط ألا تكون سطحية إذ في هذه الحالة لا تجذب السامع . فإذا كان الغموض والغرابة مستملحين في الشعر فإنهما يفسدان الخطابة ، لأن الكلام الغامض لا يقنع ، غير أن أرسطو وعلى الرغم من ذلك أعلى من قيمة الاستعارة واهتم بها كثيرا في المقالة الثالثة من كتاب «الخطابة» ، وقد حرص «وهو يتحدث عن الاستعارة الخطابية على تماسكها الخطابي وتميزها عن استعارات التراجيديا والكوميديا . الاستعارة الخطابية تقوم على أساسين هما الإفهام أو الوضوح المعرفي ، والمناسبة العاطفية ، ففي الخطابة ينبغي تجنب المشجي لأن ذلك مما يناسب التراجيديا ، كما ينبغي

---

(١) نفسه ص١٩٠ .

(٢) نفسه ص١٩٠ .

أن نتفادى المضحك لأن ذلك مما يناسب الكوميديا»[1] .

وقرب أرسطو المثل وهو حجة صناعية من الاستعارة فأدخل أغلب «الأمثلة» ضمن الاستعارة ، يقول : «والأمثلة السائرة هي كذلك استعارات ، وهي استعارة جنس لجنس»[2] ، كما قرب أيضا بين التشبيه والاستعارة فالتشبيه «هو استعارة لا تختلف عنه إلا في ضرب من التمثيل والترتيب المقصود ، ثم إن التشبيه أقل لذاذة منها لأنه يعرض له أن يكون طويلا جدا ، وفضلا عن ذلك فإنه لا يقتصر فيه على أن يقال : إن هذا الشيء هو ذاك»[3] .

إن الاستعارة والتشبيه الخطابيين يبعثان الحياة في الأشياء الجامدة ويخلقان كلاما فصيحا يصور ، فالألفاظ «ترسم وتصور الأشياء متى دلت على الأشياء الخارجة من الإمكان أو من القوة إلى الفعل ، وهي الأشياء في طريقها إلى الإنجاز»[4] ، وقد أشاد أرسطو بنوع من الاستعارة يقوم على التناسب أو الاستعارة التناسبية لأنها «تجعل الأمر ماثلا أمام الأعين»[5] ، ويتجاوز التشبيه والاستعارة الدور التزييني التحسيني لينهضا بوظيفة تعليمية معرفية ، وإن كان دور التشبيه أدنى من دور الاستعارة ، «وذلك يعود من جهة إلى كونه أطول وربما أثقل ، ويعود من الزاوية الأخرى إلى أن طرفي المقارنة يكونان حاضرين . وهذا يعني أن التسمية الاستعارية التي يرتاح لها العقل غير قائمة ، وهذا يحرم القارئ أو السامع قدرا من الفائدة التي كان بالإمكان أن يستنتجه من تلقاء نفسه»[6] .

---

(١) الاستعارة في محطات ص٨٨ .

(٢) الخطابة ترجمة قنيني ص٢١٦ .

(٣) نفسه ص٢٠٨ .

(٤) نفسه ص٢١٢ .

(٥) الخطابة ترجمة بدوي ص٢٢٢ .

(٦) الاستعارة في محطات ص٩١ .

تؤدي الاستعارة الخطابية إذن وظائف تأثيرية أهمها :

٥-٢-٣-١)-التوضيح:

جمع أرسطو بين الألفاظ السليمة المناسبة والاستعارة فكلتاهما توصلان المعنى بدقة ويسر وتؤديان الوظيفة التواصلية الإفهامية للخطابة ، فالكلمات «السليمة والمناسبة والاستعارات هي وحدها التي تستخدم في أسلوب النثر . . . لأن الجميع يستعملون الاستعارات في الأحاديث كما يستعملون الكلمات السليمة والمناسبة»[١] . علينا إذن أن نتجنب استعمال العام مثل «المشروب» حين يكون مقصودنا هو الخاص «الماء» ، وعلينا كذلك أن نختار من بين التسميات أشدها مناسبة . . . وكذلك الأمر في الاستعارة «فإن الشيء الواحد قد يغير تغيرات مختلفة فيتفاوت ذلك الشيء في الحسن والقبح بحسب تفاوت الأشياء التي وقع التغيير فيها أعني الأشباه»[٢] .

تؤدي الاستعارة الخطابية أو يفترض أن تؤدي وظيفة معرفية تعليمية وهذا ليس أمرا يسيرا فالإمكانيات المتاحة للخطيب أقل من تلك المتاحة للشاعر «لأن موارد النثر أقل من موارد الشعر»[٣] ، فإذا كان الشاعر الكوميدي ينزل بالاستعارة إلى حدود الابتذال المضحك في مجال واسع ، والشاعر التراجيدي يجنح بها إلى حدود الغرابة والغموض في مجال أوسع ، فإن الخطيب يمشي على خيط رفيع بينهما يجمع بين متعة الاستعارة ولذتها ووضوح المعنى وتحقق الفائدة . إن تحقيق الاستعارة الخطابية لهذه المعادلة الصعبة جعل أرسطو يقارنها بالمضمر «فالمضمر يكون جذابا إذا لم يكن سطحيا مبتذلا ، وإذا لم يكن مستغلقا مبهما ، لأنه في الحالتين لا يلقن جديدا وتغدو قيمته المعرفية صفرا ، فحينما يكون مستغلقا فإنه يسد في وجهنا أبواب احتمال التعلم ولذلك لا يعلم شيئا ،

---

(١) الخطابة ترجمة بدوي ١٩٧ .

(٢) الاستعارة ص٥٤٧ .

(٣) الخطابة ترجمة قنيني ص١٩٨ .

وحينما يكون مبتذلا فإنه لا يعلم إلا ما نعرفه ، إذن لا يعلم شيئا ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاستعارة»[١] .

٥-٢-٣-٢)- الدهشة:

إن وضوح الاستعارة الخطابية لا يعني ابتذالها ، فهي تحافظ على بعض الغرابة بالقدر الذي تثير فيه انتباه المتلقي وتجذبه ، فالأصل في الاستعارة أن تولد لدى المتلقي دهشة مقرونة بلذة اكتشاف ما لم يكن يتوقعه أو يتصوره ، إنه يقف أمامها وقوفه أمام الرجل الغريب ، يقول ابن سينا في هذا المعنى : «واعلم أن الرونق المستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب وما يتبع ذلك من الهيبة والاستعظام والروعة كما يستشعر الإنسان من مشاهدة الناس الغرباء ، فإنه يحتشمهم احتشاما لا يحتشم مثله المعارف»[٢] .

إن الاستعارة الخطابية تمنحنا المتعة وتجعلنا نتوقف على أشياء لم تكن معروفة لنا في السابق ، وهكذا تحقق الدهشة انفعالات نفسية لدى المتلقي تقوده شيئا فشيئا نحو القصد من الخطاب وهو الإقناع ، ولتحقق الاستعارة هذه الانفعالات تبنى على ما هو بعيد وغريب لأن الناس «تعجب بما هو بعيد وما يثير الإعجاب يسر ويمتع»[٣] .

ولا تتوقف جودة الاستعارة وحسنها ، حسب أرسطو ، عند المعنى بل تتعداه إلى اللفظ الحسن ، فمادة الاستعارة «ينبغي أن تكون جميلة الوقع في الأذن ، جميلة للفهم وللعين ولأي حس آخر»[٤] ، وبتضافر حسن المعنى والمبنى تتحقق المتعة ، والمتعة-في الخطابة- ليست «مطلوبة لذاتها بل إن لها غاية مدعمة للدور

---

(١) الاستعارة في محطات ص٩١ .

(٢) ابن سينا : الخطابة من كتاب الشفاء ، ص٢٠٣ .

(٣) الخطابة ترجمة بدوي ص١٩٦ .

(٤) الخطابة ترجمة بدوي ص٢٠٠ .

الحجاجي أو الخطابي ، بمعنى آخر لا تستقل هنا المتعة عن الفائدة»[1] .

٥-٢-٣-٣)- التجسيد:

الاستعارة الجيدة عند أرسطو هي تلك «القائمة على التناسب ، مثل ذلك ما قاله بيركليس عن الشباب الذين هلكوا أثناء الحرب : «إنهم اختفوا من الدولة كما لو كانت السنة قد فقدت ربيعها» . . وهذه استعارة تجعل الأمر ماثلا أمام الأعين . وكلماته «وهكذا أطلقت اليونان صرخة» هي أيضا إلى حد ما استعارة حية»[2] .
ويشرح أرسطو عبارة «أمام العيون» بقوله : «وعلينا الآن أن نشرح معنى 'أمام العيون' وماذا ينبغي أن نعمل لإحداث هذا التأثير ، وإنما أعني أن توضع الأشياء أمام العيون بواسطة الكلمات التي تدل على الحضور الفعال»[3] .

إن دور الاستعارة الخطابية الجيدة أن تجعل الأمر «ماثلا أمام العين» وأن تكون «حية» ، وليتحقق ذلك ينبغي أن تقوم الاستعارة على التناسب أي تشابه العلاقات لا المواد ، لأن ذلك «يشدد ويقوي إمكاناتها الإقناعية أو الحجاجية»[4] ، فالاستعارة متى كانت غريبة وغير مألوفة وحية استقبلها المتلقي بعجب ودهشة واستعظام . . . فالاستعارات الجيدة تطيب الكلام وتقدم المتعة مع الفائدة وتخفف من وطأة الأساليب الحجاجية العقلية . «وطبيعي جدا أن الأداة الوحيدة لنقل الأشياء من حال التجريد إلى المادية ، ومن حال الجمود إلى حال الحركة ، ومن حال غير الحي إلى الحي ، ومن حال غير المؤنسن إلى الإنسان محال بغير هذه الاستعارة ، والاستعارة التناسبية بوجه خاص»[5] .

---

(١) الاستعارة في محطات ص٩٧ .

(٢) الخطابة ترجمة بدوي ص٢٢٠/٢٢٢ .

(٣) الخطابة ترجمة بدوي ص٢٢٤ .

(٤) الاستعارة في محطات ص٩٢ .

(٥) نفسه ص٩٨ .

المبحث الثاني:
بلاغة الإقناع في الثقافة العربية.

I- الإقناع في بيان الجاحظ:

يروم هذا المبحث الوقوف على إسهامات الجاحظ في بلاغة الإقناع لاعتبارين أساسيين :أولهما إجماع الباحثين والنقاد العرب على الدور التأسيسي والريادي الذي اضطلع به الجاحظ في تشكل البلاغة العربية ، وثانيهما أن الجاحظ«رجل محاجة و مناظرة ومتكلم عارف بتصاريف الكلام ووجوه الاحتجاج»[(١)] .

فإذا كانت البلاغة العربية قد توزعها تياران بارزان : تيار الإمتاع المرتبط بسؤال الغرابة والانزياح والبديع ، وتيار الإقناع المرتبط بسؤال المناسبة المقامية التداولية ، فقد اعتبر الجاحظ مؤسس التيار الثاني وواضع خصائصه .

سنحاول إذن ، الكشف عن جوانب بلاغة الإقناع لدى الجاحظ من خلال مؤلفه «البيان والتبيين» فهو«نهاية اجتهادات الجاحظ البيانية»[(٢)] .

إن أهم أسس مؤلفات الجاحظ ومنطلقاتها هو الانتماء العقدي ، «فقد كان

---

(١) حمادي صمود : مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن أهم نظريات الحجاج ص ,٢١

(٢) محمد العمري : البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، افريقيا الشرق بيروت ،لبنان ١٩٩٩ ص ١٨٩ .

ويبرر العمري هذه الخلاصة بقوله : «نستند في ذلك إلى أن كتاب البيان والتبيين هو الصياغة التامة المقصودة للبيان ، باعتبار الكتاب تجميعا لآراء الجاحظ المتفرقة في سياقات أخرى ووضعها في سياق نظري منسجم هو سياق البيان . . . كما نستند إلى كون البيان جاء في وقت متأخر من حياة الجاحظ التأليفية إن لم يكن آخر مؤلفاته» البلاغة العربية ، الهامش ، ص١٨٩ .

منخرطا في نحلة (المعتزلة) تعتبر اللغة و البلاغة هما سلاح المتناظرين والمجادلين الذين يتوخون نصرة مذهبهم والإقناع به»[1] ، فكان لهذا البعد المذهبي الدور الكبير في ربطه للبلاغة بالوظيفة الإقناعية فتحدث منذ مطلع كتابه «عن فعل البيان وأثره ، ومساوئ العي وضرره ، فكشف مقصوده . . .ومرجعه الدور الإقناعي للكلام وما يتصل به من عناصر غير لغوية»[2] .

ولعل اهتمام الجاحظ في مشروعه البلاغي بالخطبة يدعم إقراره بالبعد الإقناعي للقول ، و بقدرته على التأثير في المتلقي ، فالقول الخطبي لديه يكون «للخصومة» و«الاحتجاج على أرباب النحل» و«محاجة الخصوم» و«مفاوضة الإخوان» و«الخطيب مطلوب منه الإفصاح بالحجة» و«البصر بها والمعرفة بمواضع الفرصة» . . .إشارات وغيرها نجدها في متنه[3] إثر حديثه عن الخطبة ، وهو «ما يدل دلالة واضحة على فهمه لآليات إنشائها والفضاءات التي تقع فيها و الوظائف التي تؤديها »[4] . **فكيف أبرز الجاحظ الوظيفة الإقناعية للبلاغة؟**

يعرف الجاحظ البيان بقوله : «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله ، كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر و الغاية التي يجري إليها القائل إنما هو الفهم والإفهام»[5] .

إن الحضور الإيجابي للسامع في هذا التعريف يكسب بلاغة الجاحظ بعدا تداوليا فالإفهام «ينطوي على استحضار الآخر من جهة واعتبار الوظيفة

---

(١) خطاب المناظرة ص٤٨ .

(٢) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص١٩٦ .

(٣) البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ج١ ، دار الجيل ، بيروت ، ص : ٨٨/٧/١٥/١٤/١٢/٨ .

(٤) مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ص٢١ .

(٥) البيان والتبيين ، ج١ ، ص٧٦ .

التواصلية للقول من جهة أخرى»[1] ، بهدف التقريب من الفهم وإظهار الخفي وحل المنعقد وكشف الكامن في الصدور . . . ، وهكذا يكون الخطاب المبين ، حسب الجاحظ ، هو الذي يسهل على المخاطب فهمه واستيعابه «فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[2] . فمفهوم البيان عند الجاحظ «مفهوم إجرائي ، أي أنه العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام»[3] .

ويرى محمد العمري أن البيان عند الجاحظ تتنازعه وظيفتان : الوظيفة الفهمية والوظيفة الإقناعية ، فالبيان ، عنده ، معرفة وإقناع[4] ، لقد حاول العمري البحث في «الجانب الذي لم يجد عناية الدارسين ، هذا البعد الذي يقف بين المنطق والشعر ، وهو فن الإقناع أو بلاغة الخطاب الإقناعي»[5] من خلال التأمل في عدد من نصوص الجاحظ[6] ، ليخلص من خلالها أن للبيان مؤهلات منها المنطق والعقول والدهاء والمكر والتمييز والسياسة ولباس التقوى . . . وله عوائق منها العي وضيق الصدر وتوقف اللسان واللثغ . . . وله صفات منها الإبلاغ والإبانة والإفصاح والإيضاح والإفهام والاحتجاج . . . وله مواضيع منها الدعوة إلى مقالة أو الدفاع عن نحلة أو إبلاغ رسالة . . . كما له أغراض منها استمالة القلوب وثني الأعناق وفهم العقول وتحريك النفوس . . . ، مما يكشف أن للبيان مستويين أو مفهومين متداخلين : المستوى المعرفي العام والمستوى الإقناعي التداولي الخاص ، وإن كان المفهوم العام زاحم المفهوم الخاص

---

(١) خطاب المناظرة ص٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ، ج١ ، ص٧٦ .

(٣) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ص١٩١ .

(٤) نفسه ، ص ١٩٤ .

(٥) نفسه ، ص١٩٦ .

(٦) البيان والتبيين ، ١/٧-١٢-١٤-١٥-٧٥-٩١ . . .

في المراحل اللاحقة من الكتاب[1] .

وقد تحكمت في إلحاح الجاحظ على وظيفة الإفهام ، بالإضافة إلى الاعتبار البلاغي ، شروط عامة ميزت الثقافة و المجتمع الإسلاميين في عصره ، ارتبط بعضها بالدين ، فمناط التكليف في الخطاب الديني يتوقف على إفهام المكلفين ، و ارتبط بعضها الآخر بطبيعة الفترة التاريخية حيث توسعت الإمبراطورية الإسلامية ، فاختلطت الثقافات وتعددت اللغات وظهرت الشعوبية والزندقة والإلحاد فكان الدفاع عن الإفهام دفاعا عن اللغة وحمايتها من اللحن ولهذا كان «الشيء المركزي الثابت في كتاب البيان والتبيين هو الفهم و الإفهام بالوسائل المختلفة »[2] .

وهكذا أصبحت البلاغة[3] وسيلة للتأثير في المستمعين واستمالتهم وإقناعهم بالرأي ، فبلاغة القول تكمن في قدرته على» تحويل حياد المتلقي أو معارضته إلى تجاوب»[4] ، باستعماله كل «ما تستمال به القلوب و تثنى به الأعناق»[5] . غير أن تشديد الجاحظ على شرط الإفهام لا يعني تقليله من القيمة الأدبية للخطاب ، فليس «كل من أفهمنا . . . قصده ومعناه بالكلام الملحون ، والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان»٤٨٨ ، فالبيان «إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء»[6] .

---

(١) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ، ص١٩٩-٢٠٠ .

(٢) نفسه ، ص ,١٩١

(٣) يرى محمد العمري أن الجاحظ «قايض» كلمة البيان بكلمة بلاغة ثم» قايض» بعد ذلك البلاغة بالخطابة .البلاغة العربية ص٢٠٠ .

(٤) خطاب المناظرة ص٥١ .

(٥) البيان والتبيين ، ج١ ، ص١٤ .

(٦) البيان والتبيين ، ج١ ، ص١١٦ .

(٧) نفسه ، ج١ ، ص١٦٢ .

ومن هنا جاءت عناية الجاحظ باللفظ و«تخيره» لأن فعالية «النص لا تتعلق بمعناه ومضمونه فقط بل تتعلق بشكله ومظهره أيضا ، أي أن الفعالية هي ما يولده اللفظ نفسه من متعة ولذة ، فاللفظ في الخطاب الإقناعي يؤدي بالضرورة وظيفة الإفهام ، ولكنه لن يكون لفظا بلاغيا مبينا إلا إذا كان يؤدي وظيفة الإمتاع»[١] ، وبذلك يجمع اللفظ بين الوظيفة التزيينية والوظيفة التداولية التأثيرية ، حيث يتصل بالأذهان ويؤثر في القلوب فيصبح وسيلة لتحقيق القصد من الخطاب ، فاللفظ «متى كان كريما في نفسه ، متخيرا من جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض»[٢] .

ويشترط الجاحظ في اللفظ الاعتدال والتوسط ليجمع بين النجاعة التواصلية والقيمة التزيينية ، «فالقصد في ذلك تجنب السوقي والوحشي ، ولا تجعل همك تهذيب الألفاظ ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني ، وفي الاقتصاد بلاغ ، وفي التوسط مجانبة للوعورة»[٣] ، وأهل البلاغة «قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا»[٤] .

ويشترط الجاحظ أيضا في اللفظ مشاكلته للمعنى ليحقق القصد والمنفعة ، يقول : «متى شاكل ، أبقاك الله ، ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمينا بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع وأجدر أن يمنع جانبه

---

(١) حسن الموذن : الخطاب الإقناعي ، ص١٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص٨ .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص٥٥ .

(٤) نفسه ، ج١ ، ص١٣٧ .

من تناول الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العائبين ، وألا تزال القلوب به معمورة والصدور مأمولة»[1] .

ويشترط الجاحظ لتحقيق الأغراض الإقناعية للبلاغة سلامة الخطيب من العي والحبسة وضيق الصدر ، «فالبيان بصر والعي عمى»[2] ، كما يشترط فيه القدرة على الإبلاغ والإفصاح بالحجة والبصر بها ، يقول ناقلا عن عمرو بن عبيد : «إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتحقيق المؤونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحبة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب»[3] .

البيان إذن -في تصور الجاحظ- هو الفهم والإفهام بالوسائل اللغوية وغير اللغوية فعلى «قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجح»[4] ، ووظيفته الأساسية الاستمالة والإقناع ، إلا أن الجاحظ ربط تحقق هذه الوظيفة بمراعاة المقام الخطابي يقول : «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما»[5] .

وقد فرق عند حديثه عن أقدار المستمعين بين الخاصة والعامة فالخطيب «لا يكلم سيد الأمَة بكلام الأمَة ، و لا الملوك بكلام السوقة»[6] ، لأن «الوحشي من

---

(1) نفسه ، ج٢ ، ص٨ .

(2) البيان والتبيين ، ج١ ، ص٧٧ .

(3) نفسه ، ج١ ، ص١١٤ .

(4) البيان والتبيين ، ج١ ، ص٧٥ .

(5) نفسه ،ج١ ، ص١٣٨/١٣٩ .

(6) نفسه ،ج١ ، ص٩٢ .

الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي»[1] . وعند حديثه عن أقدار الحالات عرض لمناسبة القول التي تختلف فتختلف باختلافها المعاني ، وإن كان المستمع واحدا وهو بذلك يعطي للمقام دورا حاسما في تحقيق الوظيفة الإقناعية للخطاب فالمعنى «ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب و إحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال»[2] .

لقد جعل أبو عثمان مراعاة المقام والحال أساسا للعلاقة بين الخطيب (المتكلم) والمستمع ، وشرطا لكل تواصل بياني ، فالخطيب مطالب بمراعاة قدر مخاطبيه ومنزلتهم ومواقفهم وظروفهم ، «فمدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[3] ، والقول ، ليحقق وظيفته الإقناعية ، يقتضي التوجيه بحسب الحاجات والمراتب الخاصة بالمخاطبين ، فيكتسي المقام بذلك «طابعا تداوليا يجعله يلف كل عملية القول ، فالمتكلم محكوم باعتبار مخاطبيه ، وباعتبار التلاؤم بين الغرض وصورة قوله ، واعتبار السياق الذي يرد فيه الخطاب»[4] . ولعل هذا ما جعل حمادي صمود يؤكد أن الجاحظ انتبه إلى «أن الفعل اللغوي . . . يقوم على ثلاثة عناصر رئيسة تمثل الحد الأدنى للبيان اللغوي ، وهي : المتكلم والسامع والكلام . . . فإن تحليلاته اللغوية ومقايسته البلاغية ترتكز على ما بين هذه العناصر من تلاحم وتفاعل»[5] ، وهذا ما جعله ، في نظر صمود دائما ، «أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدر أن الكلام ، وهو المظهر العملي لوجود اللغة ، ينجز

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص١٤٤ .

(٢) نفسه ، ج١ ، ص١٣٦ .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص٩٣ .

(٤) خطاب المناظرة ص٥٢ .

(٥) حمادي صمود : التفكير البلاغي عند العرب ص١٨٢ .

بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه ، بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحض ، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط»[1] .

لقد أقام الجاحظ مادته البلاغية على الربط بين المقام والمقال مما أدى إلى بروز مفهوم النسبية في تحديد بلاغة النص[2] ، فالقول «لا يقنع إذا لم يكن موجها ، أي مكيفا بحسب الحاجات الخاصة التي تقتضيها فئات المخاطبين ، فالوضعيات تختلف ، والمراتب تتباين ، والأفهام تتفاوت ، لذلك يتوجب على المتكلم أن يوائم بين طبقات القول وطبقات أحوال المستمعين لأن مدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقاتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[3] . ثم إن تركيز الجاحظ على الإفهام والتزامه بمراعاة المقام «يعكسان دفاعا واضحا من لدنه عن شفافية الخطاب وقوته المرجعية من جهة ، كما يترجمان حرصه على نجاعة الاستراتيجية التبليغية في القول لكي يخدم غاياته الإقناعية»[4] .

كما أبرز الجاحظ أيضا القيمة الحجاجية للشاهد إذ به يحصل التصديق والاستدلال ، فمدار «العلم على الشاهد والمثل»[5] ، ويرى الباحث حبيب أعراب[6] أن الجاحظ يستمد دور الشاهد والمثل في العلم من عادة العرب في هذا المجال ، وأنه كثيرا ما جعل الحجة والدليل والشاهد أشياء مترادفة إذ يقول : «وكان المقنع الكندي الشاعر ، واسمه محمد بن عمير ، كان الدهر مقنعا ،

---

(١) نفسه ص١٨٥ .

(٢) نفسه ص٢١٤ .

(٣) خطاب المناظرة ص٥٢/٥٣ .

(٤) نفسه ص٥٤ .

(٥) البيان والتبيين ، ج١ ، ص١٧١ .

(٦) الحجاج والاستدلال الحجاجي : عناصر استقصاء نظري . عالم الفكر العدد ١ المجلد ٣٠ يونيو/ سبتمبر ٢٠٠١ ص١٠٩ .

القناع سيما الرؤساء ، والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرى إلا مقنعا»[1] ، ويقول كذلك : «والدليل الواضح والشاهد القاطع قول النبي صلى الله عليه وسلم : نصرت بالصبا وأعطيت جوامع الكلم»[2] .

صفوة القول إن القارئ لأعمال الجاحظ بكثير من التمعن والتدبر ، لن يسعه إلا أن يتساءل مع شوقي ضيف : «أي عقل هذا الذي يكتب بتلك المقدرة على توليد الأفكار من جهة والإدلاء بكل ما يمكن من حجج وبراهين من جهة أخرى؟»[3] ، حتى انطبعت مجهوداته «بطابع نفعي واضح يمكن أن يعد ، بدون مبالغة ، أكمل محاولة في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى نفعية الخطاب»[4] .

وبوضع المشروع البياني للجاحظ في سياقه التاريخي نقتنع بأنه مثل «موقفا حضاريا هو محاولة إرساء مجتمع عقلاني تربط بين أفراده علاقات الإقناع بالمنطق أو الاستمالة بشتى صور الدلالة والتعبير الاجتماعي»[5] .

II- المشروع الحجاجي لابن وهب:

يعتبر كتاب» البرهان في وجوه البيان» لإسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب محاولة لاستلهام المعايير اليونانية في وضع قواعد البلاغة العربية[6] ، فقد نظم المساهمات البيانية التي سبقته في ترتيب منطقي دقيق .

---

(١) البيان والتبيين ،ج٣ ، ص١٠٣ .

(٢) نفسه ، ج٣ ، ص٢٩ .

(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي . دار المعارف ، ط٦ ، ١٩٧١ ، ص ١٧٦ .

(٤) التفكير البلاغي عند العرب ص٣٠٠/٣٠١ .

(٥) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص١٧٦ .

(٦) عباس ارحيلة : البحوث الإعجازية . . . ، ص٣١١ .

وقد أعلن ابن وهب ، وهو الفقيه الشيعي ، انتقاده لكتاب الجاحظ « البيان والتبيين» منذ مقدمة كتابه ، يقول : «فكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه»[1] ، إلا أن البيان عنده استند على الإقناع والاستدلال ، «ومن ثم ارتبطت بلاغة ابن وهب شأنها في ذلك شأن بلاغة الجاحظ بالاتجاه الخطابي»[2] ، ولعل هذا ما جعل الدكتور محمد العمري يصف قراءة ابن وهب لتصور الجاحظ بكونها «أكمل قراءة بالمخالفة والتكميل»[3] .

اعتمد ابن وهب الترتيب المنطقي في صوغ أقسام البيان فجعله «على أربعة أوجه فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها ، ومنه الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللب ، ومنه البيان باللسان ، ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغ من بعد وغاب»[4] ، فسمى الأول» بيان الاعتبار» أي استنباط المعرفة ، وسمى الثاني «بيان الاعتقاد «أي معالجتها وسمى الثالث والرابع» بيان العبارة «و«بيان الكتاب» أي تداولها[5] .

وقد ارتبطت البلاغة ، لدى ابن وهب ، بالاتجاه الخطابي واستند بيانه على الاستدلال والإقناع من خلال دفاعه عن البيان المعرفي ، ومن خلال إشادته بالعقل حيث خصص جوهر مقدمة كتابه للحديث عن العقل والتنويه به ، ليربطه بعد ذلك بالبيان ، «فالبيان ناجم عن إعمال الإنسان النظر العقلي في الأشياء ، والأشياء دليل العقل»[6] ، فيصبح عمل ابن وهب من هذا المنظور

---

(١) ابن وهب : البرهان في وجوه البيان ، تقديم د : حفني محمد شرف وتحقيقه ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص٤٩ .

(٢) خطاب المناظرة ، ص٥٦ .

(٣) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص٢١١ .

(٤) البرهان في وجوه البيان ، ص٥٦ .

(٥) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص١٥ .

(٦) خطاب المناظرة ، ص٥٧ .

«أقرب إلى نظرية معرفية»[1] ، فالبيان ينتج بالاستنباط المعرفي عن طريق الاعتبار والاعتقاد ويتداول بالعبارة والكتاب .

ووعيا من ابن وهب بالبعد الحجاجي للقياس أولاه أهمية كبيرة في مشروعه ، فعرفه بقوله : «وليس يجب القياس إلا عن قول يتقدم فيكون القياس نتيجته . . . وربما كان ذلك في اللسان العربي مقدمة أو مقدمتين أو أكثر على قدر ما يتجه إلى إفهام المخاطب ، فأما أصحاب المنطق فيقولون أنه لا يجب قياس إلا عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلق . . . وإنما يكتفى في لسان العرب بمقدمة واحدة على التوسيع وعلم المخاطب»[2] .

يقف ابن وهب من خلال هذا النص على الانتقال من المقدمات إلى النتائج ، فبهذا الانتقال من المقدمات إلى النتائج ، وبهذه الحركة الحجاجية يكون الإقناع ، ويجعل ابن وهب النتائج ثلاث : «إحداها ما صدر عن قول مسلم في العقل لا خلاف فيه ، فتكون النتيجة عنه برهانا . . . كقولنا : إذا كان الزوج ما ركب من عددين متساويين فالأربعة زوج»[3] ، والثانية «ما صدر عن قول مشهور إلا أنه مختلف فيه ، فتكون النتيجة عنه إقناعا . . . كقولنا : إذا كان حق الباري ، عز وجل ، واجبا علينا لأنه علة لوجودنا فقد وجب حق الوالد أيضا»[4] ، والثالثة «ما صدر عن قول كاذب وضع للمغالطة . . . كقولنا : إن اللصوص يخرجون بالليل للسرقة ففلان سارق لأنه خرج بالليل وهذا باطل»[5] . وهو بذلك يميز ، كما فعل أرسطو ، بين البرهان الذي تكون مقدماته ضرورية وميدانه المنطق الصوري ، والحجاج وتكون مقدماته مشهورة وميدانه

---

(١) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص٢١٦ .

(٢) البرهان في وجوه البيان ، ص٦٨ .

(٣) نفسه .

(٤) البرهان ص٦٨/٦٩ .

(٥) نفسه ص٦٨ .

الجدل والخطابة ، والمغالطة التي تكون مقدماتها كاذبة وميدانها السفسطة .

كما جعل القياس يقع في الباطن لا في الظاهر «فالظاهر مستغن بظهوره عن الاستدلال . . . والباطن هو المحتاج أن يستدل عليه بضروب الاستدلال»(١) ، ولما كان القول يتيح التخاطب بين الناس ويسمح بالتفاعل بينهم ، إذ أن اعتقادات الإنسان لا تتعداه إلى غيره إلا بالقول ، فقد أبرز ابن وهب فضيلته «لأنك لا تعرف الرجل حق معرفته إلا إذا خاطبته وسمعت منطقه»(٢) ، ثم إن القول لا ينتعش إلا بالحوار» ومعلوم أن بلاغة الإقناع لا تقوم إلا في علاقة بالآخر ، ولا تشتغل إلا حيث يشتغل الحوار وحين تشتغل العلاقات التخاطبية بين الذوات المتكلمة»(٣) ، ومن هنا كان تركيز ابن وهب على الأجناس الخطابية ذات الوظيفة الإقناعية ، فاهتم بالجدل وجعله مجادلة يقول : «وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد بهما إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين ، وتستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات ، وفي التسؤل والاعتذارات»(٤) ، ويضيف «وحد الجدل أن تبنى مقدماته بما يوافق الخصم عليه ، وإن لم يكن نهاية الظهور للعقل»(٥) ، لأن قصد المجادل إلزام خصمه خلاف الباحث الذي «يبني مقدماته بما هو أظهر الأشياء في نفسه وأثبتها لعقله لأنه يطلب البرهان»(٦) .

ولما كان الجدل يقع في علة أو علل الادعاء ، فقد أشار ابن وهب إلى أن طلبها «يكون على وجهين : إما أن تطلبها وأنت لا تعلمها لتعلمها ، وإما أن

---

(١) نفسه ص٦٥ .

(٢) نفسه ص٥٨ .

(٣) خطاب المناظرة ص٥٨ .

(٤) البرهان في وجوه البيان ص١٧٦ .

(٥) نفسه ص١٧٩ .

(٦) نفسه .

تطلبها وأنت تعلمها ليقر لك بها ، وليس لك أن تجادل أحدا في حق يدعيه إلا بعد مساءلته عن العلة فيما ادعاه فيه»[١] . وقد جعل ابن وهب العلة نوعين : قريبة وبعيدة ، «فالقريبة : ما كان المعلول تاليها ، والبعيدة ما كان بينه وبينها عسرة ، وذلك كالولد الذي علته القريبة النكاح ، وعلته البعيدة والداه»[٢] .

وحرص ابن وهب على ضرورة مراعاة المقام إذ على الخطيب أو المترسل : «أن يكون عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له ، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة ، فيقصر عن بلوغ الإرادة ، والإطالة في موضع الإيجاز فيتجاوز في مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة ، ولا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبته العامة ، ولا كلام الملوك مع السوقة ، بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم ويزنهم بوزنهم»[٣] ، وهو بذلك يؤكد كلام الجاحظ .

ويتعلق البيان عند ابن وهب بما يدخل في باب الظن والاحتمال والاستناد على الرأي والاختلاف ، فهو يبني معرفة عن «طريق التصديق لا على اليقين ، والحجة على معنى الإقناع لا البرهان»[٤] ، وهو بذلك ينسجم مع التصور الذي غلب على بلاغه الإقناع منذ أرسطو وحتى اليوم ، فالظن «إذا قويت شواهده وعضده من الرأي ما يوجبه فإنما يجب العمل عليه»[٥] ، وهو وإن اعتبر الظن سبيلا خطابيا معرفيا ، لا يغالي في هذا الاعتبار إلى درجة الوقوع في مغالطة السوفسطائيين ، بل يحرص على كشف المغالطات بتمحيص المقدمات وتصحيحها ، «فما أتى هذا الصنف الثاني الذي وقع الاشتباه فيه ، وادعى كل قوم إصابة الحق فيه ، فإن كان مما أدى من جهة القياس احتفظنا فيه بتصحيح

---

(١) البرهان في وجوه البيان ص١٨٠ .

(٢) نفسه ص١٨١ .

(٣) البرهان في وجوه البيان ص١٥٣ .

(٤) نفسه ص٨٧ .

(٥) نفسه .

المقدمات التي أنتجته وحراستها من المغالطة »[1] .

إن الطابع الإقناعي لا يكاد يفارق مشروع ابن وهب على امتداد كتابه »البرهان» ، فالحجة هي الوسيلة المطمئنة لتحقيق المعرفة ، فلا غرو «أن يكون لفظ (الحجة) ومشتقاته الأكثر تواترا في الجهاز المفاهيمي الذي توسله بما يصح معه أن يسمى بيانه بيان الحجة»[2] .

III- عبد القاهر الجرجاني: الأبعاد الحجاجية للنظم والاستعارة والتمثيل:

١)- حجاجية النظم:

تعد ثنائية اللفظ والمعنى من الثنائيات التي شغلت الدرس النقدي والبلاغي كثيرا ، فحاول النقاد والبلاغيون ، منذ قال الجاحظ : «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك»[3] ، الإجابة عن أسئلة من قبيل : هل جاذبية الكلمات وجمال العبارات كامنة في اللفظ أم في المعنى؟ فإن كانت في اللفظ هل في اشتقاقه أم في مخارجه أم في مناسبة هذا لذاك؟ ثم هل ثمة شيء يدعى لفظا بلا معنى؟ وما هو اللفظ إذا لم يكن ذا معنى؟ أم أنهما وحدة متكاملة يصعب الفصل بينهما فهما روح وجسم لا يحيا أحدهما بدون الآخر؟ . . . وبتعدد الأسئلة تعددت الإجابات : فمن منتصر للفظ ، ومن منتصر للمعنى ، ومن موفق بينهما . . . حتى القرن الهجري الخامس إذ سيقدم عبد القاهر الجرجاني «نظريته في النظم» والتي احتوت بشكل كبير

---

(١) نفسه ص٨٩ .

(٢) خطاب المناظرة ص٦٠ .

(٣) البيان والتبيين ، ج١ ، ص

هذا النقاش النقدي والبلاغي حول اللفظ والمعنى ، فماذا يقصد الجرجاني بالنظم؟ وما أبعاده الحجاجية؟

لقد عدل عبد القاهر الجرجاني مادة «الأسرار» في «الدلائل» وكملها «وربطها بمقتضيات النظم النحوي وجعلها تابعة له ، فلم تعد القمة موجودة في اتجاه الغرابة بل في اتجاه مناسبة الكلام للمقاصد»[1] ، فقرر أن لا معنى لعبارات البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة سوى «وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة . . ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به ، وأكشف عنه وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية»[2] .

وهكذا فلا قيمة لأي لفظ متجرد من مهمته داخل السياق إلا في كونه لفظا قاموسيا ، كما أن المعاني تتوه في المخيلة ما لم تعتصم باللفظ الدال عليه المحصن لدلالتها ، «أما التركيب البياني للألفاظ . . . فذلك ما يربط العلاقة بين الاسم والفعل والحرف على نحو مقصود يؤدي إلى دلالة ، ولكنه لا يكفي في توفير الجمال والمتعة الفنية إلا إذا احتيط له بضرب من الانتقاء في سبك عملية الربط بين أركان الكلام»[3] ، وهذا هو أساس نظرية النظم ، يقول الجرجاني : «وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة ، إلا ويعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ، وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة ، وفي خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، والقلق

---

(1) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ص٣٥٣ .

(2) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ط٣ ، ١٤١٢/١٩٩٢ ص٤٣ .

(3) جعفر الكتاني : من قضايا النقد الأدبي القديم ، المحاضرات الجامعية ، الكتاب الأول ، ط١ مطبعة فضالة ، المحمدية ، ٢٠٠٢ ، ص٦٨ .

والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها؟»[1] ، ومثل عبد القاهر لذلك بلفظة «الأخدع» التي أوردها البحتري فحسنت وخفت[2] وأوردها أبو تمام فثقلت واستكرهت[3] ، ثم علق على ذلك بقوله : «فلو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها ، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلف بها الحال ، ولكانت إما تحسن أبدا أو لا تحسن أبدا»[4] . وبهذا المعنى يصبح النص «في الواقع هو تأليف الألفاظ ، والأولوية في الحقيقة لا تعود إلى اللفظ بل إلى التأليف والتركيب ، وبعبارة أخرى نقول إن النص هو بنية تركيبية تنظيمية كبرى ذات وظائف أدبية وتداولية ، والجملة ، لا اللفظ ، هي البنية التركيبية التنظيمية السفلى التي تؤلف البنية الكبرى أي النص»[5] .

وقد جعل الجرجاني تعريف النظم مقترنا بالنحو ، فالنظم ليس «إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها»[6] ، وهكذا لفتت نظرية النظم عند

---

(١) دلائل الإعجاز ص٤٤/٤٥ .

(٢) في قول البحتري :

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي .

ديوان البحتري ١٢٤١/٢

(٣) في قول أبي تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك ، فقد أضججت هذا الأنام من خرقك .

ديوان أبي تمام ٤٠٥/٢ .

(٤) دلائل الإعجاز ص٤٨/٤٩ .

(٥) الخطاب الإقناعي ص١٧٢ .

(٦) دلائل الإعجاز ، ص١١٧ .

الجرجاني «الانتباه إلى نحو النص بمعنى منطقه اللغوي الداخلي الذي من دونه لا يمكن للخطاب أن يؤدي وظائفه الحجاجية الإقناعية»[١] ، فكشفت بذلك «عن الطابع الاستدلالي للأساليب البيانية البلاغية (وأقامت) مطابقة شبه تامة بين نظام الخطاب ونظام العقل»[٢] .

لقد أرجع عبد القاهر الأثر الانفعالي والجمالي الذي يثيره النص في نفس المتلقي «إلى توخي المعاني النحوية وإلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيها والتي لا نهاية لها»[٣] . وهو أثر «يتفجر أولا في النفس . . . ليفيض على الناس نظما يكون على قدر تسلسل نبعه في نفس المبدع مفضيا بالدهشة واللذة في نفس المتلقي»[٤] ، فيؤدي النص وظيفة تأثيرية انفعالية وحجاجية ، ويغدو للتركيب بالإضافة إلى أبعاده الفنية أبعاد عقلية وتداولية وتأثيرية[٥] ، فهو مبدأ عقلي وفكري إذ «ليس لك حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك ، وتعمل رويتك ، وتراجع عقلك ، وتستنجد في الجملة فهمك»[٦] ، وهو مبدأ تداولي وظيفي «يفرض الأخذ بعين الاعتبار معنى التركيب وموقعه داخل النص والغرض الذي من أجله وضع»[٧] ، وهو مبدأ نفسي تأثيري لأن التراكيب «إذا رأيتها راقتك وكثرت عندك ، ووجدت لها اهتزازا في نفسك ، فعد فانظر في السبب واستقص في النظر ، فإنك تعلم

---

(١) الخطاب الإقناعي ص١٩١ .

(٢) محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي : نقد العقل العربي ١/ط٤/ص٧٧ .

(٣) عبد الله بن أحمد الفيفي : الإثارة-البنية-الأثر قراءة في «دلائل الإعجاز» في ضوء النقد الحديث ، ص٢٣ .

(٤) نفسه ص٢٥ .

(٥) الخطاب الإقناعي ص٢٠٠/٢٠١ .

(٦) الدلائل ص١٠٤ .

(٧) الخطاب الإقناعي ص٢٠٠ .

ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر ، وعرف ونكر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر»[1] .

وقد رهن عبد القاهر نجاعة الخطاب «بملاءمة صورته أو صوره التركيبية للغرض الذي من أجله ثم إنتاج الخطاب ، ومراعاة المقام تعني أن الدلالة على المقاصد والأغراض تقتضي استعمال ما يلائمها من أشكال التركيب وصوره»[2] ، فمراعاة الغرض والقصد والمقام تقتضي الربط بين التركيبي والدلالي والتداولي إذ «لا يكون ترتيب شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة . . . وإن كان كذلك فينبغي أن ينظر إلى الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل من الصورة والصنعة»[3] .

وإجمالا إن التركيب البليغ عند الجرجاني «هو الذي يستطيع أن يوازن بين مختلف وظائفه الدلالية والشعرية والتداولية ، وأن يخلق بينها ما يكفي من الانذماج والتفاعل اللذين يمنحان تركيب النص شكلا خاصا واشتغالا متميزا»[4] ، ومن ثم حاول «التصور التداولي المقصدي في الدلائل . . استيعاب المادة الانزياحية وتهذيبها بجعلها مشروطة بالنظم وتابعة له»[5] .

٢)- حجاجية الاستعارة والتمثيل:

تميز الإنتاج البلاغي للجرجاني بخاصيتين متعارضتين[6] : أولاهما أنه إنتاج جدالي اعترض فيه على مقولات بيانية مشهورة لأسلافه من نقاد

---

(١) الدلائل ص١١٩/١٢٠ .

(٢) الخطاب الإقناعي ص٢٩٤ .

(٣) دلائل الإعجاز ص٣٣٧ .

(٤) الخطاب الإقناعي ص٢٠١ .

(٥) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ص٣٥٣/٣٥٤ .

(٦) اللسان والميزان ، ص٣٠٤ .

البلاغة ، «وخير دليل على ذلك كثرة دوران العبارات الجدلية على لسانه مثل : 'إن قلتم . . . قلنا' 'فإن قيل . . . قيل' 'ما هو إلا كذا وكذا' ، و'كيف لا يكون كذلك مع أنه كذا وكذا'»[١] . والثانية أنه إنتاج تأسيسي أنشأ مقولات وأدوات في النقد البلاغي «لم يسبق إليها ، واستحق بذلك أن يعتبر مؤسس علم البلاغة العربي»[٢] .

ويرى طه عبد الرحمان أن أهم معالم هذا الإنتاج البلاغي المتميز يكمن في قول عبد القاهر الجرجاني بمفهوم «الادعاء»[٣] ، ويشير إلى أن الدراسات التي تناولت إنتاج عبد القاهر على كثرتها اكتفى أصحابها «بالتلويح بهذا المفهوم تلويحا . . . حتى أن بعضهم لم يعقل منه أكثر من معنى الزعم»[٤] ، فحاول أن يبين المقتضيات والمبادئ الإجرائية التي يبنى عليها مفهوم الادعاء ، فعددها في ثلاثة مبادئ : مبدأ ترجيح المطابقة ومبدأ ترجيح المعنى ومبدأ ترجيح النظم ، ولكل مبدأ من هذه المبادئ مقتضى يصير إليه القول الاستعاري ، فالمقتضى المطابقي للادعاء «أن القول الاستعاري يحتمل تخريجه على المعنى الظاهر ، فضلا عن احتماله الدلالة على المعنى المجازي»[٥] ، والمقتضى المعنوي للادعاء «هو أن القول الاستعاري يستند إلى بنية استدلالية»[٦] ، أما المقتضى النظمي للادعاء فهو «أن القول الاستعاري يصير تركيبا خبريا أصليا لا ينحصر في الربط بين مخبر عنه ومخبر به ، بل يضيف عنصرا ثالثا هو ذات المخبر ، وبزيادة هذا العنصر ، يكون عبد القاهر قد نقل القول الاستعاري من مرتبة الدلالة المجردة إلى

---

(١) اللسان والميزان ص٣٠٤ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

(٥) اللسان والميزان ص٣٠٥ .

(٦) نفسه ص٣٠٦ .

مرتبة التداول التي تتوخى مقتضيات مقام الكلام»[1] ، ويترتب عن مبدأ ترجيح المطابقة «أن المستعير يبلغ بالتشابه بين المستعار منه والمستعار له درجة ينتفي معها الاختلاف والتفاوت بينهما»[2] ، ويترتب على مبدأ ترجيح المعنى «أن التغيير الذي تحدثه الاستعارة في اللفظ لا تعلق له بتأليف حروفه وصور مخارجها وإنما تعلقه أساسا بالمعنى . . . فمدار فهم الاستعارة ليس على المعنى المأخوذ مباشرة من اللفظ ، وإنما على معنى ثان يتولد في النفس بطريق هذا المعنى المباشر الأصلي»[2] ، فيصبح المعنى الأول «حلية المعنى الثاني الذي هو الغرض ، وفي هذا التحليل تصحيح للمفهوم المدرسي الذي يجعل المعنى الأول حقيقة والمعنى الثاني مجازا ، فالواقع أن الحقيقة هي المعنى الثاني الذي تجوز فيه فعبر عنه بالمعنى الأول : العبارة أو المادة اللسانية»[4] ، ويسمي عبد القاهر المعنى الثاني : «معنى المعنى» يقول : «فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول : «المعنى» ، و«معنى المعنى» ، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك إلى معنى آخر كالذي فسرت لك»[5] ، ويترتب عن مبدأ ترجيح النظم «أن الكلام متعلق ومترتب بعضه على بعض بوجه الخصوص ، ولا يستقيم إحكام هذا التعلق وضبط هذا الترتيب إلا بتوخي أمرين ، أولهما : مقتضيات العقل . . . والثاني قوانين النحو»[6] ، ففي الاستعارة «ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته»[7] .

---

(١) اللسان والميزان ص٣٠٦ .

(٢) نفسه ص٣٠٥ .

(٣) نفسه ص٣٠٦ .

(٤) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ص٣٧٠ .

(٥) دلائل الإعجاز ص٢٦٣ .

(٦) دلائل الإعجاز ص٣٠٦ .

(٧) نفسه ص٧٨/٧٩ .

والنتيجة أن القول الاستعاري «تجتمع له الأوصاف الثلاثة : أنه تركيب خبري تداولي وأنه قابل للأخذ على جهة الحقيقة وأنه مشتمل على بنية تدليلية ، وكل قول هذه أوصافه يعد في سياق الجدل الذي نهجه الجرجاني بمنزلة 'ادعوى' كما يعد صاحبه 'مدعيا' ويعد عمله 'ادعاء'»(١) .

ويعتقد طه عبد الرحمان أن عبد القاهر تتبع مقتضيات الادعاء بالتدقيق والتحليل والتنظير «فصارت الاستعارة عنده إسنادا عقليا ، وبين أن كل إسناد عقلي يحتاج إلى أن يصدق أو يكذب»(٢) ، كما أنه ألح «على أن المستعير يثبت اسم المستعار منه للمستعار له على وجه الحقيقة وذلك بإدخاله في جنسه»(٣) ، ولم يغفل عبد القاهر أيضا مفهوم «التدليل» إذ توسع في الحديث عن تدليل الدعوى من جهتين : «ادعاء ثبوت الصفة المشتركة للمستعار له وادعاء دخول المستعار له في جنس المستعار منه»(٤) .

ويرى طه عبد الرحمان كذلك أن عبد القاهر اهتم بمفهوم آخر وإن كان لم يصرح به وهو مفهوم «الاعتراض» بل «يكاد يصرح بما يضمر من أن الادعاء والاعتراض يجتمعان في القول الاستعاري اجتماعا ، وكان على وشك أن يسقط بذلك أقوى المبادئ رسوخا في النفوس وأمكنها سلطانا على العقول وهو مبدأ عدم التناقض»(٥) .

وقد لاحظ السكاكي التعارض بين دخول المستعار له في جنس المستعار منه وبين القرينة المانعة من إرادة هذا الدخول ، غير أنه «أبى إلا أن يعمل على رفع هذا التناقض اعتقادا منه أنه يصون بذلك كلام إمامه عن اللغو المزعوم ،

---

(١) نفسه ص٣٠٠ .

(٢) دلائل الإعجاز ص٣٠٧ .

(٣) نفسه ص٣٠٧ .

(٤) دلائل الإعجاز ص٣٠٧ .

(٥) اللسان والميزان ص٣٠٩ .

فجاء بطريق في التوفيق بين ادعاء المجانسة والاعتراض عليها»[١] . ويرفض طه عبد الرحمان هذا الطرح التوفيقي لدى السكاكي لأنه يسقط الاستعارة في الابتذال ، والصواب عنده أن عبد القاهر لاحظ الخاصية التعارضية للاستعارة مدللا على ذلك بترديده «للاستعارة بين «التحقيق «و»التخييل» كما لو كانت الجملة الاستعارية تجمع بين عالمين : «عالم واقعي» و«عالم ممكن» ، أما العالم الممكن فيكون فيه المستعار له هو المستعار منه بعينه ، وأما العالم الواقعي فيكون فيه مفارقا له وإن اشترك معه في بعض الصفات»[٢] ، وقد حاول طه عبد الرحمان التصريح بما لمح إليه عبد القاهر ، والتفصيل في ما أجمله ، مكملا بذلك مشروعه الاستعاري ، بطرحه لما أسماه «المقاربة التعارضية للاستعارة» ، والتي انطلق فيها من ثلاث فرضيات :[٣]

* القول الاستعاري قول حواري فهو يتكون من مستويين ، مستوى المعنى الحقيقي ومستوى المعنى المجازي ، «وبما أن المعنى الحقيقي «ظاهر غير مراد» أو قل «ظاهر مؤول» ، والمعنى المجازي «مضمر مراد» أو قل «مضمر مبلغ» ، جاز أن نميز في المقام الحقيقي بين «حال الإظهار» و «حال التأويل» ، وفي المقام المجازي بين «حال الإضمار» و«حال التبليغ»»[٤] . ليترتب على ذلك اشتراك أربع ذوات خطابية في بناء القول الاستعاري : «الذات المظهرة» و«الذات المؤولة» و«الذات المضمرة» و«الذات المبلغة» ، «ويتخذ المتكلم الواحد كل هذه الذوات مظاهر لوجوده في القول الاستعاري ، يتقلب بينها ، قائما بكل أدوارها الخطابية في آن واحد»[٥] .

---

(١) نفسه ص٣٠٨ .

(٢) نفسه ص٣٠٨ .

(٣) نفسه ص ص٣١٠/٣١٣ .

(٤) اللسان والميزان ص٣١٠ .

(٥) اللسان والميزان ص٣١١ .

* القول الاستعاري قول حجاجي ، وحجاجيته حسب طه عبد الرحمان من النوع التفاعلي الذي يسميه بالتحاج ، ويقصد به «مرتبة ثالثة من الاستدلال بعد «البرهان» و«الحجاج» ، مرتبة تتميز بكونها تأخذ بمبادئ تجنح إلى التناقض»[1] . وينتج هذا التحاج عن التداخل بين آليتي «الادعاء» و«الاعتراض» المميزتين للحجاج ، إذ يغدو المتكلم في القول الاستعاري ذاتا مدعية لوجود المعنى الحقيقي للجملة ، وذاتا معترضة على وجود هذا المعنى في الوقت ذاته .

* القول الاستعاري قول عملي إذ تلازم صفته العملية ظاهره البياني والتخييلي ، «ويظهر هذا التوجه العملي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه ، سواء أصرح به أم لم يصرح به ، وغالبا ما يقترن هذا الطرف فيها ، حاليا ومقاميا ، بنسق من القيم العليا ، إذ ينزل منزلة الشاهد الأمثل والدليل الأفضل ، فتكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع بها والالتزام بقيمها ، فالمستعير يقصد أن يغير المقاييس التي يعتمدها المستمع في تقويم الواقع والسلوك ، وأن يتعرف المستمع على القصد منه ، وعلى معنى كلامه وما يلزم عنه ، وأن يكون هذا التعرف سبيلا لقبول خطابه ولإقباله على توجيهه»[2] .

وقد خلص طه عبد الرحمان إلى أن عبد القاهر أفاد من بعض أساليب الحجاج ومن الجهاز المفاهيمي للمناظرة «ليجعل من مفهوم «الادعاء» أداته الإجرائية الأساسية في وصف آليات الاستعارة»[3] ، كما أكد أنه «ما لم نتبين هذه البنية الحجاجية للادعاء الاستعاري عند الجرجاني ، ولم نقف على

(١) نفسه الهامش ص٣١٠ .

(٢) اللسان والميزان ص٣١٢/٣١٣ .

(٣) نفسه ص٣٠٩ .

اشـتـغـالهـا في خطابه ، فـلا يبـعـد أن تسـتـغلق علينا أحكامـه ونتـائجـه استغلاقا»[1] .

لكن هل تقف الاسـتـعـارة عند عـبـد القـاهر عند هذه الحـدود العـقليـة و«المنطقيـة»؟ بالتـأكـيـد لا ، فهو وإن كـان «يبـدو أكـثـر عـقـلانيـة في معـالجته للاستعارة ، فإنه في الواقع يقدم تصورا بلاغيا لا يفهم هذه المعالجة إلا بالجمع بين العقلي والنفسي»[2] ، والاستعارة المفيدة عند الجرجاني «أمد ميدانا ، وأشد افتـتـانا ، وأكـثـر جريانا ، وأعـجب حسنا وإحسـانا ، وأوسع سعـة وأبعـد غـورا ، وأذهب نجدا في الصناعة وغورا من أن تجمع شعبـهـا وشعـوبها ، وتحصر فنونها وضـروبها ، نعم وأسـحـر سـحـرا ، وأمـلأ بكل مـا يملأ صـدرا ويمتع عـقـلا ، ويؤنس نفسا ويؤخر آنسا»[3] ، وهذا كلام فيه أوصاف متعددة للقول الاستعاري ، منه «ما يحيل على الشعري والفني ، وما يحيل على الفكري والعقلي ، وما يحيل على النفسي الانفعالي ، وبمعنى آخر يبدو أن الاستعارة المفيدة عند عبد القاهر هي هذه التي تنجح في الجـمع بطرقـهـا الخـاصـة بين قطبين أسـاسين في كل إقناع : العقل والنفس»[4] ، بل إن التخييل عموما «عملية إيهام موجهة تهدف إلى إثارة المتلقي إثارة مقصودة سلفا»[5] ، كما أن فاعلية التخييل ارتبطت أساسا بالتحسين والتـقـبيح وهي بذلك «ترتبط بغـاية مـتـصلة بالسلوك الإنساني من حيث تعديله أو توجيهه أو تحويله من النقيض إلى النقيض»[6] .

---

(١) نفسه .

(٢) حسن المؤذن : حجاجية المجاز والاستعارة ، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته ، ج٣ ، ص١٦٦ .

(٣) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، تحقيق هـ . ريتر ، دار المسيرة ، بيروت لبنان ، ط٣ ، ١٩٨٣ ، ص٤٠ .

(٤) الخطاب الإقناعي ص٢٣٤ .

(٥) جابر عصفور : مفهوم الشعر : دراسة في التراث النقدي . . ص١٦١ .

(٦) نفسه ص١٦٢ .

ويقودنا الحديث عن التخييل إلى عناية عبد القاهر بالتمثيل وبفاعليته العاطفية والعقلية ، إذ جعل له تأثيرات متميزة في كل غرض من أغراض الشعر «فإن كان مدحا كان أبهى ، وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وإن كان احتجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . .»[1] ، ويرى محمد العمري أن هذه النعوت مرجعها «إلى أمرين متكاملين : التأثير العاطفي والاحتجاج العقلي»[2] ، ويفسر الجرجاني هذه التأثيرات بلذة المعرفة ولطف المفارقة[3] .

وتتحقق لذة المعرفة لأن «أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم»[4] ، مما يكسب التمثيل وظيفة خطابية إقناعية خالصة[5] ، فبتأمل الأمثلة التي شغلت الجرجاني في حديثه عن التمثيل «ندرك هذه الازدواجية بين العقل والحس ، بين الإقناع والتأثير . .»[6] . أما لطف المفارقة ولذتها فتتحقق لأن «التصور الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله . . بابا من الظرف واللطف»[7] ، فإذا «استقرأت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب»[8] ، وقد أبرز العمري أن إيغال عبد القاهر في فاعلية المفارقات قد يجعلنا «نحس وكأنه يتقص القول بأسبقية المعرفة

---

(١) أسرار البلاغة ص١٠١/١٠٢ .

(٢) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ص٣٩٣ .

(٣) نفسه ص٣٩٤ .

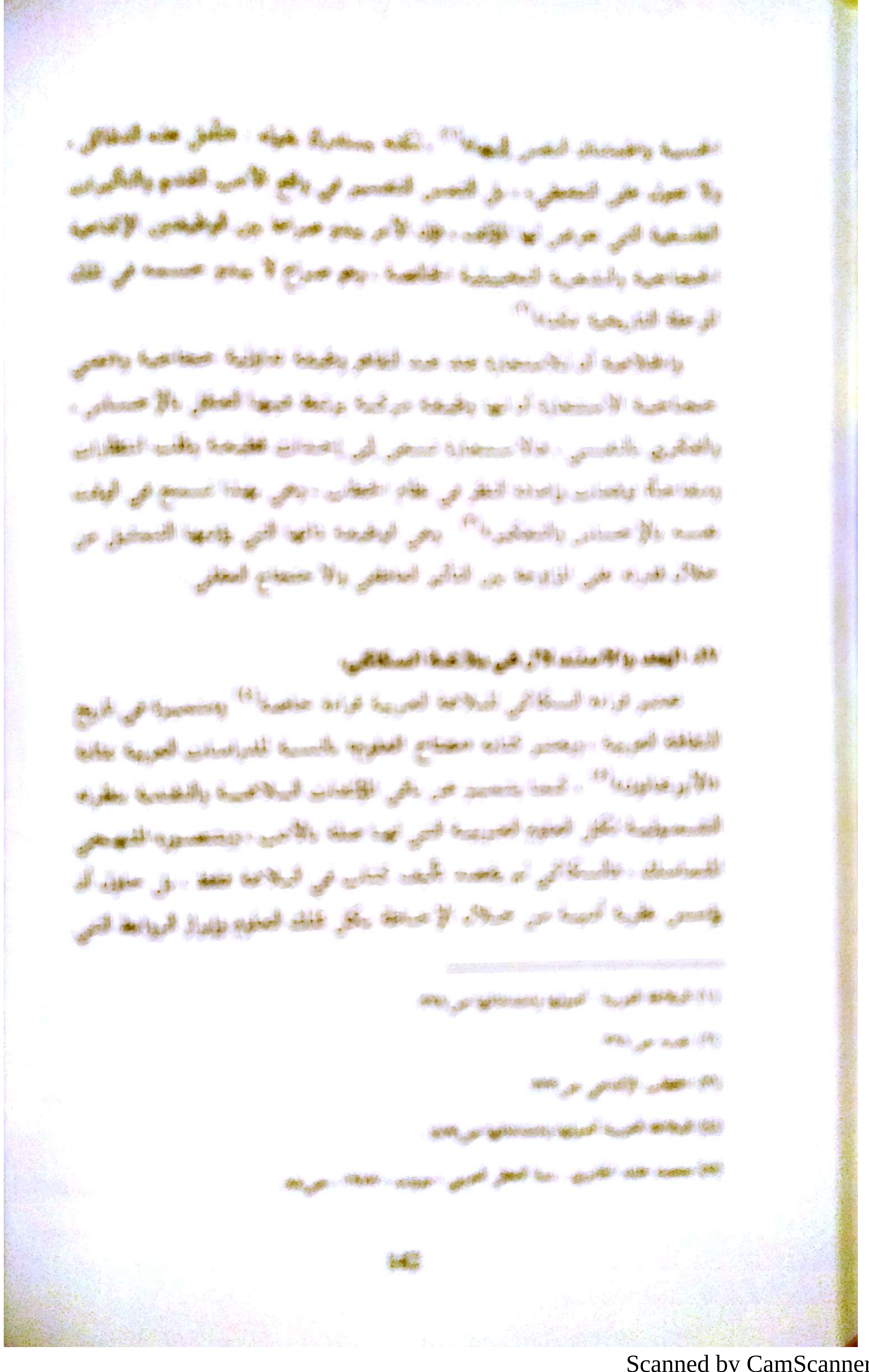
(٤) أسرار البلاغة ص١٠٢ .

(٥) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ص٣٩٤ .

(٦) نفسه ص٣٩٥/٣٩٦ .

(٧) أسرار البلاغة ص١٠٩ .

(٨) نفسه .



الحسية واطمئنان النفس إليها»[١] ، لكنه يستدرك بقوله : «تأمل هذه الدقائق ، ولا تعول على التخطيء ، بل التمس التفسير في واقع الأدب القديم والتأثيرات الفلسفية التي تعرض لها المؤلف ، فإن الأمر يبدو صراعا بين الوظيفتين الإقناعية الحجاجية والشعرية التخييلية الخالصة ، وهو صراع لا يبدو حسمه في تلك المرحلة التاريخية ممكنا»[٢] .

والخلاصة أن للاستعارة عند عبد القاهر وظيفة تداولية حجاجية و«تعني حجاجية الاستعارة أن لها وظيفة مركبة يرتبط فيها العقل بالإحساس ، والفكري بالنفسي ، فالاستعارة تسعى إلى إحداث قطيعة وقلب انتظارات ومفاجأة توقعات وإعادة النظر في نظام الخطاب ، وهي بهذا تسمح في الوقت نفسه بالإحساس والتفكير»[٣] . وهي الوظيفة ذاتها التي يؤديها التمثيل من خلال قدرته على المزاوجة بين التأثير العاطفي والاحتجاج العقلي .

IV- الحد والاستدلال في بلاغة السكاكي:

تعتبر قراءة السكاكي للبلاغة العربية قراءة خاصة[٤] ومتميزة في تاريخ الثقافة العربية ، ويعتبر كتابه «مفتاح العلوم» بالنسبة للدراسات العربية بمثابة «الأورغانون»[٥] ، كما يتميز عن باقي المؤلفات البلاغية والنقدية بنظرته الشمولية لكل العلوم العربية التي لها صلة بالأدب ، وبتصوره المنهجي المتماسك ، فالسكاكي لم يقصد تأليف كتاب في البلاغة فقط ، بل حاول أن يؤسس نظرية أدبية من خلال الإحاطة بكل تلك العلوم وإبراز الروابط التي

---

(١) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ص٣٩٧ .

(٢) نفسه ص٣٩٧ .

(٣) الخطاب الإقناعي ص٢٣٣ .

(٤) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص٤٧٩ .

(٥) محمد عابد الجابري : بنية العقل العربي ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص٨٨ .

تنظمها . يقول السكاكي : «وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب ، دون نوع اللغة ، ما رأيته لابد منه ، وهي أنواع متآخذة ، فأودعته علم الصرف بتمامه ، وإنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق . . .وأوردت علم النحو بتمامه وتمامه بعلمي المعاني والبيان . . . ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال ، لم أر بدا من التسمح بهما . . وحين رأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمي العروض والقوافي ثنيت عنان العلم إلى إيرادهما»[1] .

كما ركز السكاكي في بلاغته «المحكومة بالنجاعة التواصلية والبعد الإقناعي»[2] ، على المقام والمستمع ، فعليهما مدار علم المعاني والبيان الذي «هو معرفة خواص تراكيب الكلام ، ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها»[3] ، فالكلام إذن يتحدد بطبيعة المقام ، «فلكل مقام مقال» إذ «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم»[4] ،فيكون بذلك «مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه»[5] ، فلابد ، حسب السكاكي ، من مطابقة الكلام لمقتضى الحال بمراعاة سياقات الخطاب وحالات المخاطبين النفسية والاجتماعية . . . «وكأنه بهذا كان يؤسس بلاغة لا تهمها إلا النجاعة التواصلية الإقناعية للخطاب»[6] .

---

(١) أبو يعقوب يوسف السكاكي : مفتاح العلوم ، تحقيق عبد الحميد هنداوي وتقديمه ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط١ ، ٢٠٠٠ ، ص ٣٧ .

(٢) خطاب المناظرة ص٦٣ .

(٣) مفتاح العلوم ص٥٤٣ .

(٤) نفسه ص٢٥٦ .

(٥) نفسه ص١٧٥ .

(٦) الخطاب الإقناعي ، ص٢٩٥ .

وهكذا فصل اعتبارات الإسناد الخبري كالتالي :

* الخبر الابتدائي يلقي» إلى من هو خالي الذهن مما يلقى إليه»[1] ، لينتقش المعنى في ذهنه ثبوتا أو انتفاء .

* الخبر الطلبي يلقى إلى مخاطب شاك ومتردد في مضمون الخبر المنقول إليه يقول : «وإذ ألقاها [الجملة الخبرية] إلى طالب لها متحير طرفاها عنده دون الاستناد ، فهو منه بين بين لينقذه عن ورطة الحيرة ، استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة ، أو إنّ ، كنحو لزيد عارف ، أو إنّ زيدا عارف ، وسمي هذا النوع من الخبر طلبيا»[2] .

* الخبر الإنكاري يلقى إلى المخالف المنكر الجاحد «ليرده إلى حكم نفسه ، استوجب حكمه ليترجح تأكيدا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده كنحو» إنّي صادق «لمن ينكر صدقك إنكارا ، «وإنّي لصادق» لمن يبالغ في إنكار صدقك ، و«والله إنّي لصادق» . .»[3] .

ويتجاوز المقام لدى السكاكي محيط القول إلى العلاقات الداخلية المكونة للقول نفسه «فلكل كلمة مع صاحبتها مقام»[4] ،»فالحال يبني الخطاب ، والخطاب يبني بعضه بعضا ، وبهذا الانتباه لا يكون السكاكي بعيدا عن جهود التداولية في اللسانيات الحديثة»[5] ، وهو بتصوره هذا وبربطه للبلاغة بمناسبة المقام والأحوال ، وبمراعاة المقاصد يمنحها صفة تداولية ، ويجعلها في صميم البلاغة الإقناعية .

وإذا كان السكاكي قد جعل المعاني والبيان تتميما للنحو ، فقد انتبه إلى أن

---

(١) مفتاح العلوم ص٢٥٨ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ص٢٥٨/٢٥٩ .

(٤) نفسه ص٢٥٦ .

(٥) خطاب المناظرة ص٦٤ .

المعاني قائمة على الحد والاستدلال ، فخاض فيهما مكملا مشروعه لأن «تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان»[1] .

اهتم السكاكي إذن بالحد والاستدلال لأن تمام علم المعاني يكون بهما ، واستهل حديثه عن علم الاستدلال بتأكيده على ضرورة هذا العلم باعتباره جزءا من علم المعاني ، إذ «لولا إكمال الحاجة إلى هذا الجزء من علم المعاني ، وعظم الانتفاع به ، لما اقتضانا الرأي أن نرخي عنان القلم فيه»[2] . ثم أفصح عن مقصوده في هذا الجزء من كتابه بقوله : «وكأني بكلامي هذا . . . أعالج تصديقك به ، ويقينك لديه ، بابا مقفلا لا يهجس في ضميرك سوى هاجس دبيبه ، فعل النفس اليقظى إذا أحست بنبإ من وراء حجاب ، لكننا إذا أطلعناك على مقصود الأصحاب من هذا الجزء على التدريج ، مقررين لما عندنا من الآراء في مظان الاختلاف بين المتقدمين منهم والمتأخرين ، رجعنا في هذه المقالة بإذن الله تعالى محققين ، ورفعنا إذ ذاك الحجاب الذي يواري عنك اليقين»[3] .

ولما كان صاحب الاستدلال مفتقرا «إلى معرفة أجزائه ومعرفة ما بينها من الملازمات والمعاندات»[4] ، وكانت هذه المعرفة تتحقق بالحد ، فإنه «لا غنى لصاحب الاستدلال عن أن يكون صاحب الحد»[5] . ومن ثم فصل السكاكي حديثه إلى قسمين : «ذكر الحد وما يتصل به» و «ذكر الاستدلال وما يتصل به»[6] .

---

(١) مفتاح العلوم ص٥٤٣ .

(٢) نفسه ص٥٤٤ .

(٣) مفتاح العلوم ص٥٤٤ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه .

يعرف السكاكي الحد بأنه «عبارة عن تعريف الشيء بأجزائه ، أو بلوازمه ، أو بما يتركب منهما ، تعريفا جامعا مانعا ، ونعني بالجامع كونه متناولا لجميع أفراده إن كانت له أفراد ، والمانع كونه آبيا دخول غيره فيه»[1] ، ويعرفه كذلك بأنه «وصف الشيء وصفا مساويا»[2] ، ليقف بعد ذلك على ما يلزم الاحتراز منه عند تعريف الشيء : ومنه تعريف الشيء بنفسه أو تعريفه بما لا يعرف إلا به أو تعريفه بما يساويه[3] ، ثم أشار إلى عقدة وحلها ، والعقدة هي أن تعريف المجهول بالمجهول ممتنع[4] ، وحلها «هو أن المراد بالتعريف أحد أمرين : إما تفصيل أجزاء المحدود وإما الإشارة إليه بذكر معنى يلزمه من غير دعوى ، فيكون الحاد في مقام التفصيل لجميع أجزاء المحدود مثل من يعمد إلى جواهر في خزانة الصور للمخاطب فينظمها قلادة بمرأى منه ولا يزيد ، وفي مقام الإشارة باللازم داخلا كان ذلك اللازم أو خارجا أو متركبا منهما ، مثل من يعمد إلى صورة هناك فيضع أصبعه عليها فحسب»[5] .

أما الاستدلال فهو «اكتساب إثبات الخبر للمبتدأ أو نفيه عنه بوساطة تركيب جمل»[6] ، فالخبر إذا لم يكن معلوم الثبوت للمبتدأ بالبديهة أو معلوم الانتفاء عنه بالبديهة لزم المصير إلى ثالث ذي نسبة إليهما يشهد لذلك ، وبدون هذه النسبة لم يصح أن يشهد في البين نفيا أو إثباتا ، وإذا شهد لم يفد العلم أو الظن ما لم تكن شهادته واجبة القبول أو راجحته[7] .

---

(١) نفسه ص٥٤٥ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ص٥٤٥/٥٤٦ .

(٤) نفسه ص٥٤٦ .

(٥) مفتاح العلوم ص٥٤٦/٥٤٧ .

(٦) نفسه ص٥٤٨ .

(٧) نفسه .

ومن ثم يفترض الاستدلال جملتين «تارة تكونان خبريتين معا ، وتارة تكونان شرطيتين معا ، وتارة تختلفان خبرا وشرطا»[1] ، وقد فصل السكاكي الكلام في كل نوع من هذه الجمل مفرعا كل جملة إلى صورها بطريقة منطقية صارمة في ثلاثة أبواب ، بينما خصص الباب الرابع للقياسات ومجاريها وأحوالها ، مذيلا هذا الباب بثلاثة فصول ، فصل في التقسيم والسبر والاستقراء والتمثيل باعتبارها أمورا شبيهة بالقياس :

* فالتقسيم والسبر هو «أن تجعل المبتدأ ملزوم أحد الخبرين أو أخبار تحصرها ، ليتعين من ذلك المجموع عند النفي لما عداه ، كما نقول : زيد إما في الدار أو في المسجد أو في السوق ، لكنه ليس في السوق ولا في المسجد ، فإذن هو في الدار ، وإن هذا النوع متى صح حصره وصدق نفيه أفاد اليقين»[2] .
* الاستقراء «وهو انتزاع حكم كلي عن جزئيات»[3] .
* التمثيل «وهو تعديد الحكم على جزئي إلى آخر لمشابهة بينهما»[4] .

أما الفصل الثاني وهو الأهم فخصصه للدليل ، وأفصح في مطلعه عن الهدف من تلك التفصيلات المنطقية الطويلة التي عرضها عند حديثه عن الاستدلال ، يقول : «وهذا أوان أن نثني القلم إلى تحقيق ما عساك تنتظر منذ افتتحنا في هذه التكملة أن نحققه ، أو عل صبرك قد عيل له»[5] .

لقد علم السكاكي أن المتلقي العادي بل وحتى المتخصص قد يجد صعوبة في فهم ما عرضه في هذا الجزء من كتابه ، وقد يطرح أسئلة عن علاقة كل هذه التفريعات المنطقية الصارمة بعلمي المعاني والبيان ، فطرح هو نفسه أهمها إذ «أن

---

(١) نفسه ٥٤٩ .

(٢) مفتاح العلوم ص٦٠٧ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه .

صاحب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة ، كيف يسلك في شأن متوخاه مسلك صاحب الاستدلال ، وأنى يعشو أحدهما إلى نار الآخر ، والجد وتحقيق المرام مظنة هذا ، والهزل وتلفيق الكلام مظنة هذا؟»[1] .

ولإزالة هذا الغموض أو لرفع الحجب بتعبير السكاكي يقول : «فقل لي : إن كانت التلاوة أفادت شيئا؟ هل هو غير المصير إلى ضروب أربعة؟ بل إلى اثنين؟ محصولهما إذا وفيت النظر إلى المطلوب حقه ، إلزام شيء يستلزم شيئا فيتوصل بذاك إلى الإثبات . أو يعاند شيئا فيتوصل بذلك إلى النفي ، ما أظنك ، إن صدق الظن ، يجول في ضميرك حائل سواه»[2] .

إن هدف البيان ، لدى السكاكي ، يخدم مقصدية المتكلم حسب سياقات التخاطب بالدليل والحجة والشاهد ، و ليس بالتحسين الأسلوبي فقط ، وهو بذلك يكتسي طابعا حجاجيا ، لأن «من أتقن أصلا واحدا من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة ووقف على كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به ، أطلعه ذلك على كيفية نظم الدليل»[3] . ومن ثم يغدو طالب الصورة البيانية طالبا للاستدلال : «فوحقك لو شبهت قائلا : «خدها وردة «تصنع شيئا ، سوى أن تلزم الخد ما تعرفه يستلزم الحمرة الصافية ، فيتوصل بذلك إلى وصف الخد بها»[4] . لقد جعل السكاكي كل تشبيه أو استعارة أو كناية قياسا منطقيا حذف منه الحد الأوسط والنتيجة ، فالمثال المذكور (خدها وردة) قياس ترك للسامع أن يبني حده الأوسط (الوردة حمراء) ثم نتيجته (خدها أحمر) . وهكذا يتضح أن «الجملة المجازية تدعى دعوى تثبت أو تنفي

---

(١) مفتاح العلوم ص٦٠٧ .

(٢) نفسه ص٦٠٨ .

(٣) نفسه ص٥٤٤ .

(٤) مفتاح العلوم ص٦٠٨ .

أمرا ، فوظيفتها لا يمكن أن تكون إلا استدلالية حجاجية»[1] .

فالصورة البيانية ، لدى السكاكي ، لا تقوم على التخييل فقط ، بل جوهرها الاستدلال «فالتصوير عملية استدلالية تقوم على الانتقال من المعنى إلى المعنى ، أو من الدلالة الوضعية إلى دلالة أخرى عقلية الأولى دلالة مطابقة والثانية دلالة مستلزمة»[2] ، وهذه الملازمة تكون من جهتين ، من جهة المجاز الذي «ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم ، كما تقول : رعينا غيثا ، والمراد لازمه ، وهو النبت ، وقد سبق أن اللزوم لا يجب أن يكون عقليا ، بل إن كان اعتقاديا إما لعرف أو لغير عرف ، صح البناء عليه»[3] ، ومن جهة الكناية التي «ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم ، كما نقول : فلان طويل النجاد والمراد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد ، فلا يصار إلى جعل النجاد طويلا أو قصيرا إلا لكون القامة طويلة أو قصيرة»[4] .

لقد اكتشف السكاكي المنطقة الملتبسة بين النحو والمنطق ، وجعلها منطقة للتعايش بعد أن كانت منطقة نزاع[5] ، هذه المنطقة هي علما المعاني والبيان ، وهو بذلك يدخل البلاغة إلى «مجالها التطبيقي المثالي : الخطاب الإقناعي المرتبط بمقامات ملموسة محددة»[6] ، فالبلاغة لا تستقيم إلا باعتماد الشاهد والدليل والاستدلال ، والتخييل وحده لا يكفي لتحقيق وظيفتها الإقناعية لأن «مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها ،

---

(1) الخطاب الإقناعي ، ص٢٢٦ .

(2) خطاب المناظرة ص٦٥ .

(3) مفتاح العلوم ص٤٣٨ .

(4) نفسه .

(5) تنظر المناظرة التي جرت بين السيرافي العالم النحوي الكبير ومتى بن يونس شيخ المناطقة في عصره في الإمتاع والمؤانسة ، ج١ ، صص ١٠٨/١١١ ، وقد وقعت المناظرة سنة ٣٢٦ .

(6) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص٤٨٩ .

وشعبة فردة من دوحتها»[1] . غير أن الاستدلال «ليس عملية عقلية استنباطية محضة ، بل عملية 'خطابية' . . . لذلك قد لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة ، وبشكل أعم عن المجاز»[2] ، ثم إن الاستدلال البياني قد يكون أكثر تأثيرا من الاستدلال العقلي فأرباب «البلاغة وأصحاب الصياغة والمعاني ، مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه ، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر»[3] .

صفوة القول إنه رغم ما وصف به السكاكي في بعض الدراسات الحديثة بكونه السبب في جمود البلاغة بإغراقها في المنطق فقد اتسم كتابة «مفتاح العلوم» بالتميز ، إذ جعل «الوظيفة الحجاجية في المركز ، والوظيفة الشعرية في الهامش»[4] ، فشكلت بلاغته المقامية المقصدية القائمة على الاستدلال لبنة أساسية في بلاغة الإقناع في التراث العربي لما امتازت به من نجاعة تواصلية وإقناعية .

٧- الأقاويل والمعاني المقنعة عند حازم القرطاجني:

جعل حازم القرطاجني مصنفه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» أقساما وجعل الأقسام مناهجا وجعل المناهج معارف ومأم وإضاءات وتنويرات ، وهي طريقة متقدمة في التصنيف بالنسبة إلى عصره ، وقد عقد المنهج الثالث من القسم الثاني الخاص بالمعاني «في الإبانة عما به تتقوم صنعتا الشعر والخطابة من التخييل والإقناع والتعريف بأنحاء النظر في كلتا الصنعتين»[5] ، كما عقد

---

(١) مفتاح العلوم ص٥٤٣ .

(٢) الحجاج والاستدلال الحجاجي ص١٢٤ .

(٣) مفتاح العلوم ص٤١٢ .

(٤) محمد العمري : الحجاج والتخييل ، ضمن التحاجج : طبيعته ومجالاته ووظائفه ، ص١١ .

(٥) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص٦٢ .

وشعبة فردة من دوحتها»[1] . غير أن الاستدلال «ليس عملية عقلية استنباطية محضة ، بل عملية 'خطابية' . . . لذلك قد لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة ، وبشكل أعم عن المجاز»[2] ، ثم إن الاستدلال البياني قد يكون أكثر تأثيرا من الاستدلال العقلي فأرباب «البلاغة وأصحاب الصياغة والمعاني ، مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه ، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر»[3] .

صفوة القول إنه رغم ما وصف به السكاكي في بعض الدراسات الحديثة بكونه السبب في جمود البلاغة بإغراقها في المنطق فقد اتسم كتابة «مفتاح العلوم» بالتميز ، إذ جعل «الوظيفة الحجاجية في المركز ، والوظيفة الشعرية في الهامش»[4] ، فشكلت بلاغته المقامية المقصدية القائمة على الاستدلال لبنة أساسية في بلاغة الإقناع في التراث العربي لما امتازت به من نجاعة تواصلية وإقناعية .

٧- الأقاويل والمعاني المقنعة عند حازم القرطاجني:

جعل حازم القرطاجني مصنفه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» أقساما وجعل الأقسام مناهجا وجعل المناهج معارف ومأم وإضاءات وتنويرات ، وهي طريقة متقدمة في التصنيف بالنسبة إلى عصره ، وقد عقد المنهج الثالث من القسم الثاني الخاص بالمعاني «في الإبانة عما به تتقوم صنعتا الشعر والخطابة من التخييل والإقناع والتعريف بأنحاء النظر في كلتا الصنعتين»[5] ، كما عقد

---

(١) مفتاح العلوم ص٥٤٣ .

(٢) الحجاج والاستدلال الحجاجي ص١٢٤ .

(٣) مفتاح العلوم ص٤١٢ .

(٤) محمد العمري : الحجاج والتخييل ، ضمن التحاجج : طبيعته ومجالاته ووظائفه ، ص١١ .

(٥) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص٦٢ .

وأما من المنهج الثالث من القسم الرابع الخاص بالأسلوب في «مذهب المراوحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية»[1] ، ناهيك عن إشارات متفرقة في الكتاب إلى مقومات القول الخطابي والقول الشعري ، وهذا كله يؤكد عناية حازم بالأقاويل المقنعة في كتابه المنهاج وإن كان جعل معظمه للشعر ، فموضوع «كتاب منهاج البلغاء هو بلاغة الشعر أو الشعرية»[2] ، ولم يذكر الخطابة إلا تمييزا للشعر وإبرازا لخصائصه ، فصناعة الخطابة تعتمد «في أقاويلها على تقوية الظن لا على إيقاع اليقين اللهم إلا أن يعدل الخطيب بأقاويله عن الإقناع إلى التصديق»[3] ، أما الأقاويل الشعرية فاعتمادها «على تخييل الأشياء التي يعبر عنها بالأقاويل وبإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة»[4] .

غير أن حازما وهو يجعل الإقناع خصيصة الخطابة والتخييل خصيصة للشعر لم يمانع في وقوع شيء من الإقناع في الشعر ، أو شيء من التخييل في الخطابة ، يقول : «قد تقدم الكلام في أن التخييل هو قوام المعاني الشعرية والإقناع هو قوام المعاني الخطابية ، واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضع بعد الموضع ، كما أن التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع ، وإنما ساغ لكليهما أن تستعمل يسيرا فيما تتقوم به الأخرى ، لأن الغرض في الصناعتين واحد ، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه ، فكانت الصناعتان متآخيتين لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما ، فلذلك ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه ، وللخطيب أن يشعر

---

(1) المنهاج ص٣٦١ .

(2) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص٥٠٠ .

(3) نفسه ص٦٢ .

(4) نفسه .

لكن في الأقل من كلامه»[١] . وهو بذلك يقر بالتداخل بين الخطابي والشعري وبين الأقاويل الخطابية والأقاويل الشعرية إذ «قارن في مناسبات عديدة بين الشعر والخطابة كما عرض لمكونات الحجاج»[٢] ، وجعل علم البلاغة يشتمل على صناعتي الشعر والخطابة لاشتراكهما في مادة المعاني - التي عدها منطقة مركزية للتقاطع بين الشعري والخطابي ، وعد مركز المركز في هذا التقاطع هو التأثير في النفوس ودفعها نحو الاعتقاد أو الفعل[٣]- وافتراقهما في «تصور التخييل و الإقناع»[٤] . ويقوم تمييز حازم بين الخطابة والشعر «على أساس المكون المميز لكل منهما . فالشعر مبني على التخييل ، وقد يستعمل مكونات الإقناع الخطابي ضمن هيمنة العنصر الذاتي ، وعكس ذلك يصدق على الخطابة التي تبنى على العناصر الإقناعية وتدخل العناصر التخييلية في خدمتها»[٥] .

كما أكد أن هذه المراوحة بين المعاني المقنعة والمعاني المخيلة أكثر تأثيرا في النفوس ، وتجديدا للنشاط ، وتحصيلا للغرض من الكلام ، فالنفوس لما كانت «تحب الافتنان في مذاهب الكلام وترتاح للنقلة من بعض ذلك إلى بعض ليتجدد نشاطها بتجدد الكلام . . . كانت المراوحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية أعود براحة النفس ، وأعون على تحصيل الغرض المقصود»[٦] ، ومن ثم «وجب أن يكون الشعر المراوح بين معانيه أفضل من الشعر الذي لا مراوحة فيه ، وأن تكون الخطبة التي وقعت المراوحة بين معانيها أفضل من التي لا مراوحة فيها»[٧] .

---

(١) المنهاج ص,٣٦١

(٢) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص٥٠٠ .

(٣) الحجاج والتخييل ضمن التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه ، ص١٢ .

(٤) المنهاج ص١٩ .

(٥) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص٥١٠ .

(٦) نفسه ص٣٦١ .

(٧) نفسه .

وقد قيد حازم هذه المراوحة إذ «ينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة ، الواقعة في الشعر ، تابعة لأقاويل مخيلة مؤكدة لمعانيها مناسبة لها في ما قصد بها من الأغراض ، وأن تكون المخيلة هي العمدة ، وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها ، تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها ، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة»[1] . وجعل التساوي بين المعاني المقنعة والمعاني المخيلة ، أو غلبة إحداهما على الأخرى في غير ما هي أصيلة فيه يخرج كلتا الصناعتين عن طريقتهما ومذهبهما ، يقول : «فإن تساوى بعض الناس بين المخيلات والمقنعات في كلتا الصناعتين . . . كان قد أفرط في كلتا الصنعتين في الاستكثار مما ليس أصيلا فيه . . . فإن جاوز حد التساوي في كلتيهما . . . كان قد أخرج كلتا الصناعتين عن طريقتهما ، وعدل بها عن سواء مذهبها ووجب رد قوله . . . وأن تعد الخطابة في ذلك شعرا ، والشعر خطابة ، فيكون ظاهر الكلام وباطنه متدافعين وهو مذهب مذموم في الكلام»[2] .

كما تحدث حازم عن المقاييس في الأقاويل الشعرية والخطابية ، فالقياس عنده «قول مؤلف من مقدمات وقضايا إذا كانت مسلمة ورتبت الترتيب الذي يجب في القياس الصحيح لزم عن ذلك القول المرتب قول آخر يسمى نتيجة»[3] ، إلا أن هذه القياسات ، أو المقاييس بتعبير حازم ، لا ترد «في الأقاويل الشعرية والخطابية المقصود بها البلاغة إلا محذوفة إحدى المقدمتين أو النتيجة في الحمليات ، ومحذوفة الاستثناءات والنتائج في الشرطيات لأن القياس كلام تلازمت فيه القضايا فصار مستثقلا بطوله مع ما يقع فيه من تكرار الأسوار والحد الأوسط وأجزاء النتيجة ، فلما كان القول القياسي قد لزمه الطول والتكرار لم يكن لهم بد ، فيما قصدوا به البلاغة من كلامهم ، من أن يعدلوا

---

(1) نفسه ص٣٦٢ .

(2) نفسه .

(3) البلاغة العربية : أصولها وامتداداتها ص٦٦ .

مقداره ويحيطوا تكراره ، فإن الكلام إذا خف واعتدل حسن موقعه من النفس ، وإذا طال وثقل اشتدت كراهة النفس له»[١] . وقد نبه حازم إلى أن المقصود هو التوسط والاعتدال بلا إفراط ولا تفريط ، إذ «ليس يحمد في الكلام أيضا أن يكون من الخفة بحيث يوجد فيه طيش ، ولا من القصر بحيث يوجد فيه انبتار ، لكن المحمود من ذلك كله ما له حظ من الرصانة لا تبلغ به الاستثقال ، وقسط من الكمال لا يبلغ الإسأم والإضجار ، فإن الكلام المتقطع الأجزاء المنتشر التراكيب غير ملذوذ ولا مستحلى ، وهو شبه الرشفات المتقطعة التي لا تروي غليلا ، والكلام المتناهي في الطول يشبه استقصاء الجرع المؤدي إلى الغصص ، فلا شفاء مع التقطيع المخل ، ولا راحة مع التطويل الممل ، ولكن خير الأمور أوساطها»[٢] . وهكذا لا يحذف من المقاييس إلا ما قام الدليل عليه في الكلام ، ولا يحذف إلا لقصد وغاية ، يقول حازم : «ولا يحذف من المقاييس إلا ما يكون في قوة الكلام دليل عليه من مقدمة أو نتيجة أو قضية مستثناة ، وهذا المحذوف قد يكون القصد به طي المقدمة التي يظهر فيها الكذب ، وقد تكون مقدمات القياس كلها صادقة وتطوى إحداها لما ذكرته من قصد التخفيف خاصة»[٣] . غير أن حازما نبه إلى أنه «قد يكون اقتضاء ما أبقي من القياس لما أميط عنه اقتضاء صحيحا ، وقد يكون غير مقتض له في الحقيقة ويظهر في بادئ الرأي أنه مقتض له على الصحة ، وأكثر ما يكون في الاستثناءات الشرطية»[٤] . وقد مثل لذلك بقول امرئ القيس :

وإن كنت قد ساءتك مني خليقة

فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي

---

(١) المنهاج ص٦٥ .

(٢) المنهاج ، ص٦٥ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه ص٦٦ .

ثم علق عليه بقوله : «ففي قوة هذا الكلام ، على ما يترامى إلى غرض القول ، أن يكون الاستثناء نقيض المقدم والنتيجة نقيض التالي ، أي لكنك لم تسؤك مني خليقة فيوهم أنه منتج : فلا تسلي ثيابي من ثيابك ، وهذا استثناء وإنتاج غير صحيحين . وإنما يستعمل هذا في الخطابة على جهة الإقناع»(١) .

ويرى حازم أن الأقاويل القياسية المبنية على التخييل والإقناع تكون «خطابية بما يكون فيها من إقناع ، شعرية بكونها متلبسة بالمحاكاة والخيالات»(٢) ، وهكذا تحمل أقوال شعرية معان خطابية مقنعة كما تحمل أقوال خطابية معان شعرية مخيلة ، فأكثر «ما يستدل في الشعر بالتمثيل الخطابي ، وهو حكم على جزئي بحكم موجود في جزئي آخر يماثله ، نحو قول حبيب (البسيط- ق- المتراكب) :

أخرجتموه بكره من سجيته
والنار قد تنتضى من ناضر السلم»(٣) .

كما كشف حازم ما به تصير الأقوال الكاذبة مقنعة مموهة من تمويهات واستدراجات ، «فالتمويهات تكون في ما يرجع إلى الأقوال ، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيأة من يقبل قوله ، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه أو باطبائه إياه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم وكلام خصمه غير مقبول»(٤) .

وهذا قول يكشف عن وعي حازم بالوظائف التداولية والحجاجية للأقاويل ، وبدور المتكلم والمخاطب في بناء الخطاب الحجاجي إقناعا ومغالطة ، ويحقق المتكلم المغالطة بتمويهات يطوي فيها «محل الكذب من القياس عن السامع ، أو

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه ص٦٧ .

(٣) المنهاج ، ص٦٧ .

(٤) نفسه ص٦٤ .

باغترارە إياه لبناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباهها بما يكون صدقا، أو بترتيبه على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهه بالصحيح، أو بوجود الأمرين معا في القياس، أعني أن يقع فيه الخلل من جهتي المادة والترتيب معا، أو بإلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب وإن كان حيز الوضوح أقرب منه إلى حيز الخفاء بضروب الواقع في القياس من جهة مادة أو جهة ترتيب أو من جهة المادة والترتيب معا»[1].

والخلاصة أن حازما وإن كان اهتمامه بالشعر في مصنفه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» أكثر من اهتمامه بالخطابة، إلا أنه بوأ الأقاويل والمعاني المقنعة مكانة متميزة في الشعر كما في الخطابة «لأن صناعة الشعر تستعمل يسيرا من الأقوال الخطابية، كما أن الخطابة تستعمل يسيرا من الأقوال الشعرية لتعتضد المحاكاة في هذه بالإقناع والإقناع في تلك بالمحاكاة»[2]. وهو بذلك يؤسس لعلاقة تكاملية بين الشعري والخطابي أو بين التخييلي والإقناعي، ويضبط مستويات التداخل والتخارج بين التخييل والتصديق باعتبارهما موضوعا للبلاغة، حيث يغدو للمكونين معا وظائف فنية وتداولية وحجاجية تخاطب في المتلقي العقل والعاطفة لتحقق الإقناع والإمتاع والاستمالة مع تفاوت في النسب بينهما حسب طبيعة الخطاب والغرض منه. مما «جعل أفكاره جديرة بعصرنا، وجديرة بالدراسات البلاغية المتعددة الاختصاصات، بل من حق العرب، بل حماة التراث العربي أن يفتخروا بكون حازم القرطاجني كان حامل لواء البلاغة والشعرية الأرسطيين في العصور المظلمة التي كانت ترين على الغرب.. بل من حق حازم اليوم في أن يبوأ المكانة الرفيعة وسط النقاد العالميين»[3].

---

(١) المنهاج ص٦٤.

(٢) نفسه ص٢٩٣.

(٣) الاستعارة في محطات ص٩.

المبحث الثالث :
بلاغة الإقناع في الثقافة الغربية الحديثة.

I- بيرلمان وتيتكاه: الخطابة الجديدة.

توج بيرلمان C. Pereleman أبحاثه في البلاغة والفلسفة والقيم بكتابه «مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة» الصادر سنة ١٩٥٨ بالاشتراك مع زميلته تيتكا O.Tyteca ، وهو أكثر أعماله «شهرة واكتمالا وإلماما بقضايا الحجاج»[١] .

وقد حاول المؤلفان ، من خلال هذا المصنف ، بعث بلاغة الإقناع بعد الإهمال الذي لحقها لقرون طويلة ، وبعد انحصار البلاغة في المجازات والمحسنات والصور . . . بإخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل ، أو بالأحرى استطاعا أن يعثرا على ذلك الخيط الرفيع الذي يمكن اعتماده لمصالحة تاريخية بين الخطابة والجدل أو بين أرسطو وأفلاطون[٢] ، كما عملا على تخليص الحجاج من تهمتين التصقتا به وهما : «تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور وبعقله ودفعه دفعا إلى القبول باعتباطية الأحكام ولا معقوليتها»[٣] ، وتهمة «صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب»[٤] ، مدفوعين بوعيهما بمحدودية المنطق الصوري والعقلانية

---

(١) عبد الله صولة : الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته ، ضمن أهم نظريات الحجاج ، ص ٢٩٨ .

(٢) الاستعارة في محطات يونانية ، ص٣٥٧ .

(٣) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته ص,٢٩٨

(٤) نفسه .

الديكارتية في تغطية كل مجالات الحياة، فديكارت يقول: «كلما أطلق اثنان حكمين مختلفين على شيء واحد كان أحدهما صادقا والآخركاذبا»[١]. فلا وجود إلا لحقيقة واحدة وفي هذه الحالة لا يكون بنا من حاجة إلى الحجاج لأن الحجاج لا يتدخل إلا في الحالات التي يكون فيها اليقين موضع طعن[٢]، ومجال الخطابة هو الاختلاف والتعدد والمحتمل وهذا توجه» يتماشى مع العقلانية المعاصرة التي قامت على أنقاض الديكارتية»[٣]، إن الحجاج عندهما»معقولية» تبعد المغالطة والتلاعب. . .و»حرية» ترفض الحقيقة الواحدة، وتتيح إمكانية التعدد والاختلاف والاختيار. لذلك عده بيرلمان شرطا لممارسة الاختيار العاقل، يقول: «فإنه إذا لم تكن ممارسة هذه الحرية على أسس معقولة، فإن كل اختيار سيكون غير عقلي، وسيؤدي إلى حكم اعتباطي مجرد من أي سند فكري»[٤].

١- أطر الحجاج:

إن مدار جهود الباحثين في هذا القسم هو تعريف الحجاج ورصد العلاقة بينه وبين الاستدلال والخطابة والجدل، إذ حددا موضوع نظرية الحجاج في»دراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من إثارة وتعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة»[٥]، كما حددا الغاية من الحجاج بقولهما» غاية كل

(١) نفسه ص٣٠٤.

(2) Ch. Perelman: L'empire rhétorique : rhétorique et argumentation, France, librairie phé-losophique 1988 p:195.

(٣) الحجاج أطره ومنطلقاته ص٣٠٤.

(4) Ch. Perelman et O. Titika: Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique.Edition de l'université de Bruxelles. 5éme edition. 2000 p:682..

(5) Ch. Perelman et O. Titika: Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique.Edition de l'université de Bruxelles. 5éme edition. 2000 p:5.

حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد من درجة ذلك الإذعان»[1] . وقد أولى تحديدهما للحجاج مكانة مميزة للإقناع «بأن جعل منه لب العملية الحجاجية ، كما اعتبره أثرا مستقبليا يتحقق بعد التلفظ بالخطاب لينتج القرار بممارسة عمل معين أو اتخاذ موقف سواء بالإقدام أو بالإحجام»[٢] .

وقد جعل الباحثان متن أرسطو -لاسيما في الجدل والخطابة- منطلقا لهما لتطوير نظرية الحجاج ، يقول بيرلمان : «إن العمل الطويل النفس الذي خضت فيه مع أولبريشت تيتيكا ، هو الذي قادنا إلى نتائج غير متوقعة إطلاقا نتائج كانت بالنسبة إلينا كشفا لأمر كان محجوبا عنا ، ألا وهو أنه لا يوجد منطق للقيم وأن ما نبحث عنه كان قد عولج من طرف مبحث ضارب في القدم منسي حاليا ومستهجن هو البلاغة أي فن الإقناع والاقتناع»[٣] ، إلا أنهما تجاوزا الاتباع إلى الإبداع[٤] ،فقد كفت البلاغة معهما «عن أن تكون خطاب العامة والحشود والجهال كما كانت عند أرسطو . لقد أصبحت مع بيرلمان تغطي هذا المجال وأضاف إليه كل خطاب يسعى إلى تفعيل المخاطب وإلى وصف كل ما ينأى عن العلم والعقل المجرد ، وهذا هو معنى الربط بين الجدل والخطابة في مشروع بيرلمان»[٥] ، يقول بيرلمان في هذا المعنى : «إذا كانت البلاغة تقدم لنا عند القدماء باعتبارها تقنية يستعملها العامي المتلهف إلى البلوغ السريع إلى الاستنتاجات وتكوين رأي دون التمهيد لذلك بتحمل عناء البحث الجاد ، فنحن لا نريد أن نقصر الحجاج على دراسة حجاج جمهور العوام»[٦] . فمميزا

---

(1) Ibid p:59.

(٢) استراتيجيات الخطاب ، ص٤٥٧ .

(3) L'empire rhétorique p:9.

(٤) الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية ص٣٢ .

(٥) الاستعارة في محطات ص٣٥٧ .

(6) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p:9.

بين الحمل على الإقناع الذي يكون بمخاطبة العاطفة والخيال ، والذي لا يدع مجالا لإعمال العقل ولحرية الاختيار ، وبين الاقتناع الذي يحققه المرء بنفسه ، وتحقيق الاقتناع هو الغاية من الحجاج ، وقد جعله المؤلفان في منطقة وسطى بين الاستدلال والحمل على الإقناع . لقد وسع بيرلمان «البلاغة إلى الحدود البعيدة ، وذلك عبر دمج الجدل ، والإنسانيات عامة والتحاور اليومي ، في هذا النموذج الموحد الذي دعاه البلاغة الجديدة»(١) .

فإذا كان الاستدلال هو الانطلاق من مقدمات تستنبط منها بالضرورة نتائج واحدة وغير مرتبطة بالمقام ، وإذا كان الحمل على الإقناع يعطل العقل ويلغي حرية الاختيار فإن الحجاج يستند إلى صناعة الجدل من ناحية ، وصناعة الخطابة من ناحية أخرى بكيفية تجعل الحجاج شيئا ثالثا لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة فهو يقوم على التعدد والاختلاف والارتباط بالمقام ، يقول بيرلمان : «إننا لا نعتقد ، عكس ما ذهب إليه أفلاطون وأرسطو وكينتليان وهم يحاولون أن يعثروا في البلاغة على استدلالات على شاكلة استدلالات المنطق ، أن البلاغة هي مجرد شيء زائد وأقل يقينية ، وأنها لا تتوجه إلا إلى السذج والجهلة . إن هناك مجالات هي مجالات الحجاج الديني والحجاج التربوي والخلقي والفني والفلسفي والقانوني حيث الحجاج هو بالضرورة بلاغي . إن الاستدلالات الصائبة في المنطق الصوري لا يمكن تطبيقها في المجالات التي لا تتعلق بالأحكام الصورية الخالصة ، ولا بالقضايا ذات محتوى يمكن الحسم فيه باللجوء إلى التجربة»(٢) ، ويكون الحجاج بذلك أقرب إلى الخطابة بمعناها الأرسطي ، فحججه معقولة لكنها غير ملزمة ، ومن ثم فهي تترك للمتلقي حرية رفضها ومعارضتها لكن على سند عقلي أيضا حتى لا يقع في المخاطبة السفسطائية .

لكن تقريب بيرلمان وتيتكاه للحجاج من الخطابة لا يصل بهما إلى حد

---

(١) الاستعارة في محطات ص٣٥٥ .

(2) Ch. Perelman: Rhétoriques. Eduniversité de Bruxelles. 1989. P.99.

المطابقة بينهما ، فجمهور الخطابة جماعة مجتمعة تستمع إلى خطيب ، بينما يتعلق الحجاج أو البلاغة الجديدة «بالخطاب الموجه إلى كل أنواع المستمعين سواء تعلق الأمر بجمهور مجتمع في ساحة عمومية أم تعلق باجتماع المختصين ، أم بشخص واحد أم بكل الإنسانية ، بل إنها تهتم بالحجج التي قد يوجهها الشخص إلى نفسه في مقام حواري»[1] ، بل إن بيرلمان»يعمق فكرة 'المستمعين' الواردة في البلاغة الكلاسيكية من خلال تركيزه على غيابهم المادي ، ويعمل على تنمية عناصر الخطاب الحجاجية بعيدا عن وسائل الضغط ، والتحريض من جهة ثانية على استحضار كل ما من شأنه أن يمنح الخطاب نفاذيته المطلوبة ، من تقنيات ومكونات معرفية واجتماعية ونفسية وسياقية ، تساعد-متضافرة- في تحقق الخطاب»[2] ، كما أن الخطابة ارتبطت باستعمال اللغة الشفوية بينما الخطاب الحجاجي قد يكون مكتوبا ، وركز الباحثان على «المكتوب وآليات البرهنة فيه لأن مجال إعمال العقل فيه تحليلا وتأويلا أوسع مما هو متاح في الخطابة»[3] .

لقد سعى الباحثان من خلال عملهما إلى لم شتات أنواع الخطابة الثلاثة كما حددها أرسطو (استشارية ، مشاجرية ، تثبيتية) في نظرية الحجاج ، منطلقين من تحديد أنواع الجمهور وأنواع الخطاب لبعث الخطابة إلى الوجود في ثوب جديد وشكل جديد سمياه الحجاج[4] . ويندرج تصور بيرلمان للخطابة ضمن توجه بلاغي عام «يروم جعل البلاغة علما مستقبليا هدفه -أو على الأصح أهدافه- تطوير المجتمع وتحليل مختلف الخطابات عن طريق الوقوف على خططها الحجاجية المتأسسة عليها»[5] .

---

(١) الاستعارة في محطات ص ٣٥٥ .

(٢) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص,١١١

(٣) نفسه ، ص١١٠ .

(٤) الحجاج أطره ومنطلقاته ص٣٠٧ .

(٥) نفسه ص١٠٢ .

٢- منطلقات الحجاج:

حدد بيرلمان وتيتكا المنطلقات الحجاجية في مقدمات الحجاج ، واختيار هذه المقدمات ، وطريقة صوغها وتؤخذ المقدمات الحجاجية على أساس أن الجمهور يسلم بها ويقبلها ، فتفاديا للفشل في أداء القصد فإن الخطيب لا ينبغي له التسليم إلا بالمسلمات التي تتمتع بقبول كاف ، أي التي تكون مقبولة أيضا عند المستمع[١] ، وإلا فسيقترف خطأ كبيرا وهو المصادرة على المطلوب[٢] ، ومن هذه المنطلقات :[٣]

أ)- **الوقائع** : تمثل»ما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس»[٤] ، ولا نكون في حضرة واقعة من وجهة نظر حجاجية إلا عندما نستطيع أن نفترض بصددها اتفاقا كونيا بعيدا عن أي طعن[٥] ، غير أنه قد لا يكون «ممكنا ولا مناسبا لقصدنا تقديم تحديد الشيء تحديدا يسمح في كل زمان ومكان بتصنيف هذا المعطى الملموس أو ذاك باعتباره شيئا . . إننا لا نعول على أي معيار يسمح لنا في كل الظروف وبعيدا عن موقف المستمعين التأكيد أن شيئا ما هو واقعة»[٦] .

ب)- **الحقائق** : تقوم على الربط بين الوقائع ومدارها النظريات العلمية والتصورات الفلسفية والدينية المتعالية على التجربة .

ج)- **الافتراضات** : تحدد بالقياس إلى المحتمل والعادي وتكون موضع موافقة عامة ، إلا أن التسليم بها يستمد من عناصر أخرى في المسار الحجاجي

---

(1) L'empire rhétorique p35.

(2) Ibid p36.

(3) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique pp 87/257.

(4) Ibid p89.

(5) Ibid p89/90.

(6) Ibid p89.

تقويها . وهي «ترتبط عموما بما يحدث عادة ، والذي يعتبر أمرا معقولا الاعتداد به ، فما يحدث عادة هو نزاهة القاضي ، ولكن هناك مع ذلك لائحة طويلة لقضاة مرتشين»(١) ، كما أنها ليست ثابتة «بل هي متغيرة تبعا للوسط والمقام والمتكلم والسامعين ، لأنها تقاس بالعادي . . . ، والعادي مفهوم مجرد يختلف باختلاف القدرات والإمكانات الفردية والجماعية»(٢) .

د)-القيم : هي أساس الحجاج في مجالات القانون والسياسة والفلسفة ، «إذ يعتمد عليها في تغيير مواقع السامعين وفي دفعهم إلى الفعل المطلوب»(٣) ، كما اعتبرها بيرلمان بمثابة قواعد حجاجية «نستند عليها لكي نحمل المخاطب على القيام بأفعال معينة بدل أخرى ، كما أننا نستدعيها خصوصا من أجل تبرير تلك الأفعال بطريقة تجعل هذه الأفعال التي دعونا إليها مقبولة و مؤيدة من طرف الآخرين . . فبالقيم نستطيع تشكيل الحقيقة المطلوبة على الوجه الذي يريده المبدع (المحاجج) ، هذا في الوقت الذي تظل فيه هذه القيم محافظة على نصاعتها بعد الاستخدام مما يجعلها صالحة للاستعمال في مقامات أخرى»(٤) ، وهي إما مجردة مثل العدل والحق أو محسوسة مثل الوطن ، ونكون بصدد القيم حينما «يصبح أحد الشيئين أرفع من شيء آخر أوأحط منه ، حيث يحكم على شيء بأنه أرفع ويجب تبعا لذلك أن يخص بالتفضيل»(٥) .

هـ)-الهرميات : تخضع القيم لهرمية ما ، فهي درجات ومراتب وتكتسي هذه

---

(١) الاستعارة في محطات ص٣٧٣ .

(٢) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص١١٢ .

(٣) نفسه ، ص١١٢ .

(4) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p99/102.

(5) L'empire rnétorique p39/40.

الهرمية قوة حجاجية قد تفوق القوة الحجاجية للقيم نفسها .

و)- المواضع : هي مقدمات عامة ، وهي عند شيشرون عبارة عن« مخازن للحجج ومستودعات للحجج»[1] ، يلجأ إليها المحاج لبناء القيم وترتيبها ، «وهي . . تلعب دورا كبيرا في الحجاج والدفع إلى الفعل وخلخلة العقبات التصورية التي تكون أحيانا راسخة لدى المحاججين والتي لا تنسجم مع البناء الحجاجي المقدم»[٢] ، وهي أنواع :

* مواضع الكم : وهي المواضع المشتركة التي تقر أن شيئا يفضل شيئا آخر لأسباب كمية[٣] .
* مواضع الكيف : وهي تتعلق بالأهمية التي يكتسبها شيء أو فعل معين مقارنة بأشياء وأفعال أخرى . و«تكمن خاصيتها الحجاجية في وحدتها الشكلية في مواجهة الجمع ، مثل موضع 'الحق' في ذاته الذي يباين كل ما عداه من الباطل»[٤]
* مواضع الترتيب : والتي تقر أفضلية السابق على اللاحق[٥] .
* مواضع الموجود : والتي تقر بأفضلية الموجود الواقعي على الممكن والمحتمل والمستحيل[٦] .
* مواضع الجوهر : وتتعلق «بما يجسد بشكل أفضل نوعا ما»[٧] .

إن هذه المقدمات باختلاف أنواعها تشكل الشروط الأساسية لبناء المسار

---

(1) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p112.

(٢) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص١١٣ .

(3) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p115.

(٤) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص١١٣ .

(5) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p125.

(6) Ibid p126.

(7) Ibid.

الحجاجي إلا أنها غير كافية للخطيب ، فهي تمثل معطيات متسعة وغزيرة تسمح باستعمالات متعددة ، يبقى اختيار الخطيب وانتقاؤه لعناصر الحاجة وتنظيمها هو ما يكسبها فاعلية حجاجية .

ومن أنجح الوسائل في تقديم عناصر الحجاج الاستحضار والتأويل : فالاستحضار يجعل تلك العناصر ماثلة أمام عين المخاطب ، أما التأويل فيستعمله الخطيب لإزالة الغموض الذي يحف المعطيات الحجاجية ويجعلها تحمل دلالات متنوعة ، وعلى الخطيب أن يبرز التأويل الذي يعطي لتلك المعطيات الدلالة التي يسعى إليها[1] ، والتأويل الذي يرتضيه «وإن كان الأمر في بعض الأحيان لا يتعلق من جهة المتكلم بتأويل بعينه بقدر ما يتعلق بإبراز مختلف وجوه اللبس الحافة بوضعية ما ، وبإبراز مختلف الطرق التي يمكن أن تعالج بها تلك الوضعية مما يجعل كلامه قابلا لتأويلات مختلفة»[٢] .

ومن مظاهر اختيار المعطيات استعمال النعوت والصفات ، فكل صفة نختارها تعبر عن وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع و«النعوت باعتبارها مفضية إلى التصنيف»[٣] من مقومات الحجاج ، لأن «ما يوصف بالكلمات : جيد أوصائب أو جميل أو حقيقي أو واقعي يعتبر ساميا ، في حين أن ما يوصف بالكلمات قبيح أوباطل أوزائف أوظاهري يعتبر منحطا»[٤] .

وتتداخل مع عملية اختيار المقدمات وتنظيمها عملية أخرى لا تقل أهمية عنها ، وهي طريقة عرض هذه المقدمات ، إذ أن إجادة طرحها يؤسس لبناء عنصر الثقة مع المخاطبين ، وعدم الحذق في ذلك قد يدفعهم إلى رفض هذا الحجاج «إما لأنهم لا يسلمون بما عرضه لهم الخطيب بوصفه ثابتا ، وإما لأنهم لا يرون

---

(1) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p:166.

(٢) الحجاج أطره ومنطلقاته ، ص٣١٥ .

(٣) نفسه ص٣١٦ .

(٤) الاستعارة في محطات ص٣٧٣ .

إلا الطابع الأحادي البعد لاختيار المقدمات ، وإما لأنهم فوجئوا بالطابع المفرض في عرض تلك المقدمات»[1] ، فالباحثان يريان أنه لا يمكن الفصل بين شكل الخطاب ومضمونه فاهتما «بثنائية بلاغة الحجة وبلاغة أسلوبها معا كشرطين متلازمين لتحقيق الخطاب ونفاذه»[2] ، ومن طرائق العرض : اعتماد أسلوب بطيء أواعتماد التكرار لإبراز حضور الفكرة وكثرة إيراد الحكايات الدائرة حولها مع كثرة الإشارات والدقائق المتعلقة بتلك الفكرة[3] .

ثم إن انتقاء الألفاظ الخاصة أو العامة ، والحسية أو المجردة . . . حسب المقام والمقصدية له قيمته الحجاجية أيضا بما في ذلك الألفاظ المنزاحة عن اللغة العادية فلا وجود لأي اختيار محايد[4] .

وقد حصر المؤلفان موجهات التعبير في «الإثبات» و«الإلزام» و«الاستفهام» و«التمني» ، يضاف إليها صيغ لغوية أخرى لها بعد وفاعلية حجاجيان كاستعمال الأزمنة واعتماد الحكم والأمثال والصور البلاغية . . لأن «الطريقة التي نشكل بها أفكارنا تخضع للعديد من الموجهات التي تعمل على تغيير الواقع وحتمية أو أهمية معطيات الخطاب ، فنحن نكاد نكون متفقين اليوم على الاعتراف بما للموجهات الدلالية من دور»[5] ، وقد أولى بيرلمان للموجه الاستفهامي اهتماما كبيرا لما له من «أهمية بلاغية كبيرة ، فالسؤال يفترض موضوعا ما وانطلاقا منه يتوقع أن ثمة اتفاقا حول وجود هذا الموضوع ، كما أن الإجابة على سؤال ما تعني التأكيد على هذا الاتفاق الضمني ، ولكم علمتنا الحوارات السقراطية مدى أهمية هذه التقنية الحوارية»[6] .

(1) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p22.

(٢) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص١٠٦ .

(3) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p194/198.

(4) Ibid p201.

(5) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p:207.

(6) Ibid p214.

٣- التقنيات الحجاجية:

عقد الباحثان القسم الثالث والأخير من مؤلفهما لبسط أهم الطرائق في الخطاب الحجاجي ، وهي في نظرهما ، نوعان : طرائق الاتصال procédés de liaison وطرائق الانفصال procédés de dissociation .

٣-١) طرائق الاتصال في الحجاج:

هي طرائق تربط بين عناصر غير مترابطة في أصل وجودها ، وهي «الآليات التي تقرب بين العناصر المتباينة وتمكن من إقامة روابط علاقية بينها كي يمكن دمجها في بنية حجاجية متماسكة وموحدة»(١) ، كما تشمل «كل الحجج التي اهتمت بها البلاغة القديمة»(٢) ، ويتخذ الاتصال الحجاجي ثلاثة مظاهر وهي : الحجج شبه المنطقية ، والحجج المؤسسة على بنى الواقع والحجج المؤسسة لبنى الواقع :

٣-١-١)-الحجج شبه المنطقية:

إنها حجج تقبل الصياغة المنطقية غير أنها غير ملزمة ، لهذا وصفت «بالمشابهة» ، يقول ر . بلالنشي : «إن البرهنة الصورية إما صائبة أو خاطئة ، وليس هناك حالة وسط ، فحينما تكون صائبة فإنها تكتفي بنفسها ، ليست هناك حاجة للزيادة . . وعلى العكس من ذلك فإن الحجاج لا يتمتع بهذا الضبط الإلزامي . . إن صلاحيته ذات درجات : إنها قوية إن قليلا أو كثيرا . . وهي لا تكون مغلقة أبدا : بالإمكان دوما استهداف تقويتها بمراكمة حجج موافقة»(٣) ، وهذا ما يسمح للخصمين بالوصول إلى توافق يوازن بين أطروحتيهما ، يقول بيرلمان : «حينما يحاول خصمان أن يقنع أحدهما الآخر يمكن أن يلاحظ أن

---

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص١٢٧ .

(٢) الاستعارة في محطات ص٣٧٥ .

(3) Pierre Oléron: L'argumentation. PUF. Paris.1983.p35.

آراءهما قد طرأ عليها التغير بعد الحجاج . إنهما يبلغان إلى توافق ما مختلف قائم على أطروحة مختلفة عن الأطروحتين اللتين انطلقا منها ، وما كان هذا ليحصل لو كان الأمر متعلق باستدلال داخل نسق استنباطي ثابت»[1] ، وتنقسم بدورها إلى :

٣-١-١-١)-الحجج المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية:

٣-١-١-١-١)- التناقض أو التعارض:

يتعلق التناقض بالأنظمة الصورية وهو أن تكون هناك قضيتان تنفي إحداهما الأخرى وتنقضها ، ويدرك التناقض صوريا نظرا لأحادية الدلالة في اللغة الرمزية وعدم ارتباطها بالمقام والظروف ، أما عدم الاتفاق فمجاله حجاجي وهو أن يكون التعارض بين ملفوظين فيوضع الملفوظان في محك الواقع والمقام لاختيار إحدى الأطروحتين وإقصاء الأخرى[2] . لذلك نتحدث «عن عدم التناسب في الحجاج بدل التناقض في المنطق الصوري»[3] ، ويكون ذلك «حينما نثبت قاعدة ما أو نؤكد أطروحة أو موقفا ملتزما يؤدي دون أن نرغب في ذلك إلى نزاع مع أطروحة أو قاعدة سبق إثباتها ، أو مع أطروحة يسلم بها العموم والتي يفترض أن يأخذ بها كل الأطراف المنتسبين إلى مجموعة ما»[4] .

وإذا كان التناقض داخل النظام الصوري يؤدي إلى الخور ، فإن التعارض بين القاعدتين في ضوء المقام يؤدي إلى الهزء باعتباره سلاح الحجاج ، فمجاله المقال في علاقته بالمقام[5] .

---

(1) L'empire rhétorique p89.

(2) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p270.

(٣) الاستعارة في محطات ص٣٧٧ .

(4) L'empire rhétorique p70.

(5) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p270.

٣-١-١-١-٢)-الحد والتعريف:

يقوم تحديد وتعريف المفاهيم والموجودات والأحداث على التبرير الحجاجي «ذلك لأن التعريف يحرك العملية الاستدلالية ويقدم اختيارات دون أخرى كما يشكل حكما على الأشياء أو تقويما لها»[١] ، ويتضح الطابع الحجاجي للتحديدات عندما نواجه بتحديدات متنوعة لنفس الكلمة ، ففي الانتخابات الفرنسية لسنة ١٩٧٨ »مثلا ، «كان الحزب الشيوعي يقول أن عدد الفقراء في فرنسا هو ١٧ مليونا ، وهو بالنسبة إلى الأغلبية مجرد ٧٠٠٠٠٠ ، والواقع أن الطرحين يتذرعان بتحديدات ذاتية للفقر»[٢] .

٣-١-١-١-٣)-العلاقة التبادلية أو قاعدة العدل:

تتعلق هذه الحجج بوضعيتين متماثلتين وتماثلهما ضروري لتطبيق قاعدة العدل ، التي تقتضي معاملة واحدة لكائنات أو وضعيات داخلة في مقولة واحدة ، ويمثل له عبد الله صولة[٣] بالحديث النبوي الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٤] .

٣-١-١-١-٤)-حجج التعدية:

تميز هذه الحجج العلاقات التي تسمح بالانتقال من إثبات أن العلاقة الموجودة بين «أ» و«ب» من جهة ، و«ب» و«ج» من جهة أخرى ، هي علاقة واحدة ، إلى استنتاج أن العلاقة بين «أ» و«ج» هي العلاقة نفسها . ونعثر على

---

(١) خطاب المناظرة ، ص٧٨ .

(2) André Hélla: Précis de l'argumentation. Fernand Nathon. Ed lebor. Bruxelles.1983.p80.

(٣) الحجاج أطره ومنطلقاته ص٣٢٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ،ج٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨ ، مسند أنس بن مالك ص٤٩٩ .

مبدأ التعدية «مطبقا بطريقة صورية في القياس ، وهو غير مسعف حينما نطبقه على وقائع إنسانية»[1] .

٣-١-١-٢)-الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:

٣-١-١-٢-١)-إدماج الجزء في الكل:

تعني هذه الحجج أن «ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء» ، ويمثل لها عبد الله صولة[٢] بالقاعدة الفقهية في تحريم الخمر «ماأسكر كثيره فقليله حرام» .

٣-١-١-٢-٢)-تقسيم الكل إلى أجزائه:

تنطلق هذه الحجج من تصور الكل باعتباره مجمل أجزائه لبناء حجج التعميم أو التوزيع والغاية الأساسية من التقسيم هي البرهنة على وجود المجموع ، ومثاله : للبرهنة على أن مدينة هدمت لشخص ينفي هدمها ، نعدد الأحياء المتضررة تعدادا شاملا[٣] .

٣-١-٢)-الحجج المؤسسة على بنى الواقع:

وهي حجج «تستخدم الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها وأحكام يسعى الخطباء إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة ومسلما بها ، وذلك لجعل الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي إلى كل واحد يجمع بينها بحيث لا يمكن التسليم بأحدها دون أن يسلم بالآخر ، ومن هنا جاء وصفها بكونها حججا اتصالية أو قائمة على الاتصال»[٤] ، وتنقسم إلى :

---

(1) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p84/85.

(٢) الحجاج أطره ومنطلقاته ص٣٣٠ .

(٢) الحجاج أطره ومنطلقاته ص٣٣١ .

(٣) نفسه .

٣-١-٢-١)-وجوه الاتصال التتابعي:

٣-١-٢-١-١)-الوصل السببي والحجاج[١]:

يرمي هذا الحجاج إلى المرور في الاتجاهين من السبب إلى النتيجة ومن النتيجة إلى السبب ، وغايته تقويم الأحداث والأشياء ، وهو إما :

* حجاج يرمي إلى الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي : اجتهد فنجح .
* أو حجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما وقع سبب أحدثه وأدى إليه : نجح لأنه اجتهد .
* أو حجاج يرمي إلى التكهن بما سينجز عن حدث ما من نتائج : هو يجتهد فسينجح .

٣-١-٢-١-٢)- حجة التبذير:

تقوم هذه الحجج على الاتصال والتتابع دون اعتماد على السببية ، ويمثل لها بيرلمان بالتبرير الذي يقدمه عادة صاحب البنك لشريكه الذي أفلس ، فيقول : «بما أننا شرعنا في إنجاز هذا العمل وضحينا في سبيله بما لو أعرضنا عن تمامه لكان مضيعة للمال والجهد فإنه علينا أن نواصل إنجازه»[٢] .

٣-١-٢-١-٣)- حجة الاتجاه:

تهدف إلى التحذير من مغبة اتباع سياسة المراحل التنازلية ، أو مغبة انتشار ظاهرة ، وتسمى أيضا حجة الانتشار أو حجة العدوى ، ونمثل لها بالمثل القائل «من سرق بيضة سرق ثور» .

---

(1) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p:354.

(2) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique p375.

٣-١-٢-٢)-وجوه الاتصال التواجدي:

٣-١-٢-٢-١)- الشخص وأعماله:

ينطلق هذا الحجاج من مبدأ أن الأعمال تكشف جوهر الشخص، وبالمقابل قد يكون الشخص وما نعرفه عنه يفسر لنا أعماله، أي أن هناك تداخل بين الشخص والعمل.

٣-١-٢-٢-٢)- حجة السلطة:

يستمد هذا النوع من الحجج قوته الإقناعية من نفوذ المتكلم وسلطته، وتتعدد مصادر وأشكال هذه السلطة فقد تكون «دينية» أو «سياسية» أو «علمية».

٣-١-٢-٢-٣)-الاتصال الرمزي:

تقوم هذه الحجج على الانتقال من الرمز إلى ما يرمز إليه كالانتقال من العلم إلى الوطن.. وتعتمد على ما تثيره هذه الرموز من عواطف وأحاسيس تحكمها العلاقة بين الرمز والمرموز إليه، ويفقد الرمز حجيته إذا كان المخاطبون لا يقرون بوجود الاتصال بينه وبين المرموز إليه، كما أنه يستخدم في مخاطبة جمهور عام وهو ما يؤكد بعده اللاعقلي.

٣-١-٣)-الحجج المؤسسة لبنى الواقع:

تقوم هذه الحجج على مستويين اثنين: «أولهما تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة، كالمثل الذي يؤتى به لتأكيد الفكرة المطروحة.. ويلحق بالمثل الاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القواد الخالدين في نظر الجماعة المقصودة.. أما ثانيهما فيقوم على استخدام التمثيل استخداما حجاجيا»[1]:

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص ١٣٢/١٣١.

٣-١-٣-١)- تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة:

يقوم هذا النوع من الحجاج على حالات خاصة منها :

* المثل : يأتى به عادة في الحالات التي لا توجد فيها مقدمات ، والحاجة به تقتضي وجود خلافات في شأن القاعدة الخاصة التي جيء بالمثل لدعمها وتكريسها ، ويسميه بيرلمان بالحجاج من الخاص إلى الخاص[١] ، والغاية من المثل تأسيس القاعدة .
* الاستشهاد : دوره في الحجاج هو تقوية درجة التصديق بقاعدة ما ، ويؤتى به للتوضيح ، وإذا كان المثل يكون عادة سابقا للقاعدة ، فإن الاستشهاد يكون لاحقا قصد تقوية حضور الحجة وقصد جعل القاعدة المجردة حسية وملموسة .
* النموذج وعكس النموذج : ومداره على كائن نموذج يصلح للحض على الاقتداء به (النموذج) ، أو يكون الحض على عدم الاقتداء به (عكس النموذج) .

٣-١-٣-٢)- الاستدلال بوساطة التمثيل:

يقوم التمثيل على إبراز تشابه العلاقات مما يجعله أداة حجاجية مهمة ، وهو بذلك مواجهة بين بنى متشابهة وإن كانت من مجالات مختلفة ، فهو «يسقط علاقات مستفادة سابقا على مجال مجهول أو يبدع علاقات جديدة من منطلق تشابه ما ، فالذهن ينظر إلى ما يجري «أمامه» من خلال الأحكام التي تكونت فيه على ضوء الخبرة السابقة ، ولا تعرف بدون إسقاط المعروف ، ولا وجود لذهن فارغ»[٢] ، مما يسهل العملية الحجاجية ويؤدي إلى حصول الإقناع . و يمثل له

(1) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique P 478.

(٢) الصلة بين التمثيل والاستنباط ، ضمن التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه ، ص٣٠ .

عبد الله صولة من القرآن الكريم[١] بقوله تعالى : ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أوليـاء كـمـثل العنكبـوت اتخـذت بيـتـا ، وإن أوهن البـيـوت لبـيت العنكبوت﴾[٢] .

وإذا كـان التـمـثـيل - حـسب بيـرلمان- يؤدي «دورا في الابتكار والتـدليل والحجاج عبر عمليات التطوير والتمديد التي يسمح بها»[٣] ، فإنه نبه «على كون فعالية التمثيل لا تثبت على حال واحدة ، لأن منتوجاتها قابلة للمراجعة عندما تواجه الوقائع . فيؤكد على أن المعارف التي نحصل عليها بالعملية التمـثيلية ظنيـة ، ولا يمكن أن تضـاهي المعـارف الناتجة عن إعـمـال البـرهان»[٤] . ومن ثم فالتمثيل «أداة للتدليل غير مستقرة»[٥] ، لكنه يبدو أنه من المحال جدا الاستغناء عنه كلما تطرق العقل لميدان جديد أو مألوف قليلا .

وقد ميز بيرلمان بين التمثيل في الحجاج والتمثيل في الإبداع بقوله : «ففي حين لا شيء يمنع من أن يطول التـمـثـيل ويمتـد في مجـال الإبداع ، يطلب من التمثيل في مجال الحجاج أن يلتزم بحد معين وإلا فقد طاقته الإقناعية ، وإن إطالة التمـثيل يكون أحيانا لغاية أن يثبت صحته لكن تلك الإطالة قد تجعله عرضة لتجريح المخاطب»[٦] . فبيرلمان يفرق بين التمثيل باعتبار دوره في الابتكار وباعتبار دوره في التدليل والبرهنة ، فإذا «اتخذنا وجهة النظر الأولى ، لا شيء يمنع من تمديد تمثيل ما أبعد ما يمكن لنرى ماذا يمكن أن يعطي . ومن وجهة نظر

---

(١) الحجاج أطره ومنطلقاته ص٣٣٩ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤١ .

(3) Chaim Perelman: Logique et argumentation. Presses Universitaires de Bruxelles. 1968. p135

(٤) الصلة بين التمثيل والاستنباط ، ضمن التحاجج : طبيعته ومجالاته ووظائفه ، ص٣٠ .

(5) Traité de l'arcumentation p527.

(6) Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique P .518.

البرهنة يجب الاحتفاظ به في الحدود التي لا يمكن تجاوزها بدون خسارة ، إذا كنا نرغب في تقوية قناعة ما»[1] .

والخلاصة أن التمثيل -حسب بيرلمان- آلية خصبة لإنتاج الأفكار وتحقيق الإقناع شريطة أن يراعي المتكلم في إنتاجه سياق الخطاب وأحوال المخاطبين .

٣-٢)- طرائق الانفصال في الحجاج:

يقتضي الانفصال بين العناصر في الحجاج وجود وحدة بينها ومفهوم واحد لها ، ويقوم هذا النوع من الحجاج على كسر هذه الوحدة بالفصل بين العناصر المتضامنة ، ويقصد بطرائق الانفصال «التقنيات التي تستخدم بهدف تفكيك اللحمة الموجودة بين عناصر تشكل كلا لا يتجزأ ، وغالبا ما تستخدم هذه التقنيات في تفكيك الأبنية الحجاجية التي يخشى المتكلم على نجاح حجاجه منها»[2] ، ومرد هذا الفصل هو الزوج الظاهر/ الواقع أو الحقيقة .

إن الأشياء أو الأشخاص أو المفاهيم لها حدان : ظاهر زائف وواقع حقيقي ، فالظاهر ما يدركه الفكر منذ البداية ، في حين يزودنا الحقيقي بالمقياس والقاعدة لكشف تناقضات الظاهر «ويتمثل دور الفصل الحجاجي . . في حمل السامع أو القارئ على تمثل مظهرين اثنين للشيء الواحد . . مظهر زائف ظاهري خداع براق من حيث أنه أول ما تصادفه الحواس ويراه الفكر ، ومظهر هو الحقيقة عينها»[3] ، وتتجلى طرائق الفصل في الأقوال والخطابات في عبارات من قبيل[4] :

---

(١) الصلة بين التمثيل والاستنباط ص٣١ .

(٢) الحجاج في البلاغة المعاصرة ص١٢٧ .

(٣) الحجاج أطره ومنطلقاته ص٣٤٦ .

(٤) نفسه ، ص٣٤٥ .

- ظاهري/حقيقي Apparent/réel .

- ظاهريا/حقيقية Apparemment/réellement .

كما يعبر عنها بطرائق من قبيل :

- هو شبه كذا Pseudo مثل شبه علمي pseudo- scientifique .

- اللا كذا : اللاعلمي . . .

- غير كذا : غير صحيح . . .

- بعض الجمل الاعتراضية كقولنا : أن هذا البطل ، إن صح أنه بطل ، . . .

- بعض الأفعال مثل : يزعم ، يتوهم في قولنا : يزعم أو يتوهم أنه بطل .

- وضع بعض الأقوال بين قوسين أو مزدوجتين كأن نكتب : لقد كنت يومها» بطلا» .

ويرى المؤلفان أن أنجع الكلام في الحجاج ما جاء على قدر المقام ، إذ يتطابق موضوع الخطاب وأسلوبه فيتجنب حصول ضروب الفصل السابقة .

صفوة القول إن الخطابة الجديدة ، التي أسسها بيرلمان وتيتكاه ، خطابة تهدف إلى التأثير والتغيير ، لكن على أسس معقولة ومقبولة وهما بذلك «يمزجان بين الخطابة الأرسطية والجدل الأرسطي»[1] ، وقد خلص «مصنف في الحجاج : الخطابة الجديدة» الحجاج «بصراحة وبجرأة»[2] من سطوة المنطق الصوري المجرد ، وربطه بمجال العلوم الإنسانية والفلسفة والقانون ،كما حاول أن يجعل للخطابة بعدا عقليا يخلصها من الشحنة السلبية التي صارت لصفة» خطابي» ، والتي التصقت ولأزمنة طويلة بكل قول مغالط ومناور يتلاعب بالمشاعر والعقول ، كما أن «الثورة الكبرى في البلاغة خلال هذا القرن (القرن العشرين) قد أنجزها سواء سلمنا بذلك أم لا شايم بيرلمان . . . هناك طريقة جديدة لفهم البلاغة وطبيعتها ودورها ، إن آثاره ستقرأ خلال القرون المستقبلية

---

(١) الحجاج أطره ومنطلقاته ص٣٤٩ .

(٢) نفسه ، ص٣٤٨ .

كما يقرأ شيشرون وكينتليان ، في حين أن بلاغيين آخرين . . . سيلحقون بغبار البيبليوغرافيات العالمة التي لا تثير في أحسن الأحوال إلا اهتمام المتخصصة الأكثر تخصصا»(١) .

II- الحجاج في اللغة :

وضع اللغوي الفرنسي أزوالد ديكرو O.ducrot أسس نظرية الحجاج في اللغة منذ بداية السبعينات ، بوصفها نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية ، قبل أن ينضم إليه زميله أنسكومبر J.Anscombre ليشكلا معا ، من خلال أعمالهما ، تيارا تداوليا متميزا انبثق «من داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها أوستين وسورل»(٢) ، كما تأثرا» بأبحاث بنيفست حول التلفظ . . . وحوارية باختين»(٣) . وتنطلق نظرية الحجاج في اللغة «من فكرة مفادها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير ، وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج ، وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية»(٤) .

وقد قارن الباحثان الحجاج من زاوية مختلفة عن بيرلمان وتيتيكاه ، فإذا كان هذان الأخيران حكمتهما الرؤية البلاغية والفلسفية ، فإن الحجاج في نظرية ديكرو وانسكومبير لا يبنى على أسس فلسفية أو منطقية أو بلاغية ، بل هو» مؤسس على بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب»(٥) .

---

(1) Michel Meyer: Histoire de la rhétorique dés grec à nos jours. Livre de poche. Paris 1999. p259/260.

(٢) أبو بكر العزاوي : الحجاج في اللغة ، مجلة فكر ونقد السنة ٧ العدد ٦١ سبتمبر ٢٠٠٤ ص ٥٤ .

(٣) خطاب المناظرة ص٨١ .

(٤) أبو بكر العزاوي : سلطة الكلام وقوة الكلمات ، مجلة المناهل ، وزارة الثقافة والاتصال المغربية ، السنة٢٥ ، العدد ٦٢/٦٣ ، صفر ١٤٢٢/٢٠٠١ ، صص : ١٤٢/١٤٣ .

(٥) الحجاج في اللغة ص٥٥ .

وهكذا أصبح لأبنية اللغة الداخلية ، معهما ، وظيفة حجاجية وأصبح الحجاج «خاصية لغوية دلالية وليس ظاهرة مرتبطة بالاستعمال في المقام»[1] ، وتقوم نظرية الحجاج في اللغة كغيرها من النظريات على مجموعة من المفاهيم المنظمة لجوهر العلاقات داخلها .

١ - التداولية المدمجة :

تنطلق التداولية المدمجة -والباحثان من روادها- من موقف مبدئي مفاده : «أن اللغة تحقق أعمالا وليست وصفا لحالة الأشياء في الكون»[2] ، فهي تعارض التصنيف الخطي السائد في النظريات اللسانية التقليدية ، الذي يجعل اللغة مستويات ثلاثة : التركيب والدلالة ثم التداول ، «فقواعد الصياغة السليمة (التركيب) مستقلة على المستوى الخبري للملفوظ (الدلالة) ، وهذا المحتوى الخبري ، بدوره ، مكتف بذاته لا يحتاج إلى معطيات النشاط التكلمي والسياق الذي يندرج فيه (التداول)»[3] .

لقد وجه الباحثان (ديكرو وأسكومبر) ضروبا من النقد لهذا التصور ، ورفضا الفصل بين تلك المكونات (تركيب ،دلالة ،تداول) ففي «جل الأقوال بعض السمات التي تحدد قيمتها التداولية باستقلال عن محتواها الخبري»[4] .

إن التداولية المدمجة لا تفصل بين البعد التداولي والبعد الدلالي في الخطاب ، فالمظهر التداولي مدرج في الدلالة ، كما أنها تبحث في الجوانب

---

(١) شكري المبخوث : نظرية الحجاج في اللغة ضمن أهم نظريات الحجاج ، ص ٣٦٢ .

(٢) نظرية الحجاج في اللغة ، ضمن أهم نظريات الحجاج ، ص٣٥٤ .

(٣) الراضي رشيد : الحجاجية اللسانية عند أنسكومبر وديكرو ، عالم الفكر ، العدد ١ مجلد ٣٤ ، ص ٢١٥ .

(4) Anscombre(JC) et Ducrot (O) : L'argumentation dans la langue, Didier Larousse, Juin 1976, p18.

التداولية المسجلة في بنية اللغة، لأن «معنى أي ملفوظ وحتى في الحالة التي نقدم فيها للكلمة مفهومها الأكثر ضيقا، أي الأكثر نحوية، لا يمكن أن يوصف دون استحضار مقصديات معينة لتلفظه»[1]، فاللغة في سياق التداولية المدمجة تتجاوز طابعها الإخباري والوصفي، وتمتلك قوة إنجازية فتحقق أعمالا وتحدد مواقفا فهي تتضمن «مجموعة من الإجراءات الخاصة التي تسمح بإقامة تنوع كبير في العلاقات الإنسانية»[2].

نخلص إلى أن مشروع التداولية المدمجة هو بيان القواعد المتحكمة في تكوين الخطاب وترابطاته الممكنة، وإثراء الوصف الدلالي ضمن المكون اللغوي، والتقليل إلى أقصى حد من اللجوء إلى قوانين الخطاب، فما هو دور الحجاج في إطار هذه النظرية؟

إن أساس نظرية الحجاج في اللغة كما حددها ديكرو و أنسكومبر هو اعتبار الحجاج مكونا من مكونات البنية اللغوية، فهو يكون داخل اللغة، ولا تحدده اعتبارات فلسفية أو منطقية أو بلاغية خارجية، فإذا كان الاستدلال العقلي مرتبطا بالمنطق وقوامه ترابط القضايا، فإن الحجاج مجاله الخطاب نفسه وهو «عندهما كامن من حيث بنيته، في اللغة ذاتها... لا في ما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بنى شبه منطقية أو شكلية أو رياضية»[3]، فالحجاج يتمثل أساسا في «إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب»[4]، وهو «متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج وبعضها الآخر بمثابة النتائج»[5].

---

(١) خطاب المناظرة ص٨٢

(٢) الحجاج في اللغة ص٢٦ .

(٣) الحجاج في القرآن ص٣٦ .

(٤) أبو بكر العزاوي : البنية الحجاجية للخطاب القرآني سورة الأعلى نموذجا، مجلة المشكاة، العدد ١٩، وجلة١٩٩٤، ص١٢٥ .

(٥) نفسه ص١٢٥ .

ويتحقق الحجاج داخل اللغات الطبيعية من خلال مؤشرات لغوية خاصة به ، تتمثل في الروابط والعوامل وغيرها . . . هذه المؤشرات تتجاوز طابعها الإخباري إلى «إعطاء توجيه حجاجي للقول وتوجيه المخاطب في هذا الاتجاه أو ذاك»[1] .

٢ - نظرية السلالم الحجاجية :

تقوم نظرية السلالم الحجاجية على التدرج القائم بين الأقوال والحجج في علاقتهما بالنتائج ، حيث إذا كانت مجموعة من الأقوال تمثل حججا تدعم نتيجة واحدة ، فإن هذه الحجج تتفاوت من حيث قوتها .

وسنستعير منذ البداية المثال الذي ذكره الدكتور طه عبد الرحمان[2] ، لنبرز من خلاله مجموعة من المفاهيم المؤسسة لهذه النظرية ، نعتبر الأقوال الآتية :

ق١ : حصل زيد على الشهادة الابتدائية .

ق٢ : حصل زيد على الشهادة الثانوية .

ق٣ : حصل زيد على شهادة الإجازة .

حججا للنتيجة «ن» وهي : «كفاءة زيد العلمية» .

إن «ق٣» أقوى من «ق٢» بالنسبة إلى «ن» ، و «ق١» هو أضعف الأقوال الثلاثة بالنسبة إلى «ن» وهذه العلاقة الترتيبية للحجج والتي نرمز لها ب :

ن

ق٣ـ

ق٢ـ

ق١ـ

تشكل سلما حجاجيا ، يقول ديكرو : «إن أي حقل حجاجي ينطوي على

---

(1) Ducrot. O.: Les échelles argumentatives, Paris, Les éditions de minuit 1980 p:15.

(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ص١٠٥ .

علاقة ترتيبية لحجج نسميه سلما حجاجيا»[1] . وقد عرف طه عبد الرحمان السلم الحجاجي بأنه : «مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية ومستوفية للشرطين التاليين :

* أن كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته ، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال الأخرى .
* وأن كل قول في السلم كان دليلا على مدلول معين ، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى»[2] .

ولما كانت الأقوال الحجج «ق١» و«ق٢ «و«ق٣» ، في نظر المتكلم ، تدعم نتيجة واحدة «ن» وهي : «كفاءة زيد العلمية» ، فإنها تنتمي إلى قسم حجاجي واحد ، ويتميز القسم الحجاجي ، حسب ديكرو ، بالنسبية لأنه مرتبط بالوضعية التي يتلفظ فيها المتكلم ، ولأنه محكوم بالنتائج ، فمتى تغير اختيارها تغير القسم الحجاجي[3] .

وارتباطا بمفهوم السلم الحجاجي يبرز مفهوم آخر هو مفهوم الاتجاه الحجاجي ، ومداره أن الخطاب يكون مشتملا على بعض الروابط والعوامل الحجاجية المتضمنة لمجموعه من الإشارات والتعليمات الموجهة للخطاب ، هذا التوجيه هو الذي «يوسع أو يضيق الاحتمالات الحجاجية ليقودها في اتجاه معين تحدده البنية اللغوية للخطاب»[4] ، فما المقصود بالروابط والعوامل الحجاجية في نظرية الحجاج في اللغة؟

إن التعليمات والتوجيهات المحدودة لاتجاه الخطاب ، قد تقع داخل الجملة ، فتعتبر بذلك «عوامل حجاجية» ، وظيفتها هي حصر الإمكانات الحجاجية التي

---

(1) Les échelles argumentatives, p18.

(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ص١٠٤/١٠٥ .

(٣) خطاب المناظرة ، ص٨٦ .

(٤) نفسه ، ص٨٥ .

يتيحها القول ، وقد تقع بين الجمل «وتربط بين وحدتين دلاليتين (أو أكثر) في إطار استراتيجية حجاجية واحدة»[1] ، فتعتبر بذلك «روابط حجاجية» وهي نوعان :[2]

* روابط مدرجة للحجج (لأن ، لكن ، حتى ، بل . .)
* روابط مدرجة للنتائج (إذن ، أخيرا ، لهذا ، بالتالي . . .)

٣ - المبادئ الحجاجية أو المواضع:

يعتبر ديكرو وأنسكومبر أن الانتقال من الحجة إلى النتيجة ، أو العلاقة الحجاجية تتطلب وجود موضع أو مواضع ، وهي عبارة عن مبادئ أو قواعد عامة أو أفكار مشتركة ومقبولة ، لدى جمهور واسع «وهي تقابل مسلمات الإنتاج المنطقي في المنطق الصوري والرياضي»[3] ، وتمتاز هذه المواضع أو المبادئ الحجاجية بمجموعة من الخصائص :[4]

* أنها مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة .
* العمومية : فهي تصلح لعدد كبير من السياقات المختلفة والمتنوعة .
* التدرجية : أنها تقيم علاقة بين محمولين متدرجين أو بين مكونات السلم حجاجي .
* النسبية : فإلى جانب السياقات التي يتم فيها تشغيل مبدأ حجاجي ، هناك إمكان إبطاله ورفض تطبيقه باعتباره غير وارد وغير ملائم للسياق المقصود ، أو يتم إبطاله باعتماد مبدأ حجاجي آخر مناقض له .

---

(١) الحجاج في اللغة ، ص٣٥ .

(٢) نفسه ص٦١ .

(٣) الحجاج في اللغة ص٦١/٦٢ .

(٤) نفسه ص٦٢ .

IV- البرالوجيزم أو الأساليب المغالطية:

تحظى دراسة البرالوجيزم باعتباره نوعا من أنواع المحاجة وقسما من أقسام المنطق اللاشكلي ، باهتمام متزايد في الأبحاث المنطقية الحديثة ، وفي هذا الخضم تندرج إسهامات الباحثين : Douglas waltonو Jhon Woods خاصة في مؤلفهما الموسوم بـ«نقد الحجاج» «Critique de l'argumentation» ، الذي تناولا فيه أصنافا من البرالوجيزم ، وكان منهجهما فيه «تنظيريا لا يخلو من نزعة إلى الجدل»[1] .

استعمل الباحثان مصطلح Fallay وهو مصطلح من أصل لاتيني Fallacia ، يعني المغالطة والمكر والخداع والحيلة ، بينما استعمل فريق الترجمة الفرنسية[2] مصطلح البرالوجيزم Parlogisme ، وهو من أصل يوناني يتكون من جزأين Para وتعني Faux- à coté (جـانب/خـاطئ) ، وLogismos ويعني calcul- raisonnement فهو إذن يعني حجاجا خاطئا[3] .

وتعود الأصول العميقة لمفهوم البرالوجيزم إلى أرسطو ،خاصة عند تمييزه بين التبكيت الحقيقي والتبكيت الظاهري أو السوفسطائي ، فالتبكيت السوفسطائي «هو القياس الذي يوهم أنه بهذه الصفة من غير أن يكون كذلك»[4] ، وهو بذلك نوع من الحجاج يوهم بالصحة في ظاهره ، وهو يفتقرها في حقيقته ، فهو «وإن كانت صورته قياسية إلا أن مادته مقدمات ليست مشهورة وإن ظهرت أنها

---

(١) محمد النويري : الأساليب المغالطية مدخلا لنقد الحجاج ، ضمن أهم نظريات الحجاج ، ص٤٠٥ .

(٢) أنجز الترجمة فريق الحجاج بإشراف Christien Plantin بمساعدة عدد من المناطقة والبحاثة خصهم Plantin بالذكر والثناء في آخر مقدمته .

(٣) الأساليب المغالطية ، ص٤٠٦ .

(٤) ابن رشد تلخيص الخطابة : تلخيص منطق أرسطو ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، المجلد السابع ، كتاب سوفسطيقى ، ص٦٦٩/٦٧٠ .

مشهورة»[1] ، وبقيت «هذه المفارقة بين الظاهر الذي يوهم بالإيجاب والباطن القائم على الخطأ»[2] ، ماثلة في تحديد البرالوجيزم عبر التاريخ ، وهو التصور نفسه الذي نجده عند الباحثين بإلحاحهما على عنصر المغالطة إلى حد اعتبار البرالوجيزم طعما يتوسل به المتكلم بغية تحقيق غايات معنية[3] .

ولإبراز تصور الباحثين نقدم جملة من نماذج الأساليب المغالطية التي درساها في مؤلفهما :

١ - الحجاج وجه ذات[4].

يقوم الحجاج وجه ذات على تناقض منطقي له دلالته ، من حيث أنه طعم يوظفه المتكلم بغية تحقيق غاية ما[5] ، ويميز الباحثان بين نوعين من الحجاج وجه ذات .

١-١- الحجاج وجه ذات غير المباشر:

وينقسم بدوره إلى أربعة أصناف تبنى على التناقض :

أ)التناقض المنطقي : وهو حجاج لا يراعي مبدأ عدم التناقض ، إذ يثبت الشيء وينفيه في نفس الخطاب ، مما يضعف الحجة بل ينقضها ، ويتخذ الشكل التالي[6] :

---

(١) منطق الكلام ، ص٢٠١ .

(٢) الأساليب المغالطية ، ص٤٠٩ .

(3) John woods et Douglas walton: Critique de l'argumentation 1992 p18.

(٤) سنعتمد ترجمة محمد النويري –للجهاز المفاهيمي الذي وظفه الباحثان– في مقاله الأساليب المغالطية ، ضمن أهم نظريات الحجاج .

(5) Critique de l'argumentation p19.

(٦) نستعمل الحروف في هذا المثال والأمثلة التالية بهذه المعاني : أ = شخص ، ق= قول ، ش = شيء ، ع = عمل ، م = مجال ، س= استنتاج .

(أ) يثبت (ق) و ليس (ق) .

وهذا تناقض من الناحية المنطقية .

ب) التناقض العملي : يعرفه الباحثان كما يلي «بالنسبة إلى كل (ق) جائزة منطقيا ، وكل شخص(أ) ، فإن (ق) متناقضة عمليا عندما يقرر (أ) (ق) ويعمل بشكل سالب ل (ق)»[1] ، ويمثل له الباحث محمد النويري[2] بقوله تعالى : «أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم»[3] التي نزلت في اليهود الذين كانوا يأمرون الناس بالإيمان ويضمرون الكفر[4] ، ونرسم هذا النوع من الحجاج كما يلي :

(أ) (ق) (ش)

(أ) (ع) ضد (ش)

إذن : (ق) (أ) ضد (ع) (أ)

غير أن التناقض العملي غير كاف لإثبات أن قضية ما كاذبة ، لأنه يتجاهل حقيقة أساسية مفادها «أن التقلب في الأحوال الاعتقادية ، والانتقال بين الآراء والمذاهب أصل في الحياة الفكرية لدى الإنسان»[5] ، فالأصل أنه مهما كانت أحوال الشخص الذي نحاوره «يظل من اللازم مناظرته وكسر دعواه بدل إضاعة الجهد في تجريحه ، وإعاقة المحاورة معه بأي سبيل ، بل إن هذا المسلك قد يكون له مفعول عكسي ، بحيث يعتقد السامعون أن ذلك ما هو إلا تهرب ناتج عن عجز المعترض عن كسر الدعوى ذاتها ، فيتولد لديهم الميل

---

(1) Critique de l'argumentation p23.

(١) الأساليب المغالطية ص٤١٨ .

(٢) سورة البقرة ٤٤ .

(٣) جلال الدين محمد أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمان السيوطي : تفسير الجلالين وبذيله أسباب النزول للسيوطي دار الفكر ، بيروت لبنان ، ط ٢ ، ص ١٤/١٣ .

(٤) الحجاج والمغالطة ص٣١ .

إلى الاعتقاد في صحتها»,٨٠٠ لا سيما أنه «لا يصدق بالضرورة أن العمل بأمر ما دليل على أن العامل به معتقد لمقتضياته الفكرية»[١] .

ج) التناقض الأخلاقي العملي : وهو أن ينكر المتكلم شيئا يقع فيه هو نفسه[٢] ، ومثاله : اتهام بعض الناس للصيادين بالوحشية ، فإذا قدمت لهم لحوم الصيد أكلوها بشراهة .

د) التناقض الإثباتي : يقع فيه المتكلم مثلا عندما يقول : «لا أتكلم أبدا» ، فنفي الإثبات (عدم التكلم) ينقضه الإثبات نفسه (التكلم)[٣] .

٢-٢)-الحجاج وجه ذات الاستهجاني:

انطلق الباحثان في دراسة هذا النوع من الحجاج من دراسة الفرق بين الخبرة ونقيض الخبرة ، فالخبير يفوق الإنسان العادي بكفاءة نظرية في مجال ما ، تجعل نسبة نجاح توقعاته كبيرة ، ونقيض الخبير لا تتوفر فيه هذه الشروط[٤] ، ومن ثم فإن استدعاء الخبير «فعل مشروع ولا غبار عليه إذا تم وفق الضوابط والأصول المعقولة ، إلا أنه قد ينحرف عن ذلك ليسقط في مسالك السفسطة»[٥] ، فوجه المغالطة في هذا النوع من الحجاج يكمن في ادعاء الخبرة والكفاءة في مجال من المجالات دون امتلاكها حقيقة ، وقد صاغ الباحثان هذا النوع من الحجاج كما يلي :[٦]

---

(١) الحجاج والمغالطة .

(٢) نفسه ص٢٢ .

(3) Critique de l'argumentation 1992 p:25.

(4) Ibid p24.

(5) Critique de l'argumentation pp: 27/28/29.

(٦) الحجاج والمغالطة ص٢٣ .

(7) Critique de l'argumentation p30.

* يثبت (أ) (ق) فيما يتعلق بمجال (م) ويستنتج (س) .
* ولكن وبالرغم من أني لست أنا نفسي خبيرا في مجال (م) ، فأنا أعلم أن (أ) ليس خبيرا هو الآخر في هذا المجال .
* بيد أن الحجاج الجاد في مجال (م) يحتاج إلى كفاءة خاصة .
* فليس من داع إلى قبول نتائج (أ) ، وإن كان وفق ما أعرف قد أقنع بها بمقدمات مقبولة .

٢ - الاحتجاج بالسلطة:

وضع الباحثان خمسة شروط أساسية حتى تكون المحاجة بالسلطة سليمة وهي[1] :

* ينبغي أن ندرك الحجة إدراكا سليما .
* ينبغي أن يكون للسلطة كفاءة حقيقية ومتأكدة في مجالها .
* ينبغي أن يتعلق رأي الخبير بمجال كفاءته المخصوصة .
* ينبغي أن يكون رأيه قائما على دليل .
* ينبغي أن تتوفر تقنية وفاق ضرورية للبث في الخلافات بين سلطات مشهود لها بنفس الكفاءة .

ويقصد بالسلطة «سلطة المنزلة العلمية والفكرية للمرجع الذي نسوق الكلام منسوبا إليه ، أو نذكر اسمه في معرض دفاعنا عن الفكرة مدعين أنه من المناصرين لها أيضا»[2] ، وقد حددا صيغتها العامة كالتالي[3] :

* (أ) سلطة موثوق بها في مجال (م) .
* (ق) (م) .

(1) Ibid pp 40/46.

(٢) الحجاج والمغالطة ص٢٣ .

(3) Critique de l'argumentation p:46.

* (أ) يثبت (ق) .
* (ق) يتلاءم مع خبر مفيد ثم الحصول عليه بوسائل أخرى إذن (ق) .

إلا أن السؤال المطروح هو : هل هذا النوع من الاحتجاج استنباطي أم استقرائي؟

يجيب الباحثان بأن الاستدلال في الحجة بالسلطة ليس استنباطيا ولا استقرائيا ، إنما هو استدلال محتمل معقول[1] ، فما يثبته (أ) يمكن أن يختلف مع ما يثبته (ب) [(أ) و (ب) سلطتان موثوق بهما في نفس المجال] ، ثم إن ما يقبل من سلطة علمية في مجال لا يقبل منها في مجال آخر .

وقد اقترح النويري[2] لتوضيح المسألة مثالا من التراث العربي ، مفاده أن الحجاج بن يوسف الثقفي لما حضرته الوفاة قال : «اللهم اغفر لي فإن الناس يظنون أنك لا تفعل» ، فخاض الناس في إمكانية أن يغفر الله للحجاج ، حتى حلف رجل بالطلاق الثلاث من زوجته أن الحجاج من أهل النار ، فاستفتى طاووس ، فقال له : «يغفر الله لمن يشاء وما أظنها إلا طلقت» ، ثم استفتى الحسن البصري ، فقال له : «اذهب إلى زوجتك وكن معها فإن لم يكن الحجاج في النار فما يضركما أنكما في الحرام» .

هكذا نجد أن طاووسا والحسن البصري سلطتان في مجال واحد هو الفقه ، وأفتيا برأيين متناقضين ، وإذا كانت فتوى الحسن البصري رجحت فليس لأنه أوسع فقها وأكثر علما ، ولكنها رجحت لأنه الحسن البصري! فاستمدت الحجة أهميتها من الشخص الذي صاغها ، «وهذا هو موطن المغالطة»[3] ، فلا وجود لسلطة كاملة مطلقة معصومة ، مما يجعل الحجاج بالسلطة يطرح مشاكل سياقية ونفسية قد توقع في بعض المزالق ، إذا لم يدرك الجانب المغالطي فيه .

---

(1) Critique de l'argumentation p:57.

(٢) الأساليب المغالطية ص٤٢٥ .

(٣) الأساليب المغالطية ص٤٢٦ .

٣- الحجاج بالقوة:

هو حجاج يستند إلى التهديد ومنه يستمد حججه ، فيكون الإقناع فيه استسلاما وخضوعا ، ويتخذ عادة إحدى الصيغتين التاليتين[١] :

افعل كذا وإلا ضربتك .

لا تفعل كذا وإلا ضربتك .

ووجه المغالطة فيه أن «مشاعر الخوف التي تنتاب الفرد أمور ذاتية لا تغير من حقائق العقل الراسخة أو شواهد الواقع الثابتة»[٢] ، فهدف المتكلم وجوب تحقيق القول بالانصياع والتسليم ، وقد مثل النويري[٣] له بخطبة زياد بن أبيه البتراء في أهل البصرة حيث قال : «كفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه .»

فزياد لا يهمه ما في السرائر وإنما تهمه الأفعال والأقوال ، فيقول : «إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا ، ولم أكشف له سترا حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل ذلك أناظره» .

إن حجاج القوة يروم تغيير أو تكييف سلوك المخاطب ، أما الاعتقاد والاقتناع فيغدوان أهدافا ثانوية ، فالمحتج بالقوة لا يراعي قناعات المخاطب ولا أفكاره واعتقاداته ، وحججه لا تستقيم منطقيا ، إذ تقتضي الحجة مقدمة أو مقدمتين هي مبادئ أساسية توفر قانون العبور إلى النتيجة ، في حين أن الحجة في حجاج القوة تبنى على «مقدمات من صنف افعل- لا تفعل ، لا يمكن أن نخضعها إلى اختبار الصحة والخطأ أو التصديق والتكذيب ، فهي صياغة إنشائية لا تحتمل هذا الاختبار»[٤] .

(١) نفسه ص٤٢٦ .

(٢) الأساليب المغالطية ص٣٢ .

(٣) نفسه ص ٤٢٦ /٤٢٧ ، وتنظر الخطبة البتراء في البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٦٣/,٦٤

(٤) الأساليب المغالطية ص٤٢٨ .

ولنتأمل قول يزيد بن المقنع في خطبته أمام ملأ حشده معاوية بن أبي سفيان ليفرض ولاية العهد لابنه يزيد، لندرك طبيعة المغالطة في الحجاج بالقوة إلى درجة تجعلنا نتساءل هل يمكن اعتباره حجاجا؟ فهو يوجه المخاطب بالقوة إلى أن الحالة السلبية ينبغي ألا تحصل[1]، يقول ابن المقنع: «هذا أمير المؤمنين (وأشار إلى معاوية)، فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد)، ومن أبى فهذا (وأشار إلى السيف)».

إنها خطبة لا تفهم إلا في السياق واعتبار الإشارة وإدراك طبيعية السياسة الأموية، إذ ذاك لن نعجب من تعليق معاوية عليها بقوله لابن المقنع: «اجلس فأنت سيد الخطباء»[2].

4- الحجاج أو المحاجة الجماهيرية:

يهدف المتكلم في الحجاج الجماهيري إلى إثارة حماس جمهور معين اتجاه فكرة معينة ودفعهم إلى اعتناقها، فيتزايد نجاح المحاجة كلما أبدى الجمهور تحمسه وانفعاله إلى النتيجة» وكثيرا ما نجد هذا النوع من المحاجة في الخطاب السياسي والسياسي الاقتصادي والإشهاري...»[3]، ومركز هذا النوع من المحاجة هو جمهور خاص[4]، فالمتكلم لا يعنيه أن يبني حجته على مقدمات حرص أن تكون صحيحة حتى يصل إلى نتائج يقينية، بل يهتم أكثر بما يضمن اعتناق الجمهور لفكرته والتحمس لها[5]، وهنا يكمن وجه المغالطة في هذه المحاجة، فهي تستند إلى العاطفة «مما يجعل العلاقة بين مضامين القضايا في

---

(1) Critique de l'argumentation p:63.

(٢) الكامل في التاريخ، المجلد٣، ص٥٠٨.

(٣) الأساليب المغالطية، ضمن أهم نظريات الحجاج، ص٤٣٠.

(4) Critique de l'argumentation p:70.

(٥) الأساليب المغالطية ص٤٣٠.

المقدمات والنتيجة علاقة منفصمة»[١] . ويتخذ هذا النوع من الحجاج الصيغة التالية :

- الكل يعتقد (ق) إذن (ق) صحيحة .
- أو الكل لا يعتقد (ق) إذن (ق) خاطئة[٢] .

وتتخذ هذه السفسطة ثلاثة أشكال «كلها تندرج تحت حجج الأكثرية الباطلة»[٣] :

* سفسطة ما يراه الناس[٤] : ويحتج فيها المدعي لدعواه «بأنها من القضايا التي يعتقدها عموم الناس ، فكثرة المعتقدين تحضر هنا (بوصفها) سندا يتكأ عليه لتقرير صدق الدعوى»[٥] ، وتكون الصلة بين الحجة والنتيجة في هذه السفسطة -في الغالب- مضمرة لأن «الإضمار يزيد من طاقتها التمويهية ويعمي المخاطب عن مواطن التغليط فيها»[٦] .
* سفسطة ما جرى به العمل : وتحضر الأكثرية في هذه السفسطة «في صورة أكثر العاملين ، بحيث يومئ المستدل إلى أن كثرة العاملين بأمر ما دليل على أنه من الأمور القويمة والمشروعة»[٧] ، وهي آلية حجاجية أساسها باطل لأننا قد نجد الكثير من الناس يقدمون على أعمال واضحة البطلان ، ويحجمون عن أعمال محمودة .

---

(١) نفسه ص٤٣٢ .

(2) Critique de l'argumentation p:72.

(٣) الحجاج والمغالطة ص٣٧ .

(٤) ترد هذه السفسطة في الخطاب الطبيعي في تعابير لغوية متعددة مثل : جميع الناس يرون ، الكل يعتقد ذلك ، الناس مجمعون على هذا الأمر ، لا أحد يشك في ..

(٥) الحجاج والمغالطة ص٥٤ .

(٦) الحجاج والمغالطة ص٥٤ .

(٧) نفسه ص٥٧ .

• سفسطة ما يهوى الجمهور : وهي سفسطة تستثمر فيها حجة الأكثرية التي «تستحسن أو تفضل القضية التي تتعلق بها المنازعة»(١) ، فتستدعي الأغلبية لتجعل مقدمة للاستدلال ، ووجه المغالطة فيها أن ميل الجمهور واستحسانه ، أونفوره واستقباحه ليس دليلا ذا قيمة على اعتبار أن عموم الناس تحكمهم أهواؤهم التي لا تستند إلى قواعد عقلية .

٥- المحاجة بالتجهيل :

٥-١- مغالطة إثباتيه:

تقوم هذه المحاجة على إفحام المخاطب وتعجيزه عن الإدلاء بما ينفي الحجة المقدمة إليه ، فتبنى حجته «على أساس من قاعدة تقول : [إذا لم تدل بما ينفي حجتي فحجتي صحيحة]»(٢) ، وهي قاعدة غير منطقية قد تقود إلى مزالق تجعل الحجاج المؤسس عليها حجاجا مغالطيا ، فالعارض يطلب «من المعترض إثبات كذب الدعوى ، متجاهلا أن الدليل واجب على من ادعى وليس من اعترض»(٣) ، فالتدليل واجب على العارض وحق له . وقد ناقش الباحثان هذا النوع من المحاجة انطلاقا من صيغته العامة التالية :(٤)

- لا يوجد دليل ضد الفرضية (ف) . - إذن (ف) صحيحة .
- لايوجد دليل يؤكد الفرضية (ف) . - إذن (ف) خاطئة .

وخلصا إلى أنه مغالطي لأن الخاتمة فيه لم تستغرق كل الحالات الممكنة ، فالمغالطة إذن هي مغالطة إثبات(٥) ، فعدم وجود دليل ضد الفرضية لا يعني

---

(١) نفسه ص٦٠ .

(٢) الأساليب المغالطية ص٤٣٣ .

(٣) الحجاج والمغالطة ص٣٧ .

(4) Critique de l'argumentation p:100.

(5) Critique de l'argumentation p:102/103.

بالضرورة أنها صحيحة إذ أن الاحتمالات التي يمكن أن تلقاها الفرضية هي :
مثبتة - مرفوضة - غير مثبتة .

وعليه يصل الدارسان إلى أن شكل المحاجة ليكون سليما ينبغي أن يتخذ البنية التالية[١] :

- (ف) غير مرفوضة

إذن (ف) مثبتة أو(ف) غير مثبتة .

- (ف) غير مثبتة

إذن (ف) مرفوضة أو(ف) مثبتة .

٥-٢- مغالطة معرفية:

وشكلها عند الباحثين هو : «لم يثبت أحد قط أن (ف) خاطئة (صحيحة) إذن (ف) صحيحة (خاطئة)»[٢] ، إلا أن كون لا أحد يعرف أن (ف) صحيحة أو خاطئة لا يؤدي ضرورة إلى أن (ف) خاطئة أو صحيحة ، ف (ف) ممكنة الصحة أو ممكنة الخطأ ، وهذا مكمن المغالطة في هذا الشكل الحجاجي .

٥-٣- مغالطة جدلية:

تقوم الحجة فيها على النقاش والجدال فهي «ذات بعد جدلي يدرك في إطار لعبة جدلية بين طرفين»[٣] ، حيث يصر أحدهما على أن يدلي الثاني بحجة تنفي قوله ، حتى إذا لم تكن لديه العناصر الكافية إلى ترجيح هذا القول[٤] ، فيستغل جهل الآخر بيد أن «المحاورة العاقلة يحكمها توزيع دقيق للوظائف

---

(1) Ibid p102.

(2) Ibid p:103.

(٣) الأساليب المغالطية ص,٤٣٦

(4) Critique de l'argumentation p:104/105.

التداولية بين المتحاورين ، ينبغي احترامه حتى تسير هذه المحاورة سيرا سليما وتكون فعلا منزهة عن العبث»[1] .

٦- المصادرة على المطلوب:

يقول ابن سينا : «المصادرة على المطلوب الأول هو أن يجعل المطلوب نفسه مقدمة في قياس يراد به إنتاجه»[2] ، غير أن الأمر -في الغالب- لا يكون مباشرا ، بل يستفيد مما توفره اللغة الطبيعية من غموض والتباس ، فيعبر عن المقدمة أو المقدمات والنتيجة بأقوال تبدو متفاوتة ، بحيث «لا تبدو متكافئة إلا بعد تدقيق الفحص ، فالخاصية التحصيلية للرأي لا تتضح مباشرة ، لأن انطباق وارتباط المقدمات بالرأي يبقى ضمنيا وبالتالي خفيا»[3] ، وقد أبرز الباحثان هذه المغالطة من خلال نظرية التعادل ونظرية التبعية والتعلق[4] ، وسعيا إلى محاصرة هذا الشكل من المحاجة باعتباره شكلا مغالطيا :

٦-١- نظرية التعادل:

واضع هذه النظرية هو إرفينغ كوبي وقد لخصها الباحثان كالتالي : «عندما نضع مقدمة المحاجة النتيجة نفسها التي ينبغي أن نصل إليها ، نرتكب مغالطة المصادرة على المطلوب»[5] ، وسواء كانت دلالة لفظ المقدمة على النتيجة دلالة مطابقة أو دلالة ضمنية ، فإنها تؤدي إلى ظهور المصادرة على المطلوب .

---

(١) الحجاج والمغالطة ص٣٧ .

(٢) ابن سينا : الشفاء ، ج١ ، ص٦٧ .

(٣) فان ايمرن وغروتندورست : السفسطات من منظور تداولي ، ترجمة رشيد الراضي ، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته ، ج٥ ، ص١٧٤ .

(4) Critique de l'argumentation p:114/117.

(5) Ibid p114.

٦-٢- نظرية التبعية والتعلق:

اعتبر الباحثان النظرية السابقة تندرج ضمن نظرية أشمل وأعم هي نظرية التعلق والتبعية ، حيث تكون المقدمة مفترضة للنتيجة أو مستندة عليها ، بحيث لا يمكن القبول بها إلا إذا ثم قبول النتيجة(١) .

إن الخلل والمغالطة في المصادرة على المطلوب يكمن في اعتماد الحجج الدائرية(٢) ، فوضع «النتيجة ضمن المقدمات لا يعني بالضرورة أنها صادقة ما لم يقم الدليل على ذلك ، وإلا سنكون كمن يدور في حلقة مفرغة»(٣) مما يجعل طاقتها الإقناعية شبه منعدمة .

٧- مغالطة المسائل المتعددة:

تتحقق المغالطات التي تتولد عن جمع المسائل المتعددة في واحدة عندما يعار الجمع اهتماما فنقدم جوابا واحدا وكأننا إزاء مسألة واحدة ، وتعرف بأنها مسألة تتضمن معنى مضمرا يقصد السائل إخفاءه لخداع المخاطب والإيقاع ب٤د مما يجعل حجاجا من هذا النوع شكلا من أشكال المغالطة ، ونمثل لهذا النوع من المغالطة بالمناظرة التي جرت بين الأوزاعي وغيلان الدمشقي بحضرة هشام بن عبد الملك :(٥)

بدأها الأوزاعي بقوله : « هل علمت أن الله أعان على ما حرم؟

قال غيلان : ما علمت ، وعظمت عنده .

قال الأوزاعي : فهل علمت أن الله قضى على ما نهى؟

(1) Ibid p115.

(2) Ibid p١١٦,:

٣) الحجاج والمغالطة ص٣٩ .

(4) Critique de l'argumentation p:141.

٥) في بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص٤٢ .

قـال غيلان : هذا أعظم مالي بهذا من علم .
قال الأوزاعي : فهل علمت أن الله حال دون ما أمر؟
قـال غيلان : حال دون ما أمر؟ ! ما علمت .
قال الأوزاعي : هذا مرتاب من أهل الـزيغ .
فأمر هشام بقطع يـده ورجله» .

إن الأسئلة في هذه المناظرة مغرضة وموهمة بإمكانية الاختيار بين جوابين : (نعم أو لا) ، في حين أنه «كيفما كان جواب غيلان هناك إمكانية لإدانته»[١] ، فالمناظرة «لم تستهدف الإقناع بل الإيقاع لإدانته»[٢] .

٨- مغالطات التركيب والقسمة:

يقوم هذا النوع من المغالطات على العلاقة الاستنتاجية بين الجزء والكل وبين التوزيع والتجميع ، كأن نستنتج أن الكل على صفة معينة بما أن كل جزء من الأجزاء له هذه الصفة . . . فنستنتج مثلا أنه : بما أن جميع عناصر الآلة خفيفة فالآلة في مجموعها ينبغي أن تكون خفيفة وهذه مغالطة تركيب[٣] .أما مغالطة القسمة فهي نقيض ذلك كأن نستنتج من كون الآلة ثقيلة أن كل جزء من أجزائها ثقيل[٤] .

ويلحق بهذه المغالطة سفسطة التعميم المتسرع ، وترتكب هذه المغالطة «إذا تم تبرير نتيجة عامة اعتمادا على عينات غير كافية ، بحيث تكون المعطيات التي يتم البناء عليها في استخلاص النتيجة مفتقدة خاصية التمثيل»[٥] ، ووجه

---

(١) في بلاغة الخطاب الإقناعي ص٤٣ .

(٢) نفسه

(3) Critique de l'argumentation p:169.

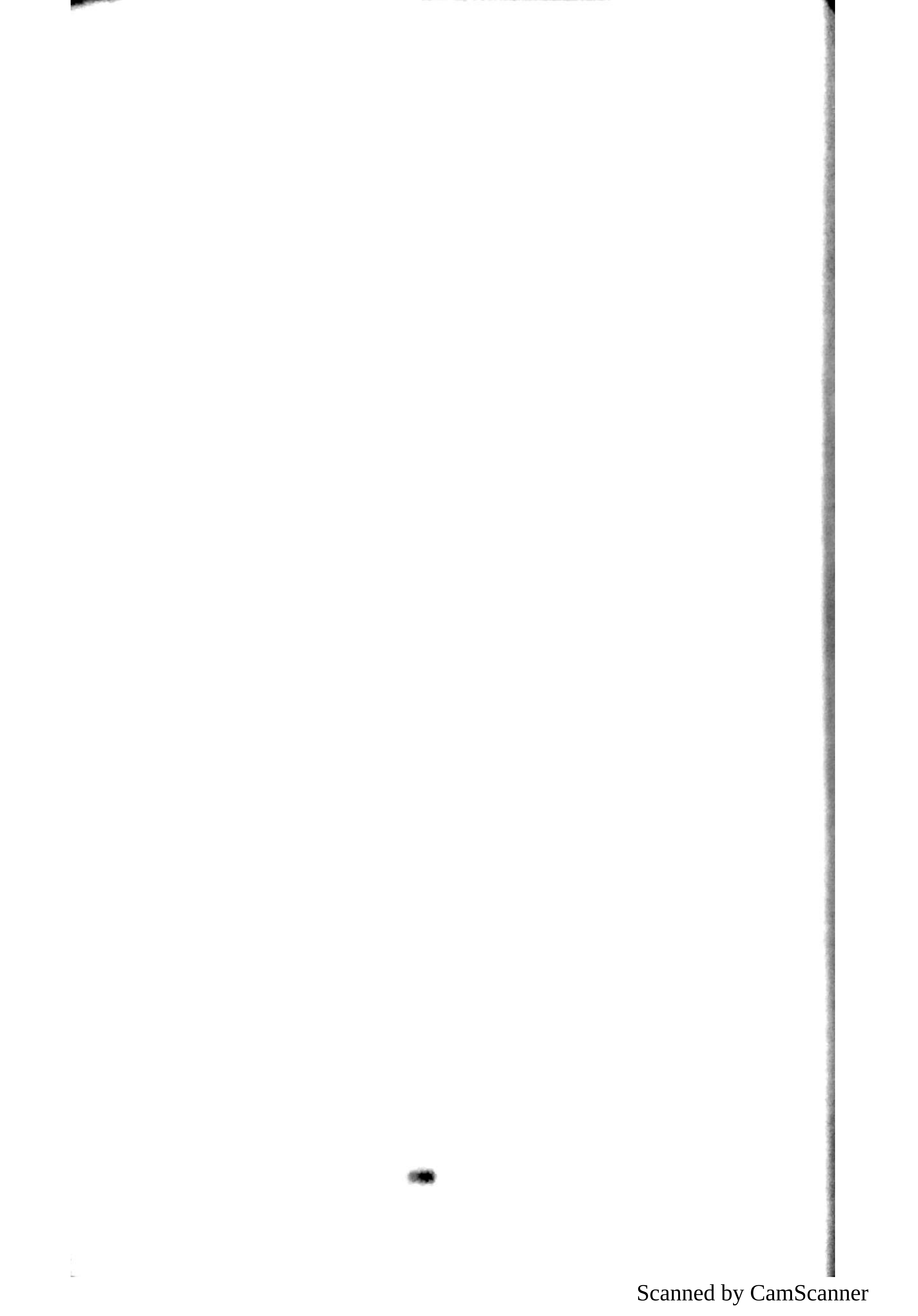
(4) Ibid p169.

(٥) الحجاج والمغالطة ص٤١ .

المغالطة فيها أن سيرورة الانتقال من المقدمات إلى النتيجة تكون «موجهة بشكل مسبق، ويكون إجراء الاختبار متحيزا يدفع النتيجة دفعا نحو وجهة محددة»[1].

---

(1) الحجاج والمغالطة ص٤٢ .



المبحث الرابع:
رسالة ابن غرسية الشعوبية ورد ابن من الله القروي عليها: مقاربة حجاجية

تمهيد:

إن مقصودنا في هذا الفصل ، هو محاولة تطبيق ما أمدتنا به النظريات الحجاجية التي تطرقنا إليها في الفصل الأول من آليات ومفاهيم على أنموذج من الرسائل الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري يتمثل في رسالة أبي عامر بن غرسية في ذم العرب ، ورد ابن من الله القروي عليها ، وقد اخترنا رد ابن من الله من بين الردود العربية الكثيرة على ابن غرسية لاعتبارين اثنين :

١)- كون ابن من الله الأقرب تاريخيا إلى ابن غرسية ، بل ربما كانا متعاصرين فالرسالة كتبت ، كما سيأتي ، مابين ٤٠٦ هـ و٤٣٦ هـ ، وابن من الله القروي توفي سنة ٤٩٣ هـ .

٢)- قيمة رسالة ابن من الله الأدبية والحجاجية ، وذلك بشهادة مجموعة من النقاد قديما وحديثا ، فابن بسام قدم لها بقوله : «وممن رد أيضا على ابن غرسية ، وأجاد ما أراد ، أبو الطيب عبد المنعم القروي برسالة أتبث أكثر فصولها على طولها لاشتمالها على المآثر العربية ، والمفاخر الإسلامية»[1] .

أما فايز عبد النبي فلاح القيسي فيتحدث عنها قائلا : «والذي زاد رسالة القروي قيمة فاقت بها ما وصلنا من الردود الأخرى نفاذ مؤلفها إلى معان دقيقة

(١) الذخيرة ، ق٣ ، ص٥٤٤ .

لم ينتبه إليها غيره ، وتبحره في معرفة أحوال العرب وأشعارهم وأخبارهم»[١] .
ويقول الدكتور إحسان عباس ، في معرض مقارنته بين رسالة ابن من الله ورسالة ابن الدودين : «ويكاد ابن من الله يتفوق على صاحبه ابن الدودين في شدة التدقيق والاستقصاء ، وفي النفاذ إلى الأمور ، فيدل بذلك على قوة ملكته وسعة اطلاعه»[٢] .

ولما كان التناول الحجاجي يختلف من نص إلى آخر ، ومن نظرية حجاجية إلى أخرى ، فسنعتمد أساسا لمقاربتنا التنظير الأرسطي لبلاغة الإقناع ، باعتباره مهد جل النظريات الحجاجية الحديثة ، على أن نطعمه متى رأينا ذلك مناسبا بآليات ومفاهيم هذه النظريات ، وهكذا سنتناول طبيعة البراهين والأدلة في الرسالتين في المبحث الأول ، وسنتناول في المبحث الثاني حجاجية أسلوبيهما ، في حين تخلينا عن البحث في ترتيب الأجزاء ، على اعتبار أن رسالة ابن من الله لم ترد كاملة ، والدليل على ذلك قول ابن بسام مباشرة بعد أن أورد الأبيات التي افتتح بها ابن من الله الرسالة : «وفي فصل منها»[٣] ، كما ردد هذه العبارة أكثر من ثمان مرات[٤] أثناء عرضه للرسالة ، بالإضافة إلى حذفه لجزء كبير منها بدليل قوله : «وبين أبو الطيب بطلان قولهم في احتجاج طويل أضربنا عنه تركا وتخفيفا للتثقيل»[٥] .

فنحن إذن ، أمام رسالة تدخل ابن بسام فيها بالانتقاء تارة وبالحذف الصريح تارة أخرى ، مما سيجعل الحديث عن ترتيب أجزائها أو حتى حججها أمرا نسبيا إلى أبعد الحدود . ويقتضي منا تحقيق هذا الهدف إضاءة الجوانب

---

(١) أدب الرسائل في الأندلس ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) الذخيرة ، ق٣ ، ص٥٤٤ .

(٤) نفسه ص ٥٤٤/٥٤٥/٥٤٩/٥٥١/٥٥٣/٥٥٤/٥٥٨/٥٦١ .

(٥) نفسه ص٥٥٧/٥٥٨ .

المتعلقة بالرسالتين من خلال البحث في ظروف إنشائهما وتحديد الإطار الفكري الذي تمخضتا عنه ، بالإضافة إلى التعريف بصاحبيهما ، وهذا ما سنسعى إليه في هذا المدخل .

١)- الشعوبية في الأندلس:

الشعوبية حركة عنصرية أعجمية ، عبرت بوسائل مختلفة عن موقف فكري واجتماعي وأخلاقي معاد للموروث الحضاري العربي الإسلامي ، محاولة استبداله بموروث أعجمي يختلف عن الأول في القيم والتقاليد والمثل[١] ، وقد وجدت هذه الحركة في أطراف الدول الإسلامية ، حيث ملتقى الأجناس والأعراق ، مرتعا خصبا لانتعاشها ونشر أفكارها . فكانت العراق معقل الشعوبين بالشرق بينما شكلت الأندلس في الشمال الغربي لدولة الإسلام مجالا للهجوم الشعوبي على العروبة .

وقد استطاعت الدولة الأموية أن تحتوي العناصر المختلفة المشكلة للمجتمع الأندلسي ، من عرب وبربر ومولدين وصقالبة وأن تتحكم في مسار التفاعلات بين هذه العناصر ، مما جعل الصوت الشعوبي يبدو خافتا في عهدها ، و«لما زالت تلك الدولة ظهرت بوادر من الشعوبية لأن الرابطة العربية ضعفت»[٢] . فبدأت بعض الأفكار المعادية للعرب تعلن عن نفسها وتطفو على السطح . بعد أن استغلت بعض الفئات التي لم تنصهر في المجتمع الأندلسي حالة التفكك التي عرفتها البلاد في عصر الطوائف للتخلص من النفوذ العربي بالأندلس ، وإرجاع الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الفتح «فأصبح التصريح بالثورة على

---

(١) فاروق عمر فوزي : حول طبيعة الحركة الشعوبية في الأندلس ، مجلة المؤرخ العربي العدد ٣٢ السنة ١٤٠٨.١٣ /١٩٨٧ ص :١٥١ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٧٠ .

العرب أمرا ممكنا»[١] ، خصوصا وأن الامر آل في بعض دويلات الطوائف إلى الصقالبة والمولدين . . .وهم الخصوم الطبيعيون للعرب بالأندلس .

وإذا كان زعماء الشعوبية في المشرق من الملاحدة والزنادقة في أكثر الأحيان فإن الأمر في الأندلس كان مختلفا ، إذ لم تتخذ الأفكار الشعوبية طابعا معاديا للإسلام ، «لأن في ذلك ما يحهضها ويقضي عليها قبل الأوان بإثارة الحمية وإكساب الصراع طابعا دينيا استفزازيا»[٢] ، كما تجدر الإشارة إلى أن المشرقيين كانوا يقصدون بـ«العجم» الفرس ، أما شعوبي الأندلس فيتسع مدلول الكلمة عندهم ليشمل الروم وبني الأصفر[٣] ، ومن أقطاب شعوبية الأندلس «محمد ابن سليمان المعافري ، وكان شديد العصبية للمولدين ومنهم أبو محمد عبد الله ابن الحسن المتوفى سنة ٣٣٥هـ ، وكان معروفا بشدة تعصبه للعجم ومحاولته الغض من شأن العرب»[٤] .

وقد عبر الشعوبيون الأندلسيون عن أنفسهم بوسائل مختلفة ، يهمنا منها في هذا المقام الفكر والثقافة والأدب ، ويعد أبو عامر بن غرسية رائد هذه الوسيلة فهو أقوى صوت شعوبي عرفته الأندلس[٥] ، وهو أول من أثار الأفكار الشعوبية بشكل صريح وواضح عبر احتقاره للعرب في رسالة أدبية مطولة[٦] .

فمن هو ابن غرسية هذا؟ وماهي ظروف وفحوى رسالته الشعوبية؟ وماذا عن الردود العربية عليها؟

---

(١) نفسه : ص ١٧١ .

(٢) النثر الأدبي الأندلسي ص ٤٣٦ .

(٣) نوادر المخطوطات تحقيق عبد السلام هارون (المجموعة الثالثة) ط ٢ ، ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣ .

(٤) نوادر المخطوطات ص ,٢٤٢

(٥) تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٧١ .

(٦) النثر الأدبي الأندلسي ص ٤٣٦ .

٢)- ابن غرسية ورسالته في ذم العرب:

١-٢)- ابن غرسية:

ترجم له ابن سعيد المغربي صاحب المغرب (٦٨٥ هـ) ، وقال عنه : «أبوعامر بن غرسية من عجائب دهره ، وغرائب عصره ، إن كان نصابه في العجمية ، فقد شهدت له رسالته المشهورة بالتمكن من أعنة العربية ، وهو من أبناء النصارى البشكنس ، سبي صغيرا وأدبه مجاهد مولاه ملك الجزر ودانية ، وكان بينه وبين أبي جعفر بن الجزار الشاعر صحبة ، أوجبت أن استدعاه من خدمة المعتصم ابن صمادح ملك المرية ناقدا عليه ملازمة مدحه وتركه ملك بلاده»[١] .

نلتقط من هذه الترجمة أن ابن غرسية ولد في بلاد البشكنس ، وانتقل إلى دانية مسبيا وهو صغير ، حيث ربي في كنف أبي الجيش مجاهد العامري ، كما نستشف منها أيضا أنه كانت له مكانة في دولة مجاهد ، جعلته يقدم على استدعاء صديقه أبي جعفر بن الجزار لينضم إليه في خدمة مولاه مجاهد ، وإذا عرفنا أن مجاهدا كان مولى من موالي الروم فهمنا أن ابن غرسية نشأ في مرعى صالح لشعوبيته[٢] ، ولعل هذا ما دفعه إلى محاولة استقطاب صديقه أبي جعفر بن الجزار ، من كنف ملك عربي هو المعتصم بالله أبو يحيى بن معن بن صمادح التجيبي ملك المرية ، يقول ابن بسام في صدر ترجمته لأبي جعفر بن الدودين البلنسي[٣] : «وأخبرني برسالته التي رد فيها على أبي عامر بن غرسية ، وكان هذا لحاه الله وأبعده ، قد استقر بمدينة دانيه في كنف مجاهد ، فخاطب الأديب أبا جعفر بن الجراز معاتبا له لتركه مدح مجاهد واقتصاره على مدح ابن صمادح التجيبي»[٤] .

---

(١) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ج ٢ .تحقيق شوقي ضيف ، ط ٣ ، دار المعارف ١٩٨٠ ص ٤٠٦/ ٤٠٧ .

(٢) نوادر المخطوطات ص : ٢٣٣ .

(٣) عاصر ابن بسام وأملى عليه شعره ونثره .(الذخيرة ق٣ ، ص٥٣٠)

(٤) الذخيرة ق ٣ ، ص٥٣٠ .

-٢-٢) - رسالته في ذم العرب:

كتب أبو عامر بن غرسية رسالته في حياة مجاهد العامري بعد استيلائه على دانية ، وإذا علمنا أن حياةمجاهد السياسية تمتد ما بين ٤٠٦هـ إلى ٤٣٦ هـ ، جزمنا أن الرسالة كتبت في هذه الفترة[1] ، وهي رسالة مطولة بعث بها إلى أبي جعفر بن الجزار .

وقد افتخر فيها بقومه العجم وعدد مناقبهم ، وذم العرب وأبرز مثالبهم ، وأبان عن نزعة شعوبية عنيفة ، وظف فيها التهكم والسخرية والنقد اللاذع والسباب والشتم للنيل من العرب ، والحط من مكانتهم أمام قومه العجم ، «والواقع أن شعوبية ابن غرسيه في أفكارها وأسلوبها لاتختلف عن شعوبية أهل المشرق من العجم ، فهو يزدري العرب كل العرب ، ويفتخر بالعجم كل العجم ، لايميز في فخره بين الأكاسرة والفرس ، وبين بني الأصفر أو الروم (ذوي الأرومة الرومية) وهم قومه»[2] .

ويصف الدكتور إحسان عباس هذه الرسالة بقوله : «إن قيمة رسالة ابن غرسيه في الأدب الأندلسي ليست قيمة في ذاتها ، وإنما بمقدار ما أثارته حولها من ردود»[3] . فماذا عن هذه الردود؟

٣)- الردود العربية على رسالة ابن غرسية:

أثارت رسالة ابن غرسية الكثير من الردود العربية ، التي تصدت لصاحبها بالهجاء والتقريع ، ولأفكارها بالنقد والإبطال والتفنيد ، وكان طبيعيا أن يكون أبو جعفر بن الجزار أول الرادين على هذه الرسالة الموجهة إليه أصلا ، إلا أن المصادر

---

(١) نوادر المخطوطات ص٢٣٤ .

(٢) فارورق عمر فوزي : مجلة المؤرخ العربي . . ص١٥٦ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٧٢ .

لم تحمل إلينا هذا الرد[1] ، بينما وافتنا بمجموعة من الردود أشار عبد السلام هارون إلى أربعة منها وهي :[2]

- رد أبي يحي بن مسعدة الذي عاش في العصر الموحدي ، فقد ذكر في رده المهدي بن تومرت (٥٣٤هـ) وعبد المومن بن علي الكومي (٥٥٨ هـ) .
- رد مجهول رجح أنه لأبي عيسى بن مسعدة أيضا ، نظرا للتقارب والتشابه الشديدين بين أسلوبي الرسالتين ، وبين بعض العبارات الواردة فيها .
- رد أبي جعفر بن الدودين البلنسي ، وقد كان معاصرا لابن بسام صاحب الذخيرة ، الذي قال في صدر ترجمته : «هو أحد من لاقيته وشافهته وأملى علي نظمه ونثره بأشبونة سنة سبع وسبعين ، وأخبرني برسالته التي رد فيها على أبي عامر بن غرسيه»[3] .
- رد أبي الطيب بن من الله القروي الذي يقول عنه ابن بشكوال (٥٧٨هـ) : «قدم الأندلس وحدث بشرقيها عن أبي بكر بن علي بن الحسن بن عبد البر التميمي ، وكان أديبا شاعرا ، وتوفي يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ٤٩٣ هـ»[4] .

وإذا كان عبد السلام هارون يقول أنه وجد في الذخيرة (اعتمد مخطوطة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٢٢) ردين فقط هما رد ابن الدودين ، ورد أبي الطيب بن من الله القروي ، فإن النسخة المحققة من طرف الدكتور إحسان عباس لكتاب الذخيرة تضم ردا ثالثا لابن عباس[5] .

---

(١) نوادر المخطوطات ص٢٣٦ .

(٢) نفسه ص ٢٣٦ -٢٣٩ .

(٣) الذخيرة ق ٣ ص ٥٣٠ .

(٤) ابن بشكوال (أبوقاسم خلف بن عبد الملك) : الصلة ، القسم الثاني ، المكتبة الأندلسية ٥ ، الدار المصرية للتأليف و الترجمة ١٩٦٦ ص٣٩٢ (رقم الترجمة ٨٤٠) .

(٥) الذخيرة ق٣م٢ ص٧٤٦ .

يضاف إلى هذه الردود تلك التي وصفها عبد السلام هارون بالردود التاريخية ويقصد بها الردود التي حفظ التاريخ ذكرها ، ولم نصل إليها بعد وهي :[1]

- رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسي ، وعنوانه : «رسالة الاستدلال بالحق في تفضيل العرب على جميع الخلق ، والذب والانتصار لصفوة المهاجرين والأنصار» .
- رد الكاتب ذي الوزارتين أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال الغافقي المتوفي سنة ٥٤٠ هـ ، وسمى رسالته : «خطف البارق وقذف المارق ، في الرد على ابن غرسية الفاسق ، في تفضيله العجم على العرب قرعه النبع بالغرب . «
- أبي محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي ، المعروف بابن الفرس والمتوفي سنة ٥٩٧ هـ .
- رد عبد الحق بن خلف بن مفرج .
- رد أبي الحجاج يوسف بن محمد المالكي الأندلسي ، المعروف بابن الشيخ من أدباء القرن السادس .

إن تعدد هذه الردود وكثرتها وغناها ، دليل على أن التصدي العربي لأقوى صوت شعوبي بالأندلس كان قويا أيضا ، مما أسكت أصوات كثيرة أخرى ، ربما كانت نفسها تحدثها باقتفاء أثر ابن غرسية ، كما أن امتداد هذه الردود في الزمن ، منذ صدور الرسالة وحتى العصور اللاحقة يؤكد «أن الشعور بالعروبة كان قويا في الأندلس على مدى الزمن وأن السند الشعوبي لم يكن على شيء من القوة الأدبية»[2] .

I- الاستدلال الخطابي في الرسالتين:

نبدأ حديثنا عن الأدلة والبراهين بقول أرسطو : «وأما الأدلة فبعضها مستقل عن الفن ليس من صنعنا ، وبعضها الآخر تابع له أي من عملنا واختيارنا . .»[1] .

فأرسطو قسم البراهين والأدلة إلى قسمين : أدلة غير صناعية (ليست من صنعنا) ويطلق عليها أيضا التصديقات غير الصناعية أو الجاهزة أو الأدلة الخارجة عن الفن ، وأدلة صناعية (أي من عملنا واختيارنا) وتسمى أيضا التصديقات الصناعية أو غير الجاهزة أو الأدلة داخل الفن .

وقد فصل أرسطو بعد ذلك في كل قسم من القسمين ، فمن الأدلة غير الصناعية الاعترافات تحت التعذيب والشهود والقوانين وأقوال الحكماء . . . وهي أدلة وبراهين لا يستطيع الخطيب التصرف فيها ، ويقتصر عمله على حسن توظيفها بترتيبها وإبرازها وتنظيمها[2] .

أما الأدلة الصناعية فتنقسم بدورها إلى أدلة ذاتية نفسية ترتبط بالمقام ، حددها في الإيتوس (Ethos) أي أخلاق الخطيب وشخصيته ، والباتوس (Pathos) أي أحوال المستمعين ومشاعرهم ، وأدلة موضوعية تتعلق بالعبارة نفسها (Logos) ، وتتفرع بدورها إلى القياس المضمر ويكون إما استدلاليا أو تفنيديا ، والمثل ويكون إما تاريخيا ميتولوجيا ، أو مبتدعا خرافيا[3] .

وتعد الأدلة الصناعية الموضوعية جوهر عمل الخطيب ، إذ يحول من خلالها المادة اللغوية إلى قوة إقناعية عن طريق عملية منطقية مزدوجة : الاستقراء في المثل ، والاستنباط في القياس المضمر[4] .

---

(١) الخطابة ترجمه وقدم له وحقق نصوصه وعلق حواشيه إبراهيم سلامة ص ٨٤ .

(٢) البلاغة القديمة ص : ١٠٢

(٣) بلاغة الخطاب الإقناعي ص٢٤ .

(٤) البلاغة القديمة ص : ١٠٤ .

كيف وظف ابن غرسية وابن من الله القروي هذين النوعين من الحجج والبراهين في رسالتيهما؟

١- البراهين غير الصناعية:

يبرز هذا النوع من الحجج في الرسائل الأدبية من خلال توظيف الشاهد الديني أو الأدبي ، وهو «مقطع من نص يؤخذ من سياقة الأصلي ويدرج في سياق آخر بطريقة ما ، لتحقيق وظيفة ما ، فهو نقطة تقاطع بين نصين مختلفين . . .كإدراج الأمثال في الخطب والرسائل ، أو اقتباس القرآن الكريم . . .»[(١)] .

كما يعد الشاهد الأدبي تلخيصا لفكرة تم طرحها أو تكرارا لها ، إلا أن هذا التكرار مفيد ، «فلإعادة نص قديم في سياق جديد أثر في توجيه القارئ العارف بالسياق الذي أخذ منه الشاهد ، فهي تنشط ذاكرته وتحيله على نصوص أخرى تختفي وراء الشاهد»[(٢)] .

ويرد الشاهد الأدبي في مقدمة الرسالة ، خاصة الشاهد الشعري ، كما يرد في متنها وخاتمتها ، ويعمل أيا كان موقعة في الرسالة «على توجيه التقبل بحسب مقصد الكاتب من إدراجه»[(٣)] .

وتزخر رسائل المفاخرات بالشواهد المأخوذة من سياقات أدبية مختلفة ، كما «يقتضي هذا الصنف من المفاخرات أن يكون المخاطبون متواطئين على تلك النصوص ، أي أن يكون لهم نفس المرجع النصي الذي تحيل عليه المفاخرة ، وإلا فإن التواصل يتعطل»[(٤)] .

---

(١) صالح بن رمضان : الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة (مشروع قراءة إنشائية) . . ص : ٣٩٩ .

(٢) نفسه ص ٤٠٠ .

(٣) الرسائل الأدبية ص ٤٠٤ .

(٤) نفسه ٤١٣ .

وتقوم رسائل المفاخرات عموما على السجال ، وعلى «المدح والذم بذكر الكم والعدد ، وعلى حجج الكيف ، أي تفضيل الشيء بحجمه وتفضيله بنوعه ، ويستغل الكتاب الأدلة النقلية أو الشواهد لصناعة الحجج»[1] ، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية والأمثال والحكم . . . تمتلك سلطة مرجعية تجعلها قادرة على إقناع المتلقي وإفحام الخصم ، فهي «حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها»[2] ، إلا أن نفوذ هذه الشواهد/الحجج يتفاوت ، فالقرآن الكريم باعتباره كلام الله لا تضاهيه حجة في الثقافة العربية الإسلامية ، يليه الحديث الشريف ، فهو كلام من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم ، ثم الشعر ديوان العرب وجامع أخبارها وسيرها ، وأساس الحضارة العربية الإسلامية ، إذ «يكاد يجمع المهتمون بها على أن شأن الشعر فيها ، لا يوجد في حضارة سواها»[3] .

ولعل خير دليل على مكانة الشعر وأهميته في الثقافة العربي الإسلامية ، أنه كان ملجأ المفسرين لفهم كتاب الله عز وجل وكشف مقاصده ، مما أكسبه «حجية قوية وفعالة في تحقيق الترجيح ، وفي قطع الشغب وفي ايقاع التصديق»[4] ، ثم يأتي بعد الشعر دور الأمثال والحكم .

وإذا أردنا توظيف قواعد السلم الحجاجي كما حددها ديكرو Duorot ، لإدراج هذه الشواهد الحجج ، فسنحصل على الخطاطة التالية :

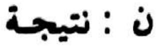
---

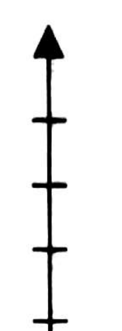
(١) نفسه ٤١٦ .

(٢) بلاغة الخطاب الإقناعي ص٦٥ .

(٣) خطاب المناظرة . . ص ٢٠٦ .

(٤) نفسه ٢٠٧ .





حجة ٤ : القرآن الكريم

حجة ٣ : الحديث الشريف

حجة ٢ : الشعر

حجة ١ : الحكم والأمثال

١-١)-رسالة ابن غرسية:

إن أول ملاحظة نسجلها على رسالة ابن غرسية هي الغياب التام للشاهد الديني (القرآن والحديث) ، وهذا أمر طبيعي إذ أن إدراج القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في رسالة شعوبية ، أمر غير مستساغ ، بل ومضعف وداحض لقيمتها الحجاجية ، لأن القرآن الكريم ينبذ ما تدعو إليه مضامين الرسالة ، سواء في معناها العام مدح العجم وذم العرب ، يقول تعالى : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير﴾[(١)] ، أو في معانيها الجزئية كالسب والشتم والقذف ، والأمر ذاته يمكن قوله بالنسبة للحديث الشريف ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول : «يا أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . .»[(٢)] ، بالإضافة إلى أن النص الديني غير قابل للتجزيء والتحوير . . .الأمر الذي قد تقبله النصوص الأدبية الأخرى كالشعر والأمثال والحكم .

وقد عوض ابن غرسية غياب الشاهد الديني بالشاهد الشعري ، لما يمتلكه

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

(٢) رواه الإمام أحمد ، ينظر كتاب مع الأنبياء في القرآن الكريم ، تأليف عفيف عبد الفتاح طبارة ، ط ١٨ ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٣ ص ٤١٦ .

هذا الأخير من سلطة مرجعية سبق أن أشرنا اليها ، «فالشعر يستدعى كحجة مرجحة وكشاهد عدل خلال المنافرة والمخاصمة»(١) .

وقد جاءت أغلب الأبيات التي وظفها ابن غرسية مثبتة لأفضلية العجم ، مشيدة بمناقبهم ، ولما كانت رسالته قائمة على المقابلة بين المعاني ، فإن أي إثبات لأفضلية العجم فيه ، وبشكل ضمني ، حط من قيمة العرب ، وفيه أيضا توجيه لتفكير القارئ نحو المعاني السلبية المتعلقة بهم .

كما سعى ابن غرسية إلى الاستفادة من سلطة وحجية الشاهد الشعري ، بإيراده بعد بسط فكرته وتفصيلها ، والدفع إلى الإقناع بها ، مما يكسبه دورا حاسما في تثبيت المعنى/الحجة ، وتركيزها في ذهن المتلقي ، يقول ابن غرسية عن قومه : «جبابرة قياصرة ، ذوو المفاخر والدروع للتنفيس في روع المروع ، حماة السروح غماة الصروح ، صقورة غلبت عليهم شقورة ، وصقورة الخرسان لكنهم خطبة بالخرصان» ، وبعد هذا الحديث عن شجاعة قومه وقوتهم وبأسهم ومجدهم ، يأتي الشاهد الشعري ليكرس هذه المعاني :

ما ضرهم إن شهدوا مجادا

ألا يكون لونهم سوادا .

بل يضيف معنى جديدا ، فالمجد الذي شيدوه وشهدوه ، يجعلهم في غنى عن الانتماء إلى أهل اللون الأسود وهم العرب ، وقبل أن يعتقد المتلقي أن هؤلاء القوم لا يتأسس مجدهم على أحساب وأنساب عريقة ، يفخر ابن غرسية بنسبه الرومي : «أرومة رومية وجرثومة أصفرية « ، ويعضد هذا الفخر بقول الشاعر :

نمتهم ذوو الأحساب والأنساب والمجد

والعلا من الصهب لا راعوا غضا وأفان

ويدفع ابن غرسية بأطروحة الحسب والنسب إلى مداها ، ليبلغ بقومه درجة السادة وبالعرب درجة

---

(١) خطاب المناظرة ص٢١٢ .

العبيد ، بإشارته إلى أن أم العرب (هاجر) كانت أمة لأم العجم (سارة) ، وليكتسب هذا المعنى التاريخي أثرا

في النفس وثبوتا في الذهن ، صاغه شعرا فقال :

أمكم لأمنا كانت أمه

إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة

ومن الحسب الحري والنسب السري ، ينتقل ابن غرسية إلى الفخر بشجاعة العجم وبسالتهم ، وبأسهم الشديد في الحروب ، «فإذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت في اتساق وقرعت الظنابيب ، وأسرعت الأنابيب . . . ألفيتهم ذمرة الناس عند احمرار الباس ، الطعن بالأسل ، أحلى عندهم من العسل» .

إن قومه مقبلين على الموت في شجاعة وإقدام ، لكن هذا المعنى سيتقوى بالشاهد الشعري الذي يجعل صلة رحم بينهم وبين حتوفهم :

مستسلمين إلى الحتوف كأنما

بين الحتوف وبينهم أرحام .

وسيكتسب الشاهد الشعري عند ابن غرسية قوة حجاجية إضافية ، عندما يختار شواهد مؤسسة على التقابل في المعاني بين الصدر والعجز ، فيثبت أفضلية العجم في صدر البيت ، ودونية العرب في عجزه ، يقول عن قومه :

من الألى غير زجر الخيل ما عرفوا

إذ تعرف العرب زجر الشاء والعكر .

لا شك أن قوة الشاهد تزداد بمقابلته بين صورتين متناقضتين ، تجعل الأولى العجم فرسانا على خيولهم ، وتصور الثانية العرب رعاة خلف شويهاتهم ، فيتشكل في مخيلة المتلقي المشهد العام الذي تسعى أطروحة ابن غرسية إلى الإقناع به : أفضلية العجم على العرب .

إلا أن الشاهد الشعري سيفقد هذه القوة الحجاجية حين فقدت رسالة ابن غرسية تلك القوة ، بعدما حاول أن يستل الرسول عليه الصلاة والسلام من هذا الذم الذي كاله للعرب ، فقال «لكن الفخر بابن عمنا ، الذي بالبركة عمنا . .» .

إن الرابط «لكن «شكل نقطة تحول في الرسالة ، وإذا علمنا «أن التلفظ بأقوال من نمط (أ لكن ب) يستلزم أمرين :

-أن المتكلم يقدم «أ» و«ب «باعتبارهما حجتين ، الحجة الأولى موجهة نحو نتيجة معينة «ن» ،

والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها أي «لا ن» .

- أن المتكلم يقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى ، وباعتبارها توجه القول أو الخطاب برمته»(١) .

نستنتج إن رسالة ابن غرسية قدمت مجموعة من الحجج قبل الرابط» لكن» تخدم النتيجة (ن = أفضلية العجم على العرب) ، وعليه فالحجة بعد الرابط» لكن» وهي كون الرسول عليه الصلاة والسلام عربي ، ستخدم النتيجة (لا ن = أفضلية العرب على العجم) ، بالرغم من أن ابن غرسية حاول أن يجعل هذا «الاستلال» للرسول ، عليه الصلاة والسلام ، من الذم وهذا الفخر به ، غير مؤثرين على أطروحته ، بقوله : «ففي الرغام يلفى تبره ، والمسك بعض دم الغزال . . .» ، فإننا نحس بتقهقر النفس الحجاجي في الرسالة بعد الرابط «لكن» ، الأمر الذي أثر على الشاهد الشعري ، فبدأنا نلمس تراجعا في قوته الحجاجية ، فشتان بين الأبيات الواردة في الجزء الأول من الرسالة من حيث أثرها في المتلقي وقوتها الحجاجية ، وبين الأبيات الواردة في الفقرات الأخيرة من الرسالة :

يا ابن الأعارب ما علينا باس

لم أحك إلا ما حكاه الناس

لم أشتم لكم عرضا ولكن

حدوت بحيث يسمع الحداء .

---

(١) أبو بكر العزاوي : اللغة والحجاج ، العمدة في الطبع ، ط١ ، ٢٠٠٦ص٥٨ .

والخلاصة أن ابن غرسية أحسن توظيف الشاهد الشعري الذي أكسب رسالته قوة حجاجية في الجزء الأول منها، عندما كان تركيزه منصب على إثبات أفضلية العجم ودونية العرب، لكن هذا التوظيف سيعرف تراجعا في الجزء الثاني من الرسالة حيث أصبح هم ابن غرسية دفع إمكانية اتهامه بالكفر والمروق من الدين، مما أربك البناء الحجاجي للرسالة برمتها.

أما توظيف ابن غرسية للحكم والأمثال فضعيف، ولا يرقى إلى مستوى الظاهرة الحجاجية التي يمكن دراستها.

٢-١) - رسالة ابن من الله القروي:

وظف ابن من الله القروي، على عكس ابن غرسية، بعض النصوص الدينية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إلا أنها تبقى قليلة بالمقارنة مع طول الرسالة من جهة، ومع الحضور الكبير للشاهد الشعري من جهة أخرى، ولعل الأسباب التي جعلت ابن غرسية يستبعد الشاهد الديني، هي ذاتها التي منعت ابن من الله من الإكثار منه، فرسالته لا تخلو من عصبية، ومن سب وشتم، وخروج عن آداب المناظرة في بعض أطوارها.

وهكذا بعد أن احتج ابن من الله للعرب بالقوة والجبروت، وذكر أقواما يشهد لها التاريخ بذلك، «فمنهم عاد العالية ... وإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ... ومنهم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ... ومنهم العمالقة الجبارون والفراعنة القهارون ...»، يعضد حديثه بقوله الله تعالى فيهم: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾[1]. الا أن الشاهد/الحجة الذي أورده ابن من الله القروي، قد يؤدي إلى نتيجة عكسية، فالمتلقي للرسالة مسلم، والأقوام المذكورة ارتبطت في ذاكرته بالكفر والطغيان والجبروت، فتتمثل في ذهنه صورة للعرب كفارا طغاة جبارين ...، وهذه ليست الصورة التي يسعى ابن من الله إلى ترسيخها، ولعل

---

(١) الدخان الآية ٣٧.

ما يزيد من قوة هذا الاحتمال ، أن التناصات التي أحدثها ابن من الله بعباراته مع القرآن الكريم ، تجعل المتلقي يستحضر السياق القرآني كاملا ، فيستحضر النهاية المأساوية لهؤلاء الأقوام الذين أهلكهم الله بكفرهم وطغيانهم .

ويوظف ابن من الله الشاهد القرآني مرة أخرى ليحتج به للعرب الكفار!! فهم وإن كانوا مشركين لقصور إدراكهم ، فقد كانوا يذكرون الله!!يقول : «بل نعلم أن من قال منها (العرب) بالإشراك ، فقد قصر في الإدراك ، وهي على كل حال تذكر الله تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[1] وقال : ﴿ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى﴾[2]» .

ومرة أخرى لا يتوفق ابن من الله في توظيف الشاهد القرآني لتحقيق القصد الإقناعي من رسالته ، فالمتلقي المسلم لا يقبل الاحتجاج للكافر بالقرآن الكريم ، مما سيدفعه إلى استحضار سياق الآيات المذكورة ، يقول تعالى في سورة لقمان : ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور(٢٣) نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ(٢٤) ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون (٢٥)﴾ ، ويقول عز من قائل في سورة الزمر : ﴿ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ .

لا شك أن وضع الآيات التي استشهد بها ابن من الله القروي في سياقها الأصلي ، وهو أمر سيحدث في الغالب في ذهن المتلقي ، يضعف البناء الحجاجي لأطروحته بدل أن يقويه .

أما الشاهد الديني الرابع الذي نمثل به من رسالة ابن من الله ، فهو قوله عليه الصلاة والسلام : «أصل كل داء البردة» وقد جاء به تعضيدا لحجتين غير

---

(١) لقمان ٢٥ .

(٢) الزمر ٣ .

صناعيتين عبارة عن قولين مأثورين لدى العرب ، وهما : «المعدة بيت الداء والتخمة رأس الدواء» ، و «كل وأنت تشهي ودع أنت تشتهي» .

إن الحديث النبوي والقولين المأثورين حجج جيدة لنتيجة محتملة من قبيل «التخمة مضرة بالصحة» ، أما أن يجعلهم ابن من الله دليلا جامعا على علم العرب بأقسام الطب ، حيث قال «وأما أقسام الطب للأجسام فقد جمعتها العرب في كلمتين معلومتين ولفظتين محفوظتين ، على رأيها في الاقتصار ومذهبها في الاختصار . . .» ثم أورد القولين وبينهما الحديث ، فأمر مبالغ فيه ويفقدهم كل قوة حجاجية .

إن ابن من الله لم يوفق في توظيف الشاهد الديني توظيفا يخدم قصده الإقناعي ، ويرجع ذلك إلى طبيعة الرسالة التي بدا الشاهد الديني مقحما فيها ، لم تستدعيه سياقات محددة . فماذا عن الشاهد الشعري؟

يقول ابن بسام : «وأجاد ما أراد أبو الطيب عبد المنعم القروي برسالة أثبت أكثر فصولها ، على طولها لاشتمالها على المآثر العربية والمفاخر الإسلامية ، قال في أولها مفتتحا :

وذي خطل في القول يحسب أنه

مصيب فيما يلمم به فهو قائله»[1] .

لقد افتتح ابن من الله رسالته ، إذن ، بشاهد شعري ، وهي خطوة ذات قيمة حجاجية مهمة ، فمطلع الرسالة عموما هو أول ما يواجه المتلقي ، وهو ما يخلق أول انطباع لديه حول موضوع الرسالة وغرضها ، وبقدر ما يكون هذا المطلع جذابا بقدر ما يلتصق بذاكرة المتلقي ، وقد توفق ابن من الله لما جعل المطلع شعريا ، فالشعر أكثر إثارة للنفس ، وأسهل حفظا في الذاكرة ، كما توفق في اختيار البيت الأول لمطلعه ، فالمخاطب» ذي خطل في القول» ،وهي صفة ألصقها على

---

(١) الذخيرة ق٣م٢ص٧٢٢ .

جبين ابن غرسة منذ البداية ، مما سيجعل المتلقي يقبل أي نقد يوجه إلى هذا المخاطب «الجاهل» .

وبعد هذا المدخل القوي ، يستنكر ابن من الله تطاول ابن غرسة على العرب ، ويستغرب جحوده ونكرانه للجميل ، ويحاصره بسيل من الأسئلة الإنكارية التي تعريه ، وتصوره جاحدا غادرا ناكرا للجميل ، فيظهر شاهد شعري يعزز هذه المعاني ويقويها :

أعلمه الرماية كل يوم

فلما اشتد ساعده رماني .

ولعل كثرة تداول هذا البيت الشعري بين الناس أكسبه صدقية أكبر ، وزاد من قوته الحجاجية وجعله أكثر مقبولية وتأثيرا في نفس المتلقي .

وأجاد ابن من الله أيضا استدعاء الشاهد الشعري المناسب ، والمقنع عندما أراد أن يفخر بكرم العرب وجودهم ، فهو قوم» يرفعون العماد ، ويعظمون الرماد :

الموقدون بنجد نارا بادية

لا يحضرون وفقد العز في الحضر

إذا همى القطر شبتها عبيدهم

تحت الغمائم للسارين بالقطر»

فالأمطار لا تمنعهم من إكرام السارين ، ولا يزيدهم قر الليل إلا إصرارا على جلب الضيوف ، بل هم مستعدون لتحرير عبيدهم مقابل ضيوف يستقدمونهم في ظلمة الليل وقره ، حتى يقول قائلهم لعبده :

أوقد فإن الليل قر

والريح فيها برد وصر

عسى يرى نارك من يمر

إن جلبت ضيفا فأنت حر

إن هذه الأبيات/الحجج تتظافر لتشكل صورة للعربي الكريم ، وتدفع المتلقي؟إلى استحضار حاتم الطائي في مخيلته ، يحض غلمانه وأهل بيته على

إيقاد النار لاستقبال مزيد من الضيوف وإكرامهم .

وسيستمر تفوق ابن من الله في توظيف الشاهد الشعري خدمة لأطروحته الرامية إلى دحض مزاعم ابن غرسية القائلة بأفضلية العجم على العرب ، فبعد كشف فساد عقيدة قوم ابن غرسية ، باتخادهم المسيح وأمه إلهين من دون الله ، مع اعتقادهم بأن اليهود قتلوا المسيح وصلبوه ، تساءل» أرب معبود يقتل ويصلب ويقهر؟!» ، ومادام السؤال إنكاريا لا ينتظر جوابا ، فقد عضده بشاهد شعري يحمل ضمنيا الجواب الساخر الموجه إلى النصارى :

لقد ذل رب بالت عليه الثعالب .

وكما رأينا مع ابن غرسية ، ستضعف حجاجية الشاهد الشعري عندما يضعف البناء الحجاجي في رسالة ابن من الله ، خاصة في محاولته رد فخر ابن غرسية بالعلوم التي نبغ فيها قومه ، فقال : «وفخرت بالرياضة والأريضية ، صدقت ونبت عني في الجواب ، هي كالرياض سريعة الذبول كثيرة الخبول ، زهر مشرق ونور مطرق ، لاثمر ولا كثر :

وهل في الرياض لمستمتع
سوى أن يرى حسن أزهارها»

فالشاهد الشعري لا يخدم النتيجة التي يروم ابن من الله الوصول إليها ، وهي «تفاهة العلوم الرياضية» ، لأن أساس المحاجة واه ، وهو تشبيه الرياضية بالرياض من غير وجه شبه عدا الجناس الحاصل بين الكلمتين .

وعلى الرغم من ذلك ، يمكن أن نخلص إلى أن ابن من الله القروي توفق في توظيف الشواهد الشعرية ، باعتبارها أدلة غير صناعية دعمت أطروحته لدحض وتفنيد مزاعم ابن غرسية والانتصار للعرب ، وإن كان استدعاؤه للشاهد الديني أدى إلى نتائج عكسية كادت تعصف بالبناء الحجاجي لرسالته .

٢ - الأدلة الصناعية في الرسالتين:

حدد أرسطو هذا النوع من الأدلة الخطابية في ثلاثة أصناف : يتعلق الأول

بالخطيب نفسه ، بأخلاقه وشخصيته التي يمكن أن تشكل حجة مقنعة ، فتكسب الخطاب مصداقية وقوة حجاجية ، «فأخلاق الخطيب نفسه تنتهي به إلى الإقناع»[1] ، بينما يتعلق الصنف الثاني باستعداد المستمعين وانفعالاتهم وعواطفهم ، أما الصنف الثالث فيتعلق بالخطبة «حينما نذلل فيها على الحق أو على ما يشبه أن يكون حقا تدليلا تفصيليا معتمدا على وقائع ثابتة»[2] .

٢-١)-الإيتوس والباتوس:

وبما أننا أمام رسالتين مكتوبتين ، أنشئتا بعيدا عن جمهور الخطبة ومقامها ، فإن الصنفين الأولين من الأدلة وهما الإيتوس والباتوس ستكبح وظيفتهما الإقناعية ، أو على الأقل تقل فعاليتهما ، فكل ما يمكن تقديمه حول ابن غرسية وابن من الله القروي من خصوصيات يبقى مجرد استنتاجات عامة ، لا يمكن اعتمادها في التقييم الحجاجي للرسالتين ، كما أن المخاطب ليست له ملامح واضحة ، فهو متحرك في الزمان والمكان منذ أنشأت الرسالتين إلى يومنا هذا ، وتفاعله مع مضامين الرسالتين لا يحدث في مقام خطابي مباشر يمكن من رصد الانفعالات وتوجيهها وتوظيفها حجاجيا .

لكن وعلى الرغم من كل هذه الاعتبارات تبقى الحجج الإيتوسية والباتوسية حاضرة في الرسالتين ، فمن جهة أولى يقدم أبو عامر ابن غرسية نفسه في رسالته بصورة الرومي المدافع عن بني جنسه ، وهي صورة ستسهم قبول خطابه والتحمس إليه من طرف كل شعوبي يصله الخطاب . ونجد الأمر ذاته عند ابن من الله القروي فهو العربي المنافح عن بني جنسه المنتصر لهم .

ومن جهة ثانية سعت الرسالتين إلى تحقيق الإثارة العاطفية للمتلقي ، على اعتبار أن إثارة العواطف والمشاعر من أبرز سمات الأسلوب الخطابي ، لأنها

---

(١) فن الخطابة ص١٧١ .

(٢) فن الخطابة ص١٧١ .

تكتسب القول قوة توجه المتلقي إلى الهدف الذي يقصده المرسل ، وهي قوة «تمزج مشاعر السامعين بمشاعر الخطيب»[1] ، وتعزز الصلة بين المرسل والمتلقي وتكسر أي حاجز محتمل بينهما ، لأن غياب هذه الصلة وهذا الخيط الناظم سيعيق عملية الإقناع ، وسيجد المرسل أحد مستمعيه أو قرائه ، يقول له قولة الحسن البصري لأحد الوعاظ ، الذي لم يتسلل كلامه إلى قلب الحسن ، قال له : «يا هذا إن بقلبك لشرا أو بقلبي»[2] .

وقد عزف كل ابن من الله وابن غرسية على هذا الوتر الحساس ، مستغلين كل أساليب الإثارة لتحريك مشاعر معينة في المتلقي ، تجعل تفاعله مع كلامهما إيجابيا ، واقتناعه بدعاويهما أكثر سهولة .

ومن وسائل إثارة العاطفة إيمان المدعي بقضيته وحماسه لها ، وانفعاله الصادق اتجاهها ، حتى تصل كلماته الملتهبة وعباراته المشتعلة إلى قلب المتلقي فينفعل لها انفعالا «من غير روية» .

وقد بدأ كل من الكاتبين رسالته بداية قوية تظهر تحمسه وانفعاله ، فابن غرسية شرع في موضوعه مباشرة ، وكشف عن نيته وقصده في النيل من العرب ، وذمهم منذ السطور الأولى ، متخذا من هجاء ابن الخراز معبرا لذلك ، يقول : «سلام عليك ذا الروي المروي ، الموقوف قريضه على حللة بجانة أرش اليمن ، بزهيد من الثمن ، كأن ما في الأرض إنسان إلا من غسان أو من آل ذي حسان» .

إنه يظهر في السطرين الأولين من رسالته أن ابن الخراز ذريعة وقنطرة فقط ، وأن آل غسان وآل ذي حسان هم بغيته وضالته ، وفي ذلك توجيه منه للمتلقي نحو قضيته المتمثلة في ذم العرب والفخر بقومه العجم «الصهب الشهب ليسوا بعرب ذوي أينق حرب بل هم القياصرة الأكاسرة . . .»

---

(١)

(٢)

لا شك أن هذه البداية المنفعلة والقوية لابن غرسية ، ستثير عاطفتين أساسيتين في المتلقي الأعجمي خصوصا الذي لم يتشبع بروح الإسلام ، وهما الاحتقار والحقد اتجاه العرب ، وبالمقابل الفخر والاعتزاز اتجاه العجم .

ولن تعدم بداية رسالة ابن من الله لا القوة ولا الانفعال اللازمين لإثارة نفس العاطفتين ، لكن بشكل معكوس ، فالاعتزاز والفخر بالعرب ، والاحتقار والكره للعجم ، والمتلقي هذه المرة سيكون عربيا متعصبا لعروبته ، فالرسالة رد على «ذي خطل . . . فاخر بزعمه ، فاجر برغمه» ، وقد جعل ابن من الله بداية رسالته عبارة عن مجموعة من الاسئلة القصيرة التي لا نستطيع إلا أن نقرأها بانفعال وحماس لعمق معانيها ، ودقة صياغتها ، يقول : «كيف زللت حتى ضللت؟ . . . أما اتقيت مما ارتقيت؟ . . أما جبرت نقيصتك؟ أما وضعت خسيستك؟ ألم تربك فينا وليدا؟ ألم تتخذك تليدا؟ . . . أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أسلقتك بعد اللكنة . .» وتمضي الفقرة على هذا المنوال ، تسوق في أسئلة وجمل قصار عشرات الدوافع لإثارة حمية المتلقي وانفعاله .

ونستطيع أن نقول أن ابن من الله تفوق على ابن غرسية في تحقيق الإثارة ، لأن عرضه لدعواه كان مدعما بسيل من الحجج والأدلة على جحود بن غرسية .

ومن وسائل الإثارة أيضا اختيار المفردات والعبارات القوية والنفاذة الى القلوب ، والتي تثير في النفوس أخيلة وذكريات . .[1] وتؤجج مشاعر الاعتزاز والفخر أو مشاعر الاختقار والكره . . .

وقد نهج ابن غرسية في رسالته نهجا ذكيا ، عندما افتتح كل فقرة من فقراتها بصفتين متناغمتين قويتين ، يبرز من خلالها بعض أفضال وخصال ومفاخر قومه العجم ، فهم «الصهب الشهب ، الرزن الرصن ، المجد النجد ، البصر الصبر ، الوضح الرجع ، السرج الوهج الحلم العلم . . .» وكأني بابن غرسية ينظم

(١) فن الخطابة ص١٧١ و١٧٥ .

عقدا من المفاخر بهذه الألفاظ الموزونة يريد أن يوشح به العجم في نهاية رسالته .

كما دعم هذه الألفاظ بعبارات قوية لتكريس أفضلية العجم ، فقومه هم «القياصرة الأكاسرة» مع كل ما تثيره هذه العبارة من أمجاد خالدة في ذاكرة العجم ، وهم الفرسان الذمرة إذا «قرعت الظنابيب وأسرعت الأنابيب . . .» وهم الذين دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد كل غارب . . . «وهم ، أيضا ، الشجعان الدين» لا يقعقع لهم بالشنان ، ويوعوع لهم باللسان» . . . وغيرها من العبارات المذكية للحماس ، والرافعة لأسهم الاعتزاز والفخر .

وقد أدرك ابن من الله قوة ألفاظ ابن غرسية ، فسعى إلى إفراغها من حمولتها ، وتغيير وجهتها ، يقول : «الشهب الصهب ، والسنة شهباء ، والجهام صهباء ، كذلك أنتم لا خير ولا مير ، ولا عمرو ولا عمير . . .» ويقول كذلك : «ملس لمس ، لا تغيرون ولا تغارون ، ولا تمنعون ولا تمتنعون . . . .» كما دعم رسالته ، بدوره ، بألفاظ وعبارات» مضادة» ، فالعرب هم «العمالقة الجبارون ، والفراعنة القهارون «ومنهم «عاد الغالبة ، ذات الأحلام السداد ، والأجسام الشداد ، وإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد «ومنهم» ذو القرنين صاحب السد ، وشمر مخرب سمرقند» ، أما العجم «فرعاة الخنازير وأكلة التنانير وطهاة السنانير» ، وشعارهم في الحرب» الهرب الهرب هذه العرب!» . . .

وتلعب الجمل القصار كذلك دورا مهما في تحقيق الإثارة ، والتأثير السريع» لأنها سريعة الأداء ، سريعة الفهم ، متلاحقة الأثر ، مثلها مثل الطرقات المتوالية على الحديد المحمى ، تؤثر فيه وتشكله»[1] .

وتزخر الرسالتان كلتاهما بهذا النوع من الجمل ، بل يمكن القول أنهما بنيتا في أغلب أطوارهما على جمل قصيرة متلاحقة .

ولا يمكن أن نغفل ما للمراوحة ين الإخبار والإنشاء من دور في تجديد

---

(١) نفسه ص١٧٦ .

نشاط المتلقي ، وبالتالي التأثير فيه وإثارته «فالمعاني المتنوعة والانفعالات المختلفة في حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها »[1] ، ومن ذلك في رسالة ابن غرسية قوله : «معشر البداة العداة ، اعتقدتم غلا ، فاسترتم صلا ، أما علمتم أن المملكة النوشروانية والدولة الأزدشيرية ، بقروا أجوافكم وبلغوا أكتافكم؟ ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة . . .» وقوله كذلك : «فنحن عرق غرق في الأنساب الصحيحة والأحساب العميقة ، فمن يهولنا أو يروعنا؟! قد رسخت في المجد أصولنا وفروعنا ، ومن يطولنا؟ وكل الورى قد شمله فضلنا وطولنا؟!»

أما رسالة ابن من الله فهي أغنى من رسالة ابن غريسة ، في توظيف هذا التنويع من خبر ونهي واستفهام وتعجب . . . ، والأمثلة فيها كثيرة منها قوله : «لقد اهتديت إلى طريفة وانتهيت إلى لطيفة ، فسبحان الله ما أصدق حسك وأسبق حدسك! . . . فإن كان الأمر كما ذكرت ، فأين نجد وقلامة؟ وأين رنده ونشامه؟ . . . وكيف عرفوا دوح الكنهبل ومساويك الإسحل؟ وكتاب النبات يشهد عليك بما فيه من الأيك . . . ارفق بهم رفق الله بك ، اخفض لها من جناحك ، عد عليها بعطف من جناحك» .

والخلاصة أن الرسالتين تزخران بمقومات الإثارة ، وتؤكدان أن منشئيهما كانا يستحضران المتلقي بقوة ، فجهدا بأسلوبيهما المثيرين لاستمالته ، وإثارة عواطف ومشاعر معينة في نفسه ، تسهم في تحقيق إقناعه وتفاعله الإيجابي مع أطروحتيهما .

٢-٢)-المثل والقياس المضمر:

يركز الصنف الثالث من الأدلة الصناعية على العبارة نفسها ، وهي أدلة تبرز من خلالها قدرة الخطيب أو الكاتب على بناء حججه وبراهينه بتوظيف المادة اللغوية ، وتتخذ هذه الأدلة شكلين بارزين هما : المثل والقياس المضمر ، «فالمثل

---

(١) الخطابة لأرسطاليس ، تعريب إبراهيم سلامة ص ٨٥ .

استقراء خطابي ننتقل فيه من الخاص إلى الخاص بواسطة الحلقة الضمنية للعام . . . إنه مماثلة إقناعية ودليل يكون بواسطة قياس المشابهة»[1] .

وقد أدرك البلاغيون العرب أهمية المثل ودوره في إحداث الإقناع ، يقول ابن وهب» وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبينون للناس بتعرف الأحوال بالنظائر والأشكال ، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا وأقرب مذهبا ، ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ وقال : ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال﴾»[2] .

أما القياس المضمر فهو عند الأرسطين قائم على الاحتمالات العرفية ، وينطلق من اعتقادات الجمهور ، وهو استنباط يتيح الإقناع لا البرهنة[3] بينما صار في العصر الوسيط «يعرف لا بمحتوى مقدماته بل بالطابع الإضماري لتمفلصه : إنه قياس ناقص ، قياس مختزل»[4] ، ويكون هذا الاختزال والإسقاط لإحدى مقدمات القياس المضمر لأن الخطيب «يخشى أن يناقش السامعون المقدمة المحذوفة فيسقط أو يضعف دليله الخطابي ، أو أنه يعتمد على ذكاء السامعين وبديهتهم في إدراك المقدمة المحذوفة والربط بين المقدمتين ، أو أنه يغالط السامعين بأن يوحي إليهم ويلزمهم بأنهم موقنون بصحة المقدمة المحذوفة لأنها حقيقة يجب أن يسلموا بها»[5] .

نشير أخيرا إلى أن استعمال هذا النوع من الأقيسة العقلية في الخطاب العربي الأدبي عموما ، وفي الرسائل الأندلسية بشكل خاص ، ليس استعمالا

---

(١) البلاغة القديمة ص١٠٥ .

(٢) البرهان في وجوه البيان ص١١٧/١١٨ .

(٣) البلاغة القديمة ص١٠٩ .

(٤) نفسه .

(٥) فن الخطابة ص١٨٢ .

متكلفا يقصد إليه الكاتب قصدا ، «فهذه البراهين والأقيسة تعود إلى طبيعة العقل الإنساني ومبادئه ..»[1] .

فإلى أي حد وظف كل من ابن غرسية ، وابن من الله القروي هذا النوع من الأدلة في البناء الحجاجي لرسالتيهما؟

٢-٢-١) - رسالة ابن غرسية:

أ)- المثل :

تتضمن رسالة ابن غرسية مجموعة من الإشارات التاريخية ، التي انتقاها بل واجتزأها أحيانا لتخدم أطروحته الرامية إلى الطعن في العرب وفي تاريخهم ، وقد وظف هذه الإشارات توظيفا يخدم البناء الحجاجي لرسالته ، يقول : « . . .ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة ، بعد عظيم الحيرة ، قللا ذللا تتخيرون البنات عند البيات . . .فبرم من ذلك غسانكم ونعمانكم ، وكان برمه سببا لدرء أمانكم ، فأصبح بعد جر الذيول ، مدوسا بأخفاف الفيول» ، والمثل التاريخي الوارد في هذا النص يتعلق بالملك النعمان ، الذي لم ينعم بالملك ، في نظر ابن غرسية ، إلا برأفة وعطف من ملوك العجم ، الذين ملكوه الحيرة ، والدليل على ذلك أنه عندما برم وعصى أمر سيده ، كانت خاتمته الموت تحت أخفاف الفيول ، وإذا «كان المثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتيهما ، ويراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى مماثلتها»[2] ، فإن المشابهة في هذه الحالة بعيدة أو بالأحرى خفية ، لأن هدف ابن غرسية الأول هو الطعن في تاريخ العرب انطلاقا من ضرب المثل بهذا الملك الضعيف ، في نظره ، الذي نكل به العجم ، وهدفه الثاني ، وهنا تقوم المشابهة ، أن الملك النعمان رفض طلب أمر أسياده العجم ، فدفع حياته ثمنا ، فابن الخراز إذا رفض طلب أمر صديقه

---

(١) بلاغة الإقناع ص٨٥ .

(٢) بلاغة الإقناع ص٦٨ .

بالالتحاق بمجاهد العامري ومدحه ، قد يلقى نهاية مماثلة ومصيرا مشابها لمصير النعمان .

إلا أن ما يلفت الانتباه هنا ، هو أن ابن غرسية لم يذكر سبب غضب كسرى عن النعمان ، حتى يقتله بهذه الطريقة المتوحشة الفظيعة ، وذلك لأن ذكر السبب ، وهو رفض النعمان تزويج ابنته من كسرى ، سيقلب القيمة الحجاجية لهذا الشاهد التاريخي ، فالصورة ستصبح أن عربيا حرا أبيا ، أبت عليه نخوته أن يزوج ابنته لرجل ليس بكفء لها ، ومن هو هذا الرجل؟ إنه كسرى ملك ملوك العجم!!

كما استدعى ابن غرسية ثلاثة أمثلة تاريخية كثفها في فقرة واحدة ، وجعل منها دعامة أساسية للإقناع بدونية العرب وإصابتهم في مقتل ، فقومه «فعلهم ليس بالسفساف كفعل نائلة وإساف ، أصغر بشانكم إذ بزق خمر باع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذا أبو رغالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستئصالكم ، غضوا الأبصار فهذا الذكر إلى الفحش أصار» ، ويمكن أن نناقش الأمثلة التاريخية التي ساقها ابن غرسية في هذا النص كالتالي :

* المثل الأول : تفصيله أنهم «يزعمون إن إساف بن عمرو ، ونائلة بنت سهل فجرا في الكعبة ، فمسخا حجرين ، ثم عبدتهما قريش»[1] . يرمي ابن غرسية من خلال هذا المثل إلى الطعن في أخلاق العرب ، فمادام هذين العربيين قد فجرا في أقدس البقاع على وجه الأرض ، فإن كل العرب فجار ، وقد أجرى هذا المثل مجرى القياس المضمر ، إلا أن فيه مغالطة تعميم ، فكون إساف ونائلة فاجرين ، إذا صح الزعم ، لا يعني أن كل العرب فجار .
* المثل الثاني : تفصيله أنه «يذكر أن أبا غبشان كان يلي أمر البيت ، فاتفق أن اجتمع مع قصي بن كلاب في شرب بالطائف ، فخدعه قصي عن مفاتيح الكعبة بأن أسكره ، ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر وأشهد عليه ، ودفع

(١) نوادر المخطوطات ص٢٥٢ .

المفاتيح في يد ابنه عبد الدار بن قصي وطيره إلى مكة . .»[1]

والقصد من إيراد هذا المثل التاريخي الطعن في حرص العرب على المقدسات ووصفهم بالاستهتار ، فمفاتيح بيت الله باعها عربي عربيد بزق خمر!!وهذا المثل أيضا يجري مجرى قياس مضمر نتيجته أن العرب مستعدون لبيع كل غال ونفيس مقابل شهوة يصيبونها ، وفيه كذلك مغالطة تعميم .

* المثل الثالث : تفصيله أن «أبرهة عامل النجاشي على اليمن قد عزم على أن يهدم البيت ، ومر في طريقه على ثقيف بالطائف ، فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة»[2] ، وغاية هذا المثل هذه المرة إلصاق صبغة الخيانة والعمالة للعدو بالعرب ، ويمكن إجراؤه أيضا مجرى قياس مضمر ، إلا أنه بدوره فيه مغالطة تعميم .

لقد ساق ابن غرسية أمثلته الثلاثة حول بيت الله الحرام ، وهي خطوة تنم على ذكائه وبراعته في الانتقاء ، لأن ربطه لهذه الصفات السلبية (الفجور ، الاستهتار ، الخيانة والعمالة) بمكان مقدس ،بل بأقدس مكان على وجه الأرض ، فيه حجتان قويتان تخدمان أطروحته :

أولاهما : إذا كانت هذه الأخطاء التي ارتكبها العرب شنيعة وعظيمة وفادحة ، فارتكابها في مكان مقدس يجعلها أشنع وأعظم وأفدح .

وثانيتهما : من ارتكب جريرة عظمى في مكان مقدس ، سيكون أجرأ على ارتكابها في غيره من الأمكنة .

بمعنى آخر يقول ابن غرسية بشكل ضمني : أن من فجر في الكعبة ففجوره في غيرها سيكون عليه أهون ، بل إن الفجور من خصاله ، ومن باع مفاتيحها بزق خمر ، سيكون أجرأ وأقدر على بيع عرضه وأرضه بأتفه الأثمان ، وأن من

---

(1) نفسه .

(2) نفسه .

خان بلده وأهله وساعد العدو الساعي إلى هدم بيت الله الحرام ، فسيساعد بكل تأكيد ، الأعداء فيما دون ذلك .

وحتى يرقى ابن غرسية بالقيمة الحجاجية لهذه الأمثلة أوردها مترادفة لا تترك فرصة لمتلقي للتأمل في كل واحد منها على حدة ، ويأتي اللاحق معضدا مقويا للسابق ، مضيفا لبنة جديدة إلى النتيجة التي يدفع ابن غرسية نحوها ، وهي : «غضوا الأبصار فهذا الذكر إلى الفحش أصار ، فلا فخر معشر العربان الغربان» .

ب) - القياس المضمر:

يكثر استعمال القياس المضمر في الخطب والرسائل ، وهو كما أشرنا ، قياس حذفت إحدى مقدمتيه ، وقد وظفه ابن غرسيه بشكل كبير في رسالته ، التي بناها على فقرات تبتدأ كل واحدة بصفة أو صفتين مثبتين لأفضلية العجم ، هما بمثابة نتيجة القياس ، ثم يدلل على هذه النتيجة من خلال الأدلة أو المقدمات التي يسوقها بعد ذلك ، وسنعرض لمثالين من الأمثلة الكثيرة الواردة في الرسالة :

* يقول ابن غرسية : «بهم لا رعاة شويهات ولا بهم ، شغفوا بالماذي والمران عن رعي البعران ، وبجلب العز عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة» وفي قوله هذا قياس مضمر يمكن تأويله كالآتي :

- المقدمة الكبرى أو قانون العبور : البهم (الشجعان الجبابرة) لا يقومون بالأعمال الحقيرة (رعي الشويهات والبعران ، وحلب المعز) بل الأعمال الجليلة (القتال وجلب العز) .
- المقدمة الصغرى : نحن (العجم) شغلنا عن الأعمال الحقيرة بالأعمال الجليلة .
- النتيجة : نحن بهم (شجعان وجبابرة)

ويقول أيضا : «حلم علم : ذوو الآراء الفلسفية الأريضية ، والعلوم

المنطقـيـة . . . النهـضـة بعلوم الشـرائع والطبـائع ، والمهـرة في علوم الأديان والأبدان . . .» ، وفي هذا القول أيضا قياس مضمر نؤوله كالآتي :

- المقدمة الكبرى أو قانون العبور : من كانوا ملمين بمختلف العلوم والشرائع والفنون فهم الحلم العلم .

- المقدمة الصغرى : نحن برعنا في كل تلك العلوم .

- النتيجة : نحن حلم علم .

وقد مضت رسالة ابن غرسية على هذا المنوال في جل أطوارها ، وهو عندما يضع النتيجة في مطلع كلامه قبل أن يدلل عليها يجعل منها بؤرة تجلب انتباه وتركيز المتلقي ، ويبرزها بوصفها حقيقة لا تحتاج إلى تدليل .

وقد وظف ابن غرسية الشاهد الشعري والمثل التاريخي في بناء قياساته ، وقد أشرنا إلى الأمثلة التاريخية التي جرت مجرى القياس المضمر ، أما الشاهد الشعري ففي قوله : «

أمـكـم لأمـنـا كـــــانـت أمـــــة

إن تـنـكـرو ذلـك تـلـفــــوا ظـلـمــــة

. . . فلا تهاجر بني هاجر ، أنتم أرقاؤنا وعبدتنا» . ويمكن أن نؤول هذا القياس كالآتي :

- المقدمة الكبرى : من كانت أمه لأم غيره أمة ، فهو عبد لهذا الغير .

المقدمة الصغرى : أنتم العرب أمكم (هاجر) كانت أمة لأمنا (سارة) .

النتيجة : أنتم أرقاؤنا وعبدتنا .

٢-٢-٢)- رسالة ابن من الله القروي:

أ)-المثل:

لقد جعل ابن من الله القروي من تاريخ العرب على امتداده ، من أيام عاد وثمود إلى عصره ، أساسا لاحتجاجه ومخزنا لشواهده التي يحاول أن يبرز من خلالها أن الأفضلية كانت دائما للعرب ، فأخضع كل المحطات التاريخية ، حتى

تلك التي دانت فيها الأرض للعجم ، لقراءة خاصة تضع العرب في موضع عز واقتدار ، وينبغي أن لا ننسى أن رسالة ابن غرسية كانت رسالة ابتداء ، فكان أكثر حرية في اختيار حججه التاريخية وغير التاريخية ، أما ابن من الله القروي فرسالته رد ودحض ، مما أوجب عليه التعامل مع نفس الأمثلة التاريخية التي أوردها ابن غرسية ، لكن بتقديم قراءة جديدة تفند ما ذهب إليه غريمه .

إلا أنه لم يختلف كثيرا عن ابن غرسية في التعامل مع التاريخ بشكل انتقائي واجتزائي ، يجعل من الأحداث التاريخية أمثلة وحججا داعمة لأطروحته ، وسنحاول أن نبحث في بعض هذه الأمثلة التاريخية ، وفي القيمة الحجاجية التي أضفتها على رسالة ابن من الله القروي .

وقف ابن من الله كثيرا عند الفتوحات الإسلامية ، وإن كان لم يسمها باسمها ، ولا تحدث عن المسلمين باللفظ ، لأن المسلمين الذين بلغوا بالإسلام القسطنطينة والأندلس لم يكونوا كلهم عربا خلصا ، بل كانوا عربا وعجما!! وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه عند حديثنا عن الشاهد الديني ، فإدخال الإسلام والمسلمين في رسالة «عنصرية «سيضعفها ولا يقويها خصوصا إذا كان المتلقي مسلما سواء كان عربيا أو عجميا .

وهكذا كان حديث ابن من الله عن العرب الذين سحقوا العجم بالشرق والغرب ، «حتى أهلكوا ساسان وكاسان ، وملكوا خراسان وماسان ، وسلكوا بالقهر ما وراء النهر ، فأدخلوكم الدروب ، وألزموكم الكروب» ومضى بحديثه حتى بلغ بلاد الروم (قوم ابن غرسية) القسطنطينة ، فاستدعى المثل التاريخي الدال ، فقال «ألم تبلغك ضربة يزيد بعموده» ، في إشارة إلى يزيد بن معاوية الذي حاصر القسطنطينة ، وهو ولي عهد ، وذلك سنة٤٩هـ أو ٥٠هـ وأبلى بلاء جسنا في إغارته[1] ، فكأن ضربة يزيد تلك امتدت في الزمن على رؤوس العجم وأذنابهم حتى وصلت ابن غرسية .

(١) نوادر المخطوطات ص٣١٤ .

والمشابهة هنا تكمن في الإطار العام للعلاقة بين العرب والعجم ، فالعرب ، حسب ابن من الله ،كانت لهم الغلبة دائما على العجم ، دخلوا بلدانهم واستعبدوا أولادهم وسبوا نساءهم ، وهذه الغلبة التاريخية ستستمر في الأندلس ،لذلك لا داعي للتطاول عليهم والتعرض لهم ، يقول : «فما تعرضك لقوم سلكوا بلادكم . . .واستعبدوا أولادكم «والدليل الحي على ذلك ، ابن غرسية نفسه الذي سبي صغيرا» وكنت أنت من رذايا تلك السبايا ، ومن عبايا تلك الخبايا ، ومن خطايا تلك العطايا «ولعل هذه أوجع ضربة سددها ابن من الله القروي إلى ابن غرسية .

وليستمر هذا التفوق ، وحتى لا يبدو قومه العرب غزاة طغاة جبابرة ، يبرز لهم صفة نبيلة أخرى ، وهي العفو عند المقدرة ، يقول : «ثم إنهم حين قدروا غفروا» .

ومن الأمثلة التاريخية التي وجد ابن من الله نفسه مضطرا إلى الحديث عنها ، ومحاولة إفراغها من الحمولة التي أكسبها ابن غرسية في ذمه للعرب قصة الملك النعمان الذي صوره ابن غرسية ملكا عربيا ضعيفا ، وخادما ذليلا للعجم ، استعملوه فلما عصى أمرهم قتلوه شر قتلة .

إن صورة هذا الملك ستتغير لدى ابن من الله فهو «ملك أملاك وشمس أفلاك ، أصله عريق وفرعه وريق . . .» ، قد أسدى للفرس خدمات جليلة جحودها ، وعطايا ثمينة أنكروها ، فالغدر طبعهم ، والخيانة من شيمهم ، أما نهايته المأساوية التي صورها ابن غرسية خاتمة عبد عصى مولاه ، وتابع تمرد على سيده ، فقد جعلها ابن من الله تضحية شموخ وكبرياء وامتناع «فلما شمح على أعلاجكم ، وامتنع من زواحكم . . . استزرتموه وغدرتموه « ، ثم إن العرب لم تنس ثأرها لملكها العظيم : «فكيف رأيتم غضب العرب لثأرها وطلبها لأوتارها؟ ألم تصدمكم بذي قار صدمة ذي احتقار . . وأخذت بثأر النعمان وطحطحت بني ساسان وآل كاسان؟!» .

لقد أبرز ابن من الله في قصة النعمان حدثين بارزين ، شكلا حجتين

قويتين لأطروحته ، حدثين أقصاهما ابن غرسية وهما : سبب قتل النعمان وهو رفضه تزويج ابنته من كسرى ، وموقعة ذي قار التي أبلى فيها العرب البلاء الحسن .

الخلاصة أن المثل التاريخي في رسالة ابن من الله لم يقم على المشابهة بين الحالات ، بل قام على المشابهة في العلاقات التي كانت ترجح دائما كفة العرب وأفضليتهم ، فهم الأوفياء الأقوياء وهم الأسياد . . . فإذا كانوا كذلك في التاريخ القديم والقريب ، فهم كذلك في الحاضر والمستقبل .

ب) - القياس المضمر:

إن رسالة ابن من الله القروي غنية بالقياسات المضمرة ، جاء بعضها تدليلا على فجور ابن غرسية وقومه ، وجاء البعض الآخر مثبتا لأفضلية العرب على العجم ، وسنكتفي بمناقشة ثلاثة أمثلة :

- يقول ابن من الله : «أيها الفاخر بزعمه ، بل الفاجر برغمه . . . لقد تجرأت ومن الملة تبرأت»

وفي قوله قياس مضمر يمكن تأويله كالآتي :

- المقدمة الكبرى : من تجرأ على الملة وتبرأ منها فهو فاجر .
- المقدمة الصغرى : أنت تجرأت على الملة وتبرأت منها .
- النتيجة : أنت فاجر .

ويقول أيضا عن قومه العرب : «إن جاورتهم نصروك وإن حاورتهم قصروك ، وإن فاضلتهم فضلوك ، وإن ناصلتهم نضلوك ، وإن طاولتهم طالوك . . .» وهو قياس مبني على التقسيم ليوحى بالإحاطة والشمول ، ويمكن أن نؤوله كالآتي :

- المقدمة الكبرى : أفضل الأقوام من إذا جاورتهم نصروك ، وإذا حاورتهم نصحوك ، وإذا فاضلتهم فضلوك . . .
- المقدمة الصغرى : والحال أن العرب هم كذلك .
- النتيجة : العرب أفضل الأقوام .

ويقول كذلك : «فما تعرضك لقوم سلكوا بلادكم وملكوا تلادكم ، واستعبدوا أولادكم . . .» وفيه تقسيم كذلك وتأويله :

- المقدمة الكبرى : إن قوما سلكوا بلاد قوم ، وملكوا تلادهم ، واستعبدوا أولادهم لا ينبغي التعرض إليهم .
- المقدمة الصغرى : الحال أننا فعلنا بكم كل ذلك .
- النتيجة : لا ينبغي لكم التعرض إلينا .

ولا تكاد فقرة من فقرات رسالة ابن من الله القروي تخلو من قياس مضمر نتيجته إما أفضلية العرب ، إما دونية العجم ، وقد ساهمت هذه القياسات في الرفع من الإيقاع الحجاجي داخل الرسالة

٢)- تفنيد ابن من الله لبعض أدلة ابن غرسية:

تقوم عملية الحجاج بين طرفين : المدعي الذي يعرض دعواه ثم يدلل عليها ، والمعترض الذي يكون اعتراضه على الدعوى غير المدللة بالمنع ، أي مطالبة المدعي بالدليل على دعواه ، وعلى الدعوى المدللة بالنقض ، أي بإبطال دليل المدعي وبيان عدم صلاحية استدلاله بذكر شاهد على فساد الدليل ، أو بمعارضة المدعي وإقامة الدليل على نقيض دعواه[1] ، وقد يصبح المدعي معترضا ، والمعترض مدعيا خاصة في المناظرات والمحاورات . . .

أما في الرسالتين المدروستين ، فيقوم ابن غرسية بدور المدعي ، فهو المبتدأ بالكلام ، بينما يقوم ابن من الله القروي بدور المعترض ، مما جعل رسالته تقوم في أغلب أطوارها على تفنيد دعوى ابن غرسية وهي : أفضلية العجم على العرب .

---

(١) شوقي المصطفى : المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة ، السلسلة البيداغوجية ع ٢٦ ، ط١ دار الثقافة ، الدار البيضاء ٢٠٠٥ ص٩٨ .

والتفنيد هو «مناقشة آراء الخصم وأدلته لإبطالها، سواء أكان التفنيد للآراء العامة التي دعا الخصم إليها، أم للنتائج التي استنبطها»[1]، وله وسائل كثيرة منها: إبراز التناقض في دعوى الخصم والإنكار والموافقة والاستدراك ورد حجة الخصم... فما هي الصيغ والأشكال التي اعتمدها ابن من الله القروي لتفنيد دعاوي خصمه.

نجد في رسالة ابن من الله كل الوسائل التفنيدية التي أشرنا إليها، فقد أظهر تناقض الخصم عند الرد على دعوى ابن غرسية الذي مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وذم قومه العرب محتجا لدعواه بأن التبر يلفى في الرغام، وبأن المسك بعض ذم الغزال، بقوله: «وظننت أن مخالطتك تخفي مغالطتك وأن مدحك يستر قدحك حين مدحت مدحا بجليا، وأثنيت ثناء دخليا، ولم يمدح من ذمت قبائله، ولم يثبت من جذت حبائله، أجعلت ويحك، تبره في الرغام؟ بل الرغام لأنفك والرعام لوجهك»، كما اعتمد ابن من الله الإنكار أيضا لتفنيد نفس الدعوى، والإنكار هو عدم التسليم للخصم بما ادعاه مع إقامة الحجة على ذلك[2]، يقول: «وأشهد أن الله لم يجعل محمد صلى الله عليه وسلم هاشميا إلا وهاشم خير قريش، ولا قرشيا إلا وهم خير مضر، ولا مضريا إلا وهم خير العرب، ولا عربيا إلا وهم خير الأمم».

وقد اعتمد ابن من الله الإنكار لدحض العديد من دعاوي ابن غرسية، منها قوله: «وأما الخيل فسامح العرب بركوبها ووثوبها، وخل بينهم وبين عيوبها، فلاحظ لك ولأصحابك فيها... الخيل حرث العرب وحصادها وعدتها وأرصادها، ليست أمة من سائر الأمم الأعجمية تنازعها ذلك، وتدافعها عنه، تسميها بأسمائها، وتنسبها الى آبائها، وتعرفها بأصواتها وتؤثرها بأقواتها.. .قالوا: بنات أعوج وآل الوجيه ولاحق، وبنات العسجدي وآل ذي

(١) فن الخطابة ص١٣٢.

(٢) نفسه ص١٣٣.

المفال ، وداحس والغبراء ، والجرادة والحنفاء . . .وأسماؤها كثيرة وألقابها شهيرة ، ولعلك أن تذكر لنا من خيل آبائك الأولين ، وأفراس أسلافك الأقدمين ، فرسا مشهورا وفارسا مذكورا ، فإن أتيت بذلك شهدنا وأمنا» .

لقد سقنا هذا النص على طوله ، للإبراز البراعة التي فند بها ابن من الله دعوى ابن غرسية القائلة بأن الفروسية مفخرة العجم وأن العرب لا شأن لهم فيها ، فقد أنكر الدعوى ودلل على ذلك بمعرفة العرب الدقيقة بالخيل ، وذكر أسماءها الشهيرة ، ثم ختم قوله بتحد صريح لابن غرسية بأن يذكر فرسا واحدا مشهورا أو فارسا مذكورا عند قومه .

ويكون التفنيد أيضا بالموافقة ، وهي الإقرار بدعوى الخصم مع مخالفته في تكيفها[1] . ومن أمثلتها في رسالة ابن من الله قوله : «وأنتم كما وصفت ملس لمس لا تغيرون ولا تغارون ، ولا تمنعون ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء ، وأفئدتكم هواء ، وعقولكم سواء ، قد لانت جلودكم ، ونهدت نهودكم ، واحمرت خدودكم ، تحلقون اللحي والشوارب ، وتتهادون القبل في المشارب» .

إن ابن من الله يقبل دعوى ابن غرسية ويسلم بأن قومه العجم«ملس لمس» ،لكنه وجه هاتين الصفتين وجهة غير تلك التي ذهب إليها غريمه ، الأمر ذاته نجده في قصة النعمان التي سبق أن بسطنا الحديث فيها .

ولعل رد حجة الخصم عليه من أقوى أساليب التفنيد ، إذ أنك تبطل دعوى الخصم بحجة ساقه بنفسه للتدليل على دعواه ، ومثاله من رسالة ابن من الله قوله : «والعرب تنم بالدعة ، وتهجو بالسعة ، وتفخر بالجلادة ، وتتبجح بالصلادة ، فإن فاخرتها فبغير الطعام والشراب» ، فابن غرسية أنكر على العرب خشونة عيشهم وبساطة مأكلهم ومشربهم ، لكن ابن من الله جعل ذلك مفخرة للعرب ودليل رجولتهم ، فهم يفخرون بالجلادة والصلادة ، وهو بذلك يرد حجة ابن غرسية عليه .

---

(1) فن الخطابة ص١٣٥ .

وإذا كان ابن من الله قد برع في تفنيد دعاوي ابن غرسية التي ذكرناها ، فإنه أخفق في ذلك عندما تصدى للرد على افتخار ابن غرسية بمجموعة من العلوم ، فقال : «وفخرت بالرياضة الأريضية ، صدقت ونبث عني في الجواب ، هي كالرياض سريعة الذبول ، كثيرة الخبول . . . وأما الاسترلوميقا وهو علم الهندسة فعلم عملي مبني على التقاسيم والتراسيم . . . وكله آلات للحالات وأدوات لذوات . . . فأهلها عمال ممتهنون وبأشكالها مرتهنون ، والعرب بعيدة عن المهنة» ، ولعلنا بتفحصنا للحجج الواهية التي ساقها ابن من الله لدحض دعوى ابن غرسية ، سنتفق كثيرا مع الدكتور إحسان عباس حين قال : «إلا أنه (يقصد ابن من الله) حين يصل إلى الفخر بالعلم يسقط سقطة شديدة»[١] .

ويمكن لتفنيد المعترض أن يكون استباقيا ، فيتوجه إلى دعاو وآراء يتوقع من الخصم أن يدلي بها[٢] ، وقد سلك ابن من الله هذا المسلك عندما كان يناقش بعض العلوم التي افتخر بها ابن غرسية ، وكذلك عندما طعن في عقيدة النصارى ، وخلق حوارا افتراضيا بينه وبين قوم ابن غرسية ، ليظهر بمظهر المتفهم العادل والمناظر المتخلق ، الذي يعطي للخصم فرصة التدليل على دعواه ، إلا أن الحوار الذي خلقه ابن من الله مع العجم ليناقشهم من خلاله يشبه إلى حد كبير المحاورات التي أجراها أفلاطون مع السوفسطائيين ، والمغالطة التي تكمن وراء هذا النوع من الحوارات هي أننا مهما كنا موضوعين في التحدث بلسان الخصم ، فإن ذواتنا سوف تدخل حتى لا نطرح من دعاويه إلا تلك التي يمكننا دحضها ، ومن جهة أخرى لن نكون أبلغ من الخصم في نقل دعاويه لأننا نبسط آراء نرفضها ونسعى إلى ردها ، بينما هو يبسط آراء ودعاوى يؤمن بها ويعتقدها ويستميت في الدفاع عنها .

وسنكتفي بمثال واحد من رسالة ابن من الله لأن هذا النوع من التفنيدات

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ص١٧٦ .

(٢) فن الخطابة ص١٣٢ .

بند في فقرات كاملة ، يقول : «ومنهم القائلون : العناصر أربعة هي بسائط للمركبات ، فقضوا بائتلاف المتضادات ، وتركيب المتحادات ، فجمعوا بين النار والماء ، والأرض والهواء ، فإن قيل كيف صارت متظافرة وهي متنافرة ، وغدت متجاورة وهي متعاورة ، وإذا كانت تتهارج ، كيف تمازج ، أم كيف يمتزج الصاعد بالراكد ويلتبس الحار بالبارد؟ قالوا : جمعها جامع ، وقمعها قامع ، بطبعه لا باختياره ، وبفعله لا باقتداره ، وهذا غاية المحال ، ونهاية الاختلال ، لأنه لا بد أن يكون الخامس مثلها أو مثل بعضها أو مخالف لكلها . . .»

ويبدو أن ابن من الله أطال كثيرا هذا الحوار والجدل والاحتجاج ، إذ أن ابن بسام يعلق بعد هذه الفقرة بقوله : «وبين أبو الطيب بطلان قولهم في احتجاج طويل ، أضربنا عنه تركا وتخفيفا للتثقيل»[1] .

وقد يتوجه المعترض أيضا ، في تفنيده إلى الطعن في شخصية المدعي وأخلاقه ، حتى إذا ما أقنع المتلقي بسوء خلقه ، سهل عليه إقناعه بفساد دعواه ، لأن أخلاق الخطيب/الكاتب وشخصيته (الإيتوس Ethos) تعتبر من الأدلة غير الصناعية ، إلا أن هذا النوع من الأدلة تكون له فعالية حجاجية عندما يصل المتلقي بنفسه إلى معرفة أخلاق المرسل ، أما عندما يكون الخصم هو مصدر هذه المعرفة ، فإنها تفقد الكثير من هذه الفعالية ، بالإضافة إلى أن الإساءة إلى الخصم بالقول والفعل والتطاول عليه بالتنقيص والشتم بغية إضعافه عن القيام بحجته ، ليست من أخلاقيات المناظرة[2] .

وقد خصص ابن من الله بداية رسالته ، وبشكل مسهب ، للنيل من ابن غرسية «الفاخر بزعمه ، الفاجر برغمه» كما اتهمه بالجحود ونكران الجميل والغدر ، يقول : «أما كانت للعرب يد تشكرها . . .أما جبرت نقيصتك ، أم رفعت خسيستك؟ . . . ألم تربك فينا وليدا؟ . . . أما أنطقتك بعد العجمة . . .

---

(١) الذخيرة ق٣ ، ص٥٥٧/٥٥٨ .

(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ص٧٠ .

حتى إذا اشتد كاهلك وعلم جاهلك وقوي ساعدك . . .كفرت نعمتها ونشرت عصمتها . . .» ، ولعل في هذه الخطوة من ابن من الله توجيه للمتلقي ، بإثارة عواطف الغضب ، بل الكره لديه (الباتوس Pathos) ، خاصة إذا كان عربيا متعصبا لعروبته ، وإن كانت هذه الإثارة تفتقر إلى التواصل المباشر بين المرسل والمتلقي ، حيث يكون لنبرة الصوت وقوته ، وتقسيم الكلمات ، وتنويع الإشارات . . .دور كبير فيها ، مما يجعل هذا النوع من الأدلة الصناعية يكتسب قيمة حجاجية أكبر في الخطابة .

II- حجاجية الأسلوب في رسالتي ابن غرسية وابن من الله القروي:

كان الأسلوب غائبا في تصنيف كوراكس لأجزاء الخطبة ، فظهر عندما حاول جورجياس تطبيق بعض المبادئ الإستيتيقية المستقاة من الشعر على النثر ، وقد أخذ مكانة أقل من غيره من عناصر الخطابة لدى أرسطو ، فتطور مع اللاتينيين (شيشرون وكونتليانوس) ، لينتهي به الأمر إلى استيعاب مجموع البلاغة التي انحصرت في «الصور البلاغية»[(١)] .

وترجع أهمية الأسلوب إلى كون عامة الناس» يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم ، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة ، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقول ، بل يجب أن يقوله كما ينبغي»[(٢)] .

وبلاغة المرء لا تنحصر في إبلاغ المعنى وإفهامه ، بل عليه أن يضفي من أسلوبه على معانيه حلة بديعة دون تكلف أو تصنع ، وقد وضع شيشرون لكل هدف أسلوبا ملائما : فالأسلوب البسيط مرتبط بالأخبار والتفسير وملائم للسرد والإثبات ، أما الأسلوب المتوسط فيكون أكثر تنميقا وإثارة ويماثل الاستدلال

---

(١) البلاغة القديمة ص١٥٠ .

(٢) الخطابة تحقيق بدوي ص٢٢٥ .

والاستطراد ، بينما يكون الأسلوب الرفيع أكثر زخرفة وجلالا ويلائم الختام والمقاطع العاطفية[1] .

وإذا كان أسلوب الخطيب ، في أغلب أطواره ، واضحا سهلا ، يخضع إلى ما يدعو إليه المقام من تكرار أو إيماء أو تقصير الجمل أو تطويلها ، مع توظيف الإشارة والحركة ونبرات الصوت ، وإثارة النكتة أحيانا ، وانتقاء الألفاظ الموسيقية الخفيفة على السمع أحيانا أخرى ، فإن أسلوب الكاتب فيه تأنق وترو ، كما أنه يعلل ويحلل . . . لأن للمتلقي كل الوقت ليفكر فيما استغلق بإعادة القراءة مرات ومرات ، عكس المستمع للخطبة الذي يجد نفسه مضطرا لمتابعة الخطيب .

ويعتقد الدكتور محمد العمري أن الأسلوب إذا كان جزءا من بلاغة الخطاب عند اليونان ، فإنه «يمثل الصدارة في البلاغة العربية التي لم تميز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب»[2] ، كما يرجع بروزه وأهميته في الخطابة العربية إلى هيمنة الشعر باعتباره ديوان العرب ، وعلم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، ثم إلى خوض الخطابة في الموضوعات الشعرية كالتعزية والشكر والوصف وغيرها من الموضوعات الوجدانية ، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الخطباء كانوا شعراء أيضا ، فالخطابة العربية نشأت في محيط شعري[3] .

ويتميز الأسلوب الخطابي بمزجه بين الأدلة التي تكفل الإقناع ، والإثارة التي تحقق الاستمالة ، فهو من جهة يحاول تقرير الحقائق فيتجه إلى الفكر ، ومن جهة أخرى يحاول إثارة العواطف فيتجه إلى الوجدان . وبتمعننا في الرسالتين المدروستين (رسالة ابن غرسية ورسالة ابن من الله) ، نجد أنهما تتمتعان بأسلوب خطابي متين ، حاول الكاتبان توظيفه لتحقيق القصد الإقناعي

---

(١) النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية ، ص٢٢ .

(٢) بلاغة الإقناع ص٨٧ .

(٣) نفسه صص ٨٩/٩١ .

لرسالتيهما ، ولتقوية بنائهما الحجاجي .

فما هي الظواهر الأسلوبية البارزة في رسالتي ابن غرسية وابن من الله؟ وكيف خدمت هذه الظواهر القصد الإقناعي والحجاجي لرسالتيهما؟

١)- الإطناب:

قد يكون الإطناب غير محمود في الأسلوب العلمي ، لكنه مقبول في الأسلوب الخطابي ، بل وضروري في الخطابة السياسية والقضائية والحفلية(١) ويبقى اعتماد الخطيب أو المترسل على الإطناب أو الإيجاز في خطبته أو رسالته مرتبطا أساسا بمقتضيات المقام وأحواله ، «فإن استدعى إطنابا وتفصيلا أطنب ، وإن تطلب تقصيرا أوجز ، على أن يطيل في غير خطل ولا إملال ، ويوجز في غير تعيمة ولا إخلال»(٢) .

وإذا كان الخطيب يرقب مستمعيه ، فيلحظ فتورهم إن فتروا فيوجز ، ويلحظ تشوقهم وإقبالهم إن أقبلوا فيطنب ، فإن الكاتب لا يتأتى له ذلك ، إذ يفقد سلطته على ما يكتب بعد خروجه من بين يديه ، مما يجعله يحرص على تحبيره ومراجعته ، فيوجز متى أدرك بحدسه وذكائه أن المقام مقام إيجاز ، وأن الموضوع لا يحتاج إلى كثير تفصيل ، ويطنب متى أدرك عكس ذلك ، ولا يتأتى هذا الأمر ، إلا المترسل البارع والكاتب المجيد الحاذق .

ويؤدي الإطناب في الأسلوب الخطابي وظيفته الإقناعية باعتماد التكرار المعنوي أو التفصيل والشرح وتوليد المعاني ، فهل توفق ابن غرسيه وابن من الله في جعل إطنابها مقنعا وغير ممل؟

إذا عددنا المعاني التي قامت عليها الرسالتان الطويلتان ، أدركنا أن الإطناب هو السمة الغالة عليهما ، فالمعاني محدودة ، لكن ابن غرسية وابن من الله كررا

---

(١) فن الخطابة ص١٦٣ .

(٢) نفسه ص١٦٤ .

هذه المعاني بطرق متنوعة ومختلفة «ولا عيب في هذا التكرار إذا ما تغايرت عباراته»[1] يقول ابن غرسية : « . . . عوضك عن الأندية بجوب الأدوية وعن الألف بقطع المتالف ، وحملك على مخالفة الحَصان ومحالفة الحِصان ، ووكلك بمسح الأرض ذات الطول العرض . . .» ، فالعبارات تحمل معنى واحد وهو : «عوضك عن حياة الراحة والمجالس بحياة السفر والتعب» لكن التعابير مختلفة ، والجمل متجددة ، وفي ذلك إيهام للمتلقي بالكثرة و التعدد .

قد سلك ابن غرسية السبيل نفسه لإثبات الشجاعة لقومه العجم فهم «جبابرة قياصرة ذوو المعافر والدروع للتنفيس عن روع المروع حماة السروح نماة الصروح ، «وإذا خبرتهم في الحرب «ألفيتهم ذمرة الناس عند احمرار الباس . .» وهم الذين «دوخوا المشارق والمغارب فاستوطنوا من المجد الذروة والغارب . .» ، تختلف التعابير وتتنوع لتركز في ذهن المتلقي معنى واحد هو شجاعة العجم ، فالشيء إذا تكرر تقرر كما أن تكرار الفكرة يوهم بصدقها .

أما الشرح والتوضيح وتوليد المعاني ، فيغطي الرسالة بأكملها ونمثل له بقوله : «بصر صبر : تزدان بهم المحافل والجحافل ، كواكب المراكب ، قيول على فيول ، نجوم الرجوم من العجم ضراغمة الأجم ، بنو غاب منتفون من كل عاب» .

ولن يبعد ابن من الله كثيرا عن نهج ابن غرسية ، فالتكرار والشرح والتوضيح وتوليد المعاني عناوين بارزة في رسالته ، يقول عن العرب : «إن جاورتهم نصروك ، وإن طاولتهم طالوك ، وإن استنلتهم أنالوك ، بالكرم يلهجون ، وبحسن الشيم يبهجون» ، فالعبارتان الأخيرتان تلخصان كل ماسبقهما لكن التقسيم الذي صاغه ابن من الله بأسلوب رفيع ، جعل شيم العرب غير محدودة ولا منتهية ، تحاصر المتلقي من أي باب طرقها وتشمله وتتعداه .

ويعير ابن غرسية بكونه سبي العرب ، فيقول : «وكنت أنت من رذايا تلك

---

(1) نفسه ص١٦٤ .

السبايا ومن عبايا تلك الخبايا ، ومن خطايا تلك العطايا ، فلا تحرد حرد المقهور ولاتضجر ضجر المبهور ، ولاتحنق حنق الأسير على القد ، ولاتغضب غضب المستقي على العد . . .» لقد نوع ابن من الله العبارات ليعمق المعنى في النفس ويرسخه ، حتى لاتمر هذه الحجة التي يريد أن يفحم بها ابن غرسية دون انتباه المتلقي .

٢) - الاستفهام:

الاستفهام هو طلب الفهم ، ويسمى أيضا الاستخبار ، وهناك من البلاغين والنحاة «من فرق بينهما بأن الاستخبار ما سبق أولا ولم يفهم حق الفهم ، فإذا سألت عنه ثانيا كان استفهاما»[(١)] ، ولا يكون الاستفهام حقيقة «إلا إن صدر عن شاك مصدق بإمكان الإعلام فإن غير الشاك إذا استفهم يلزم تحصيل الحاصل ، وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام»[(٢)] .

إلا أن الاستفهام قد يخرج عن حقيقته ، فيصدر» ممن يعلم ويستغن عن الإفهام»[(٣)] ، ويتوقف ذلك على مقصديه المستفهم من سؤاله ، وسياق الحديث ودلالة الكلام وهو في هذه الحالة إما أن يكون بمعنى الخبر فيكون استفهام إنكار أو استفهام وتقرير . أو أن يكون بمعنى الإنشاء فيكون للتوبيخ أو التهكم أو الاستهزاء أو التحذير أو التحقير أو التعجب .[(٤)] .

وهذا التنوع في الوظائف يجعل للسؤال أساس التفاعل الإنساني ، «فحيثما يوجد سؤال كامن ، فثمة نقاش»[(٥)] ، والنقاش معبر عن العلاقات التخاطبية بين

---

(١) البرهان في علوم القرآن ،ج٣ ، ص٣٢٦ .

(٢) نفسه ص٣٢٧ .

(٣) نفسه ص٣٢٨ .

(٤) البرهان في القرآن ، ج٣ ، صص ٣٢٨/٣٤٤ .

(5) Meyer. Micher de la problematologie...op.cit p259.

الذوات ، التي تنطلق من السؤال لتبحث في الجواب أو الأجوبة الممكنة التي ستولد بدورها أسئلة جديدة تحتاج إلى أجوبة . . . ، فالسؤال هو المنطلق وبه» تستدعى الأجوبة وتبنى البدائل التي تطور المعرفة»[1] .

ويضطلع السؤال في النصوص الحجاجية بوظيفة إقناعية ، بل إن الحجاج ، في نظرية ميار ، هو دراسة العلاقة بين ظاهر القول وهو الجواب ، وضمنيه وهو السؤال ،» فما الحجة عنده إلا جواب أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمنيا من ذلك الجواب»[2] .

وتختلف القيمة الحجاجية للسؤال بحسب طبيعته ومقصديته وكيفية توظيفه ، فهل من دور حجاجي للاستفهام في الرساليتين المدروستين؟

إذا كان الاستفهام لم يرق إلى مستوى الظاهرة الأسلوبية في رسالة ابن غرسية ، فإنه من أبرز هذه الظواهر في رسالة ابن من الله القروي ، على أن الجامع بين كل الاستفهامات الواردة في الرسالتين هو أن الاستفهام فيها خرج عن حقيقته ، أي طلب الفهم ، وأدى أغراضا أخرى تعكس الطاقة الحجاجية التي يتمتع بها الاستفهام أهمها :

1-1).الإنكار:

يهدف الاستفهام الإنكاري إلى إثارة الشك حول أطروحة الخصم وإرباكه وإزعاجه[3] ، بل وتحويله إلى متهم وذحره «إلى مواقع دفاعية يحرم فيها المبادرة»[4] ، ويصبح ملزما بالدفاع عن أطاريحه وأفكاره ، يقول ابن غرسية : «من يطولنا أو يروعنا؟ فقد رسخت في المجد أصولنا وفروعنا ، ومن يطولنا وكل الورى

---

(1) خطاب المناظرة ص183 .

(2) الحجاج في القرآن الكريم من خلال خصائصه الأسلوبية ص41 .

(3) خطاب المناظرة ص183 .

(4) نفسه .

قد شمله فضلنا وطولنا؟» ، إنه لا يجعل إمكانية قدرة أحد على مطاولتهم وبلوغ مجدهم أو إصابتهم بالهول والفزع محط شك فقط ، بل يجعلها مستبعدة ومستحيلة .

ومن أمثلته في رسالة ابن من الله قوله : «أم تراكم تركتم لهم الشام رعيا لذمامهم وصلة لأرحامهم؟» أي لم تتركوه لهم من أجل ذلك .

وتتجاوز الأبعاد الحجاجية للأسئلة الإنكارية ، لدى ابن من الله ، هذه الأهداف لـ «ترتبط كذلك بالتشهير بأخطاء الخصم أو النفخ فيها ، حتى يتسرب الارتياب لصاحبها وحتى يتسع حجم فداحتها»[1] ، يقول : «هل كان النعمان إلا ملك أملاك . . اتخذتموه جبارا ودون العرب حجازا . . فلما شمخ على أعلاجكم وامتنع من زواجكم ، استزرتموه فغدرتموه؟» .

١-٢)-التقرير:

وهو «حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر استقر عنده»[2] ، وهو عند ابن وهب «يكون سؤالا عما تعلمه ليقر لك به»[3] ، وتكمن قيمته الحجاجية في كشف الآراء التي يتبناها الخصم أمام المتلقين» والآراء إذا أصبحت مكشوفة ومثبتة التبني يسهل على المناظر إبراز تفاهتها وكشف تناقضها»[4] .

وهو من الأسئلة المركزية في المناظرة إذ «لا ينحصر في الحيز الافتتاحي بل يؤطر استعمالات الاستفهام في طوري المناظرة الحاسمين (المواجهة والمدافعة)»[5] .

---

(١) خطاب المناظرة ص١٨٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، ج٣ ، ص٣٣١ .

(٣) البرهان في وجوه البيان ص٩٤ .

(٤) خطاب المناظرة ص١٩٣ .

(٥) نفسه .

وإذا كانت مواجهة الخصم المباشرة في المناظرة تسمح بانتزاع اعترافه وإقراره على رؤوس الأشهاد، فإن الأمر في الرسائل يختلف، فالخصم غائب وقد ينكر ما يوجه إليه عندما يبلغه، لذلك يندر هذا النوع من الأسئلة فيها، إلا أن ابن من الله وظفه بذكاء عندما استفهم عن أمور لا يمكن لابن غريسة إنكارها، لأنها معلومة بواقع الحال، يقول: «ألم تربك فينا وليدا؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أسلقتك عقب اللكنة؟ . . .أحين فكت أسرك من أقذورة القلف . . . وشدت ظهرك للمتان، واعتمدت طهرك بالختان؟! . . .» .

إن ابن غرسية لن يجرؤ على نفي ما وجه إليه، فإسلامه دليل على ختانه!!ورسالته شاهدة على فصاحة لسانه، وعليه فهو في مقام المعترف والمقر بما وجه إليه، وحق لابن من الله أن يبني على اعترافه وإقراره نتيجة حجاجه، وهي جحود ابن غرسية ونكرانه للجميل، حيث يقول : «كفرت نعمتها لديك ونثرت عصمتها من بين يديك، وأخذت تطاولها بأرسانها، وتقاولها بلسانها، وتناضلها بسهامها . . .» .

١-٣)-الاستهزاء والتوبيخ:

سبقت الإشارة إلى أن النيل من شخصية الخصم وأخلاقه، وتشويه صورته أمام المتلقي يؤثر على القيمة الحجاجية لخطابه، وأشرنا كذلك إلى أن هذا الأمر يتنافى مع أخلاقيات المناظرة، إلا أن الكثير من الأسئلة التي وظفها ابن من الله، كانت تقصد التأثير على صورة ابن غرسية لدى المتلقي (قارئ الرسالة)، إما بالاستهزاء أو التوبيخ والتقريع، ومن ذلك قوله :

- كيف زللت حتى ضللت؟ أما تهديت لما تعديت؟
- أما وجمت مما هجمت؟ أما اتقيت مما ارتقيت؟
- ويحك بما آثرت وبمن كاثرت، أما استحييت مما انتحيت؟
- أما هذا من جهلك؟
- أجعلت ويحك تبره في الرغام؟

- كيف استنجزت على فضلك الباهر وعلى شرفك ، بزعمك ، الطاهر . . .؟

فهذه الأسئلة تحمل سيلا من الاستهزاءات والتوبيخات لابن غرسية ، وتهدف لنيل منه ، ويمكن أن نبرر ذلك بكون ذم العجم جزء من أطروحته ابن من الله ، ولما كان ابن غرسية عجمي ، فأي نيل منه هو نيل من قومه .

١-٤)- التوريط:

تعتبر الأسئلة التوريطية آلية إقناعية في المناظرات ، فمن شأنها إرباك الخصم ، و«جره إلى خلاف اعتقاده أو التنكر لرأيه»[1] .

وقد أورد ابن من الله هذا النوع من الاستفهامات عندما طعن في عقيدة النصارى وأثبت فسادها ، وإن ألبسها طابع السخرية والتهكم ، يقول مثلا :

-أرب معبود يقتل ويصلب ويقهر؟

إن محاولة أي نصراني التصدي للإجابة على هذا السؤال ، سيوقعه في المصيدة التي نصبها له ابن من الله ، فإجابته «بنعم» ، تؤكد أن هذا الرب المعبود ضعيف لم يستطيع الدفاع عن نفسه ، والنتيجة أنه لا يستحق أن يعبد بل أنه ليس برب ، أما إذا أجاب «بلا «فمعنى ذلك أن الرب المعبود لا يمكن أن يقتل ويصلب ويقهر ، والحال أن عيسى عليه السلام ، في اعتقاد النصارى ، قتل وصلب . . .إذن هو ليس برب ، ففي الجوابين معا إدانة للنصراني ودليل على فساد اعتقاده .

إن السؤال التوريطي يهدف إلى محاصرة المخاطب وإيهابه أنه لا يحتمل إلا أحد الجوابين (نعم أو لا) ، وفي كليهما توريط للمخاطب ودحض قصد لزعمه واعتقاده .

صفوة القول أن الاستفهام غير الحقيقي له طاقة حجاجية وإقناعية كبيرة ،

---

(١) خطاب المناظرة ص١٩٤ .

لم يستفيد منها ابن غرسية كثيرا في دعم البناء الحجاجي لرسالته ، بينما جعل ابن من الله منها آلية إقناعية إضافية ، أكسب رسالته شحنة حجاجية قوية فند من خلالها الكثير من آراء ابن غرسية ، بالإنكار والتقرير تارة ، وبالتوبيخ والاستهزاء والتوريط تارة أخرى .

٢)- النفي:

يلعب النفي باعتباره آلية إقناعية «للنقض ، تفتت الرأي المضاد وتنزع عنه المصداقية ، وتثبت بدله الرأي المتبنى»[١] ، دورا فعالا في النصوص الحجاجية التراثية والحديثة ،وتمتاز هذه الآلية خاصة في المناظرات والسجالات والمراجعات والمفاخرات ، بالطابع الارتجاعي ، إذ تصدر كرد فعل على ادعاء الخصم[٢] ، كما تضطلع بدورين بارزين : دور شكيكي ودور تقويمي .

أما كونها تشكيكية فلأنها تستخدم لتفنيذ رأي الخصم وكشف مغالطته ودفعه إلى مراجعة دعواه ، «أو فتح ثغرات في البناء الإقناعي الذي يستند إليه»[٣] ، مما يوقعه في الارتباك ، ويصيب بناءه الحجاجي بالاضطراب فتضعف دعواه ، وأما كونها تقويمية فلأنها لا تسلم بدعوى الخصم بل تخضعها للفحص والنقد ، وإسناد قيمة معينة لها .

ويستخدم النفي ، غالبا ، لقلب اعتقاد الخصم أو إبطاله من خلال الجحد المتمثل في إنكار أطروحة الخصم ، والتعويض الذي يتعدى الجحد إلى تقديم الأطروحة البديلة[٤] .

---

(١) خطاب المناظرة ص١٩٨ .

(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ص٤٣ .

(٣) خطاب المناظرة ص ٢٠٢,

(٤) أحمد المتوكل : الوظيفة والبنية-مقاربات وظيفية لبعض قضايا التراكيب في اللغة العربية ، مطابع منشورات عكاظ ، الرباط ، ١٩٩٣ص ١٠٢ .

ففي أي إطار يمكن وضع أساليب النفي الواردة في رسالتي ابن غرسية وابن من الله؟ .

أ)- رسالة ابن غرسية:

يقوم ابن غرسية من خلال رسالته ، بدور المدعي صاحب المبادرة وهو صاحب الدعوى ، إلا أن هذا لا يعني أن رسالته خالية من الاعتراضات ، فابن غرسية اعترض على مجموعة من الأفكار التي توقع أن يحتج بها العرب ، وحاول إبطالها .

كما أنكر مجموعة من الاتهامات التي يمكن أن توجه إليه ، وعليه فقد تقمص ابن غرسية أحيانا ، وإن كان مدعيا ، دور المعترض ، ولعل هذا التقمص هو الذي يفسر توظيفه للنفي بهدف الجحد ، أي بهدف إنكار دعوى الخصم المفترضة ، يقول عن قومه : «لم يعرق فيهم الأقباط ولا الأنباط» ، ويقول كذلك «ماسسنا قرودا ، ولا حكنا برودا ، ولالكنا عرودا» ، إنه يقدم جحدا «استباقيا» لدعاوى يعرف بحدسه وذكائه أنها ستوجه إليه بعد اطلاع العرب على رسالته .

ولم يقف توظيف النفي عند ابن غرسية عند حد الجحد بل تعداه إلى التعويض ، أي تقديم الأطروحة البديلة ، ونمثل له بقوله :

- ليسوا بعرب ذوي أينق جرب ، بل هم القياصرة الأكاسرة .
- لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبحبحت عنهم سارة الأيات .

ويكتسي هذا النفي التعويضي قيمة حجاجية كبيرة ، إذ يجيب على سؤال عادة ما يواجه المعترِض بالنفي ، وهو «ما البديل الذي تقدمه؟» وبتقديمه لهذا البديل ، ولهذا الرأي المغاير يضيع على الخصم فرصة المطالبة به .

ب)- رسالة ابن من الله القروي:

لقد وجد ابن من الله أمامه دعوى قائمة ، بذل ابن غرسية جهدا حجاجيا للإقناع بها ، مما أكسب رسالته وظيفة تفنيدية اعتراضية بالدرجة الأولى ، وقد

استخدم النفي بوصفه آلية إقناعية لخدمة اعتراضاته ، فجاء أحيانا لجحد آراء وادعاءات الخصم وإنكارها ، ومن ذلك نفيه لما ادعاه ابن غرسية لقومه من براعة في علم الموسيقى والنغم بقوله : «ليس عندهم (العجم) شعر موزون ولا كلام موصون» .

إلا أن أقوى أساليب النفي في رسالة ابن من الله ، هي نفيه للمدح الذي حاول أن يخص ابن غرسية الرسول عليه الصلاة والسلام من بين القبائل العربية كلها ، بقوله : «لم يمدح من ذمت قبائله ، ولم يثبت من جذت حبائله» ، فهو بذلك يضع ابن غرسية في مأزق كبير ، فإما أن يذم العرب كلهم حتى نبيّهم ، فيعلن عن كفره ومروقه من الدين . وإما أن يتراجع عن ذمهم إذ مدح نبيهم وعشيرته وصحبه ، فتسقط بذلك أطروحتة ودعواه .

كما جاء نفية في أحيان أخرى تعويضيا يتجاوز الجحد إلى طرح البديل ، ومن ذلك قوله :

- لا يتعلمون ولا يتأملون بل يرسلون الحكم إرسالا .

- أشهد أن الله لم يجعل محمدا صلى الله علية وسلم هاشميا إلاوهاشم خير قريش ، ولا قرشيا إلا وهم خير مضر ، ولا مضريا إلا هم خير العرب ، ولاعربيا إلا وهم خير الأمم .

ملاك الأمر أن النفى آلية إقناعية قوية ، دعمت النفس الحجاجي في الرسالتين ، وإن كان توظيفها لم يتناسب مع طول الرسالتين ، ومع بروز بعض الظواهر الأسلوبية الأخرى .

٤)- الإيقـــــــاع:

من سمات الأسلوب الخطابي أن يكون موسيقيا رنانا خفيفا على اللسان ، حسن الوقع في الآذان[1] ، ويعتبر السجع والازدواج ، باعتبارهما من أهم الظواهر

---

(١) فن الخطابة ص١٨٠ .

الأسلوبية في البلاغة العربية ، وسيلتان ناجحتان لتحقيق هذه السمة إذ» لايحسن منثور الكلام ولايحلو حتى يكون مزدوجا ، ولا تكاد تجد للبليغ كلاما يخلو من الازدواج»[1] .

يقول أبو هلال العسكري : «واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع . فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ، مالم يكن سجعك استكراه وتنافر وتعقيد»[2] ، فكلما كان السجع عفوا لا تكلف ولا تصنع فيه ، «كان له وقع حلو في الأذن وسلطان على النفس»[3] .

وقديما ارتبط السجع ، والصناعة الصوتية عموما ، بالكهانة مما يبرز وظيفة الإيقاع الإقناعية ، ذلك أن توقيع الكلام وتوازنه يكاد يكون حجة على صدقه ، وهذا ملحوظ في الأمثال والحكم التي يندر أن تكون غير مسجوعة موزونة .

و قد كان العرب واعين بالوظائف التذكرية والإقناعية للإيقاع ، فقد» قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الوقاشي ، لم تؤثر السجع على المنثور؟وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال : إن كلامي لوكنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ اليه أسرع والآذان لسماعه أنشط . . . . قالوا فقد قيل للذي قال : يا رسول الله أرأيت من لا شرب ولا أكل ، لا صاح واستهل ، أليس مثل ذلك يطل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الكهان؟» . قال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق فتشادق في الكلام»[4] ، وعليه

---

(١) الصناعتين ص٢٤٩ .

(٢) نفسه .

(٣) فن الخطابة ص١٨٠ .

(٤) البيان والتبيين ج١ ص٢٨٧ .

«فالتشادق في الكلام «وقد كنى به الفضل بن عيسى عن الإيقاع قد يؤدي إلى إبطال الحق كما قد يؤدي إلى إحقاقه ، وقد يوظف للإقناع بالحق ، كما قد يوظف للمغالطة والاستمالة و التأثير ، فإلى أي حد خدم الإيقاع القصد الإقناعي لابن غرسية و ابن من الله في رسالتيهما؟

قدم لنا كل من ابن غرسية وابن من الله رسالتين مسجوعتين من بدايتهما إلى نهايتهما ، وهما بذلك يبرزان سمة م البيان والتبيين : مرجع مذكور ج١ ص٢٨٧ن أهم سمات النثر الفني بالأندلس خلال القرن الخامس الهجري ، بل ربما بالغا في إبراز هذه السمة لما التزما بالسجع في كل أطوار رسالتيهما الطويلتين ، وهما بذلك يقدمان «لمتلقي القرن الخامس الهجري «الأنموذج الذي يميل إليه ، ويرى الجودة والبراعة فيه ، يقول ابن شهيد : «ليس هذا أعزك الله مني جهلا بأمر السجع ، وما في المماثلة والمقابلة من فضل ، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ودهيت بغباوة أهل الزمان ، وبالحرا أن أحركهم بالازدواج ولو فرشت الكلام فيهم طولقا . .»[1]

فإذا كان ابن شهيد يبرر إكثاره من السجع في رسائله الأدبية بمراعاة أحوال المتلقي ، الذي لايحركه الازدواج ، فإن ابن غرسية وابن من الله أولى منه بمراعاة أحوال هذا المتلقي نظرا للقصد الإقناعي والحجاجي لرسالتيهما .

إلا أنهما و إن التزما بالسجع فقد أكسباه حيوية ، بتغيير القوافي وتنويعها ، وتقصير الفواصل وتطويلها ، وإخفاء المعاني وإظهارها ، وتضاد الألفاظ وترادفها . . .

أما تنويع القوافي فيطغى على الرسالتين ، ومنه قول ابن غرسية : « . . على من اضطرك للإيغال ، وباعك بيع المسامح بك لا المغال ، وبعثك على مخالفة الحصان ومحالفة الحصان وعوضك عن الأندية بجوب الأودية ، ومن المألف بخوض المتالف . .» ومنه أيضا قول ابن من الله : «وهات أرنا مفاخرك نرك

(١) التوابع والزوابع ص١١٦ .

مساخرك ، أنت صاحب الشهب الصهب و السنه شهباء و الجهام صهباء ، كذلك أنتم لا خير ولا مير ولا عمرو ولا عمير ، ليس للسخاء بالرومية اسم ، ولا للوفاء في العجمية رسم . . .»

وهذا التنويع في القوافي من شأنه أن يدفع الملل عن المتلقي ، وهو أنشط للسمع ، وأقرب للنفس التي تهتز للتنوع والثراء الموسيقي فتنفعل لذلك وتطرب ، والانفعال والطرب هما الخطوة الأولى نحو الاستمالة والتأثير .

أما الفواصل «فيتفق جميع البيانين على أن أفضل السجع هو القصير الفقرات المستاوي الفصول ، ويتلوه ما كان فيه الفصل الثاني أطول من الأول ، طولا لا يخرج به عن حد الاعتدال»[1] . أما إذا كانت الفاصلة الثانية أقصر من الأولى فهو سجع معيب عند ابن الأثير[2] ، بينما يرى العسكري ألاّ عيب فيه ، إذا لم يخرج عن حد الاعتدال[3] .

وقد جاءت أغلب فواصل الرسالتين قصار متساويات ، ومن ذلك قول ابن غرسية : «شذهوا برنات السيوف عن ربات الشنوف . . . وبالنفير عن النقير ، وبالخبائث عن الجنائب ، وبالخب عن الحب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والدمر عن معاقرة الخمر والزمر ، وباللقيان عن العقيان . . . .»

إلا ان ابن من الله تفوق على ابن غرسية في اختيار الفواصل القصار ، التي أكسبها بتوظيفة لأسلوب الاستفهام إيقاعا سريعا ومتلاحقا ومتناغما ومؤثرا ، ومن ذلك قوله : «أما جبرت نقيصتك؟ أما رفعت خسيستك؟ أما استنهضتك من وهدتك؟ أما أيقظتك من غفلتك؟ ألم تربك فينا وليد؟ ألم تتخدك لها تليدا؟»

بينما جاء توظيف الكاتبين للنوعين الآخرين من السجع بهدف تكسير

---

(١) الأساليب النثرية ص٢٠٨ .

(٢) ضياء الدين ابن الأثير : المثل السائر بولاق ١٢٨٢ هـ ، ص١٥٠ .

(٣) الصناعتين ص٢٠٢ .

الرتابة الإيقاعية ، وخلق تنويع موسيقي يجدد نشاط الملتقي ويشده لمواصلة أطوار الرسالتين ، ومن أمثلة النوع الثاني الذي تكون فواصلة الثواني أطول من الأول في رسالتي ابن غرسية قوله :

- فلهم عظيم الشان / واليد الطولى إذ خلصوكم من أكف الحبشان .
- أصغر بشانكم / إذ بزق خمر باع الكعبة أبو غبشانكم .
- وإذا أبورغالكم / قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستئصالكم .

ومن الأمثلة في رسالة ابن من الله قوله :

- لهم القضب والخضيم / والنخل التي طلعها هضيم .
- سور له باب/ باطنه فيه الرحمة وظاهره فيه العذاب .
- ومن الأيات/ ذكر صواحب الرايات .

أما النوع الثالث حيث تكون الفاصلة الثانية أقصر من الأولى فنمثل له من رسالة ابن غرسية بقوله :

- الموقوف قريضه على بجانة أرش اليمن / بزهيد من الثمن .
- كأن ما في الأرض إنسان/ إلا من غسان .

ومن أمثلته في رسالة ابن من الله قوله :

- أليس الذين قوموا ألسنتهم / وأرسلوا أمتعتهم .
- لتسب العرب بولادة من تعلق بك/ وتشبث بنسبك .
- الخيل حرث العرب وحصادها / وعدتها و أرصادها .

والخلاصة أن الكاتبين جعلا الفواصل القصار و المتساويات أساسا للسجع في رسالتيهما ، وكانا بين الفينة والأخرى يكسران الإيقاع بتطويل الفواصل الثواني أو تقصيرها . مما أغنى موسيقية الرسالتين وأكسب إيقاعهما حيوية وتنوعا يجددان نشاط المتلقي ويشدانه ويستميلانه .

ومما أغنى إيقاع الرسالتين ، خاصة في بعض مقاطعهما ، اعتماد الجناس في السجع أو ما يسمى بالسجع المجانس ، كقول ابن غرسية «شدهوا برنات السيوف ، عن رنات الشنوف ، بركوب السروج عن الكوب و الفروج ، وبالنفير

عن النقير ، و الخبائث عن الجنائب ، وبالخب عن الحب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر عن معاقرة الخمر والزمر ، باللقيان عن العقيان . . .» ، ومنه في رسالة ابن من الله قوله : «سعروا عليكم الحرب بتلك الأينق الجرب ، فكسروا أكاسرتكم ، وقصروا قياصرتكم» ، وقوله : «ملس لمس ، لا تغيرون ولا تغارون ، ولا تمنعون ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء ، وأفئدتكم هواء ، وعقولكم سواء ، قد لانت جلودكم ونهدت نهودكم . . .»

صفوة القول أن تمكن الكاتبين من اللغة الأدبية ، واقتدارهما عليها ، جعل سجعهما عفوا غير متكلف ، مما أكسب الرسالتين إيقاعا قويا ومتنوعا ، يشد المتلقي ، بل ويشغله أحيانا عن التدقيق في الحجج ومدى صدقها ، وكأن لسان حاله يقول : «أن كلاما بهذه الروعة والنغم لا يمكن إلا أن يكون صادقا» ، ومكمن المغالطة هنا هو أن إيقاع النص الحجاجي قد يعوق الوظيفة الإبلاغية والإقناعية للخطاب ، فليس كل خطاب مسجوع منغوم يحمل بالضرورة أفكارا صادقة .

لقد كان الأسلوب في تاريخ بلاغة الإقناع من العناصر الأساسية في البناء الحجاجي للخطاب ، وقد برز هذا العنصر بشكل جلي في رسالتي ابن غرسية وابن من الله ، إلى حد يمكن القول معه أنه وسيلة الكاتبين الأولى للإقناع ، على اعتبار الطابع الأدبي للرسالتين ، فاعتمدا لذلك أسلوبا مثيرا يقصد إلى تحميس المتلقي وتحريك مشاعر متناقضة في نفسه تتراوح بين الافتخار والاحتقار .

كما وظفا الإطناب لترسيخ أطروحتيهما وترسيخ أفكارهما ، دون أن يغفلا أسلوبي الاستفهام والنفي بوصفهما آليتين إقناعيتين مهمتين ، وإن كان ابن من الله قد تفوق على ابن غرسية في استخدام واستغلال القدرة الحجاجية لأسلوب الاستفهام . كما قدم الكاتبان رسالتيهما بأسلوب مسجوع منغم رفع من قوتهما التأثيرية والإقناعية .

خاتمة:

إن تتبعنا لمسار الحجاج في الثقافتين الغربية والعربية خلص بنا إلى الاستنتاجات التالية :

- كشف النص الأرسطي المغالطات السفسطائية دون إخراج الخطابة من دائرة المحتمل والممكن ، كما منح الحجاج مرونة حدت من الصرامة الأفلاطونية ، فاستحق بتوفيقه هذا بين النفعية السفسطائية والصرامة الجدلية الأفلاطونية ، بالإضافة إلى إفراده الخطابة بكتاب مستقل ، ووضعه مشروعا حجاجيا متكاملا يراعي أنواع الخطاب في المجتمع الأثيني وأطرافه ، أن يعد النص المؤسس الحقيقي لبلاغة الحجاج في الثقافة الغربية القديمة .

- قرأ الفلاسفة العرب والمسلمون ، ونخص منهم (الفارابي وابن سينا وابن رشد) ، النص الأرسطي ، ثم شرحوا متنه ، ثم أخضعوه للخصوصية العربية ، فجاءت «شروحاتهم» و«تلخيصاتهم» أغنى بكثير من النص الأرسطي لكن دون أن تتجاوزه .

- مزجت البلاغة العربية بين المسلكين الشعري والخطابي ، وهيمن المسلك الشعري على الكتب البلاغية بعد الجاحظ ، ثم جعلته أغلب الدراسات المتقدمة نقطة ارتكاز لها ، فبدت الأبعاد التداولية للخطاب ضامرة فيها . فكان أن تشكل تراكم تراثي غزير في بلاغة العبارة ، في حين لم تقدم البلاغة العربية تصورات نظرية متكاملة في بلاغة الخطاب توازي النص الأرسطي .

- لا تعني هيمنة المسلك الشعري في البلاغة العربية غيابا كليا للمسلك الخطابي ، إذ وقفنا في مؤلفات الجاحظ وابن وهب والجرجاني والسكاكي

على ما كان يمكن أن يؤسس لبلاغة تداولية خطابية عربية تنبثق من رحم بلاغة العبارة ، لكن الجهود -ولأسباب ثقافية ودينية وسياسية . .- أخذت وجهة أخرى . وقد كان حازم أكثر البلاغيين العرب تمثلا للنص الأرسطي ، ولو أنه اهتم بالخطابة في كتابه قدر اهتمامه بالشعر أو التقط الدارسون إشاراته وعمقوا فيها البحث ، لكانت البلاغة العربية استعادت التوازن بين مسلكيها الشعري والخطابي .

- جعلت النظريات الحجاجية الحديثة من النص الأرسطي منطلقا لها باعتبار البلاغة الأرسطية أساسا فلسفيا معرفيا لأغلبية النظريات البلاغية اللغوية التي جاءت بعدها بشكل عام ، ولنظرية الحجاج بصفة خاصة ، فبيرلمان _ وهو رائد نظرية الحجاج الحديثة _ذكر في كتابيه «مصنف في الحجاج : الخطابة الجديدة» و«إمبراطورية البلاغة» كيف أن دراسته للبلاغة الأرسطية قد قادته ، من خلال التساؤل عن إمكانية وجود منطق خاص للقيم ، إلى نتائج لم تكن متوقعة ، وصرح أن ما كان يبحث فيه قد فصل القول فيه في فن قديم هو فن بلاغة الحجاج عند القدماء ، وهو يقصد بالتحديد بلاغة أرسطو التي عكف على دراستها وإعادة صياغتها . فالنسق البلاغي القديم _حسب بارت _يمتاز بالدقة والحداثة في بعض تصوراته ، كما أن قدمه «لا يعني أنه توجد اليوم بلاغة جديدة ، فالبلاغة القديمة تقابل بالأحرى هذا الجديد الذي لم ينجز بعد ، فالعالم مليء وبشكل عجيب بالبلاغة القديمة»[1] .

- يمتاز النص الأرسطي بمرونة واتساع وذلك لأنه لم ينظر إلى الحجاج نظرة اختزالية بل تكاملية تفاعلية مع مختلف فروع المعرفة الإنسانية آنذاك ، مما جعله قادرا على استيعاب الطروحات النظرية الحديثة وإيجاد مكان لها ، بما في ذلك تلك التي تبدو بعيدة عنه كنظرية الحجاج في اللغة .

---

(١) قراءة جديدة للبلاغة القديمة ص١١ .

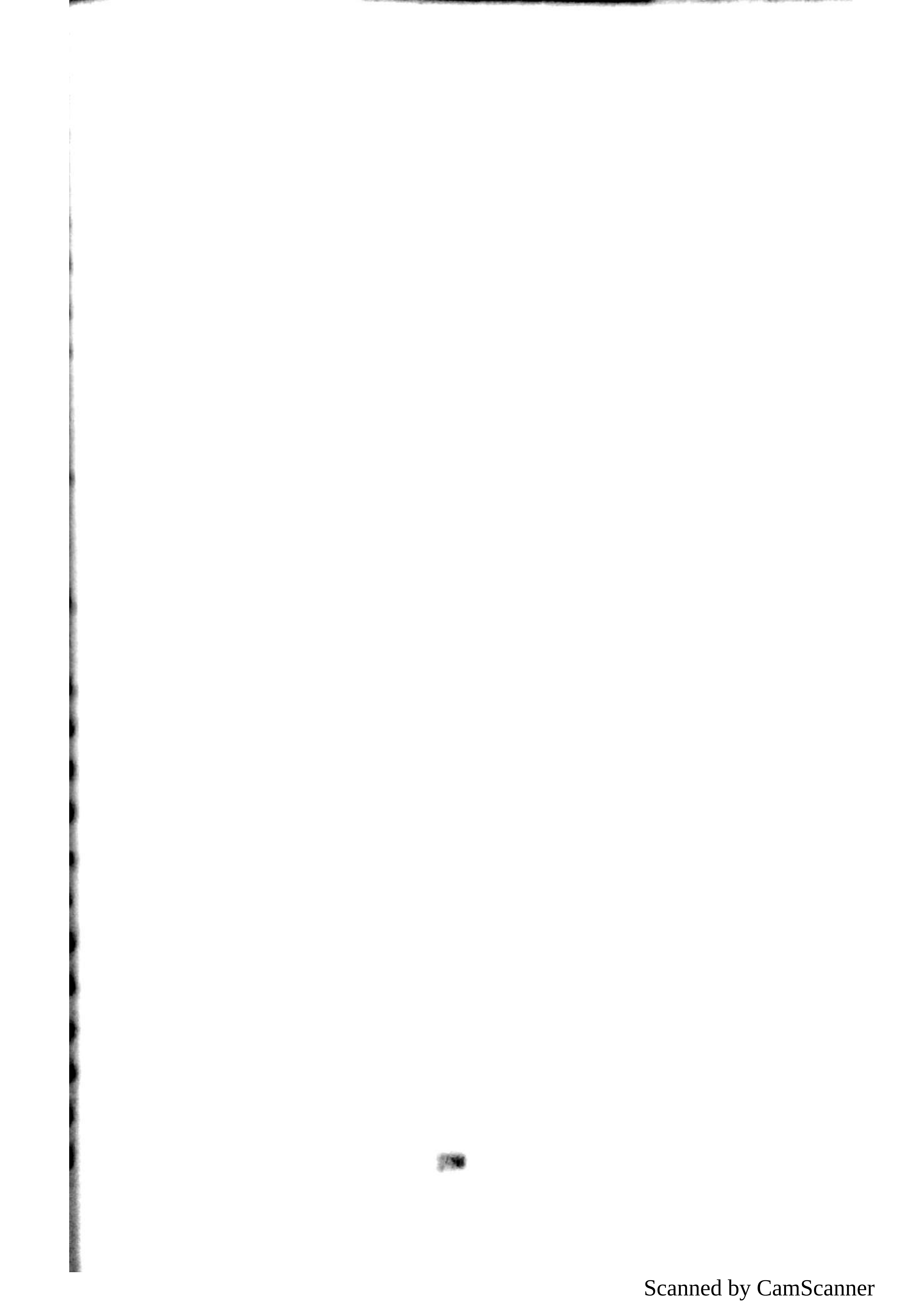
- تعتبر رسالة ابن غرسية ورد ابن من الله القروي عليها نصين حجاجيين متميزين ، غنيين بلغتهما وأسلوبهما وبنائهما الحجاجي ، حاول منشأهما الإقناع بأطروحتيهما من خلال توظيف مجموعة من الآليات الحجاجية سعينا في هذا البحث إلى كشفها ، بإبراز طبيعة الحجج والأدلة في الرسالتين ، مميزا بين الأدلة غير الصناعية المتمثلة أساسا في الشاهد الأدبي بأنواعه ، والأدلة الصناعية التي ركز فيها على المثل والقياس المضمر ،كما تناولنا بعض الظواهر الأسلوبية التي ساهمت في الرفع من حجاجية الرسالتين ، كالإثارة والإطناب والإيقاع وأسلوبي الاستفهام والنفي فيهما .

والخلاصة أن أي مقاربة حجاجية تروم الإلمام بأكبر قدر من متغيرات الخطاب لن تجد بديلا عن التنظير الأرسطي إن هي أرادت تفادي النظرة الجزئية (لغوية كانت أو منطقية أو أسلوبية . .) ، ولن «يستقيم بحث ذو طبيعة تأريخية لا يبدأ من حيث تبدأ الأمور ، خصوصا وأن البداية الأرسطية هي بداية مستوية ، أقامت للشعر والخطابة نسقين نظريين ما يزالان إلى اليوم مغريين بالاكتشاف وبالتطبيق ، ولأن خلف أرسطو قد كانوا في غالبيتهم مجرد «شراح» أو مفصلين لإشراقاته»[1] .

غير أن ذلك لا يعني الالتزام الحرفي بجزئيات هذا التنظير بل الاستفادة من مرونته ، التي أشرنا إليها ، لإغنائه بخلاصات الدراسات العربية والغربية القديمة والحديثة .

---

(١) الاستعارة في محطات ص١٠ .



لائحة المصادر والمراجع:

١)- المصادر والمراجع باللغة العربية:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .
- ابن الأثير ,أبو الحسن علي بن محمد :

* الكامل في التاريخ ,تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ .

- أرسطو طاليس :

* كتاب الخطابة ، ترجمه وقدم له وحقق نصوصه وعلق على حواشيه إبراهيم سلامة ،مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط٢ ، ١٩٥٣ .
* كتاب الخطابة ، ترجمة بدوي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٨٦ .
* كتاب الخطابة ، ترجمة قنيني ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٨ .

- الأصفهاني ، أبو الفرج : الأغاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤ .
- أفلاطون :

* جمهورية أفلاطون ، نقلها إلى العربية حنا خباز ، دار القلم ، بيروت ، ط٥، ١٩٨٥ .

- الأهواني ، أحمد فؤاد :

* أفلاطون (سلسلة نوابغ الفكر الغربي) ، دار المعارف مصر .

- أيت إبراهيم ، عبد السلام :

* الحجاج في الرسائل الديوانية الموحدية من نشر الدعوة إلى بناء الدولة ، أطروحة لنيل الدكتوراه ، السنة الجامعية ٢٠٠٨/٢٠٠٩ ، مرقونة بكلية اللغة العربية بمراكش .

لائحة المصادر والمراجع:

١)- المصادر والمراجع باللغة العربية:

-القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .

-ابن الأثير ,أبو الحسن علي بن محمد :

* الكامل في التاريخ ,تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1987 .

- أرسطو طاليس :

* كتاب الخطابة ، ترجمه وقدم له وحقق نصوصه وعلق على حواشيه إبراهيم سلامة ،مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط٢ ، ١٩٥٣ .

* كتاب الخطابة ، ترجمة بدوي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٨٦ .

* كتاب الخطابة ، ترجمة قنيني ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٨ .

- الأصفهاني ، أبو الفرج : الأغاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤ .

- أفلاطون :

* جمهورية أفلاطون ، نقلها إلى العربية حنا خباز ، دار القلم ، بيروت ، ط٥، ١٩٨٥ .

- الأهواني ، أحمد فؤاد :

* أفلاطون (سلسلة نوابغ الفكر الغربي) ، دار المعارف مصر .

- أيت إبراهيم ، عبد السلام :

* الحجاج في الرسائل الديوانية الموحدية من نشر الدعوة إلى بناء الدولة ، أطرروحة لنيل الدكتوراه ، السنة الجامعية ٢٠٠٨/٢٠٠٩ ، مرقونة بكلية اللغة العربية بمراكش .

- الباجي ، أبو الوليد :
* المنهاج في ترتيب الحجاج ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ ، ١٩٨٧ .
- بارت ، رولان :
* قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ترجمة عمر أوكان ، إفريقيا الشرق ، ١٩٩٤ . .
- بلدي ، نجيب :
* دروس في تاريخ الفلسفة ، أعدها للنشر الطاهر واعزيز وكمال عبد اللطيف ، دار توبقال للنشر الدار البيضاء ، ط٢ ، ١٩٩٧ .
- التوحيدي ، أبو حيان :
* الإمتاع والمؤانسة(٣ج) ضبط وشرح أحمد أمين وأحمد الزين ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت .
- الجابري ، محمد عابد :
* نقد العقل العربي : تكوين العقل العربي ، المركز الثقافي العربي ، ط١٩٨٧/٤ .
-الجاحظ :
* البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ،(د .ت) .
- جديدي ، محمد :الفلسفة الإغريقية ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، والدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط ،٢ .
- الجرجاني ، عبد القاهر :
* دلائل الإعجاز ، تحقيق وتقديم محمد رضوان الداية وفايز الداية ، مكتبة سعد الدين ، دمشق ، ط١٩٨٧/٢ .
* دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ط٣ ، ١٩٩٢/١٤١٢ .
* أسرار البلاغة ، تحقيق ه . ريتر ، دار المسيرة ، بيروت ، ط١٩٨٣/٣ .

- ابن حنبل ، أحمد :
* المسند ، تحقيق شعيب الأناؤوط وعادل مرشد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١/١٩٩٥ .
- الدريدي ، سامية :
* الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري ، بنيته وأساليبه ، عالم الكتب الحديث وجدارا للكتاب العالمي ، ط١ ، ٢٠٠٨ .
- الراضي ، رشيد :
* الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط١ ، يناير ٢٠١٠ .
- عبد الرحمن ، طه :
* في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط٢/٢٠٠٠ .
* اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ، الدارالبيضاء ، ط٢/٢٠٠٦ .
- ابن رشد : * تلخيص الخطابة ، تحقيق بدوي ، توزيع دار العالمين بيروت(د.ت) .
* تلخيص منطق أرسطو ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، المجلد السابع ، كتاب سوفسطيقى .
- الزبيدي ، مرتضى :
* تاج العروس من جواهر النفوس ، دار الفكر ، ١٩٩٤ .
- الزركشي ، بدر الدين :
* البرهان في علوم القرآن ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، ط٣/١٩٨٠ .
- زكي ، نجيب محمود وأحمد أمين :

* قصة الفلسفة اليونانية ، مكتبة النهضة المصرية ط ٨ /١٩٨٠ .
-الزمخشري : أساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت . (د.ت) .
- السكاكي ، أبو يعقوب :
* مفتاح العلوم تحقيق عبد الحميد هنداوي وتقديمه ، منشورات محمد علي بيضون . دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١/٢٠٠٠ .
- سلامة ، إبراهيم :
* بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١/١٩٥٠ .
- ابن سينا :
* الشفاء ، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٩٦٥ .
* الجدل ، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
* الخطابة ، تحقيق محمد سليم سالم ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ،١٩٥٤ .
- السيوطي ، جلال الدين :
* الإتقان في علوم القرآن ، دار الفكر ، بيروت .
- الشهري ، عبد الهادي بن ظافر :
* استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ليبيا ، ط١/٢٠٠٤ .
- صليبا ، جميل :
* المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ .
- صولة ، عبد الله :
* الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، منشورات كلية الآداب بمنوبة ، سنة ٢٠٠١ .
- ضيف ، شوقي :

* الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف ، ط٦/١٩٧١ .
- طروس ، محمد :
* النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط١/٢٠٠٥ .
- ابن عبد ربه :
* العقد الفريد ، دار الكتب العربية ، ١٩٨٣ .
- عادل ، عبد اللطيف :
* خطاب المناظرة في التراث العربي الإسلامي (مقاربة لآليات بلاغة الإقناع) ، أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه في الآداب بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش ، السنة الجامعية ٢٠٠٣/٢٠٠٤ .(مرقونة) .
- العزاوي ، أبو بكر :
* اللغة والحجاج ، العمدة في الطبع ،ط١/٢٠٠٦ .
- العمري ، محمد :
* البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٥ .
* في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ، الخطابة في القرن الأول نموذجا ، سلسلة الدراسات النقدية ، دار الثقافة ، ط١ ، ١٤٠٦/١٩٨٦ .
* البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، إفريقيا الشرق بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩ .
- الفارابي ، أبو نصر :
* الأعمال الكاملة ، تقديم جعفر آل ياسين ، بيروت ،دار المناهل ، ١٩٩٢ .
* الخطابة تحقيق لانغاد ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت .
* الأمكنة المغلطة في المنطق عند الفارابي ، تحقيق وتقديم وتعليق رفيق العجم ، دار الشرق ، بيروت ١٩٨٦ .

- قادا ، عبد العالي :

* الحجاج في الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الهجري ، رسالة ابن غرسية ورد ابن من الله عليها أنموذجا ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة ، مرقون بكلية اللغة العربية بمراكش . السنة الجامعية ٢٠٠٥/٢٠٠٦ .

- ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم :

* الإمامة والسياسة ، تحقيق محمد الزيني ، مؤسسة الحلبي وشركائه ،بيروت ،(د-ت) .

- القرطاجني ، حازم :

* منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة وتقديمه ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦ .

- الكتاني ، جعفر :

* من قضايا النقد الأدبي القديم ، المحاضرات الجامعية ، الكتاب الأول ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، ط١/٢٠٠٢ .

- محمد سالم ، محمد الأمين الطلبة :

* الحجاج في البلاغة المعاصرة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط١ ، صيف٢٠٠٨ .

- ابن منظور ، محمد بن مكرم :

* لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة ، (د .ت) .

- المودن ، حسن :

* الخطاب الإقناعي ، بحث جامعي أنجزه الباحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش انيل شهادة الدكتوراه . السنة الجامعية ٢٠٠٥/٢٠٠٦(مرقونة) .

- الولي ، محمد :

* الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية ، منشورات دار الأمان ، مطبعة الكرامة ، الرباط ٢٠٠٥ .

- ابن وهب :
* البرهان في وجوه البيان ، تقديم د : حفني محمد شرف وتحقيقه ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٦٩ .
* أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية : مؤلف جماعي من منشورات كلية الآداب بمنوبة ، تحت إشراف حمادي صمود . .
* الحجاج مفهومه ومجالاته : دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، إعداد وتقديم حافظ إسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ، ط١/٢٠١٠ ،(خمسة أجزاء) .

٢)- المقالات:

- الإدريسي ، علي : في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام ، الرسالة الجوابية للبصري على رسالة عبد الملك بن مروان نموذجا ، ضمن التحاجج : طبيعته ومجالاته ووظائفه ، تنسيق حمو النقاري ، جامعة محمد الخامس منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٣٤ ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ٢٠٠٦ .
- إسماعيل ، عز الدين : قراءة في المعنى عند الجرجاني ، ضمن فصول ، المجلد ٧ ، العدد ٣و٤ ١٩٨٧ .
- أعراب ، حبيب : الحجاج والاستدلال الحجاجي : «عناصر استقصاء نظري» ،عالم الفكر ، العدد ١ ، المجلد ٣٠ يوليو- سبتمبر ٢٠٠١ .
- أيت حمو ، محمد : ابن حزم فارس الحجاج في الغرب الإسلامي ، ضمن التحاجج .
- باهي ، حسان : الحجاج المغالطي بين المفهوم والمقصود ، مجلة المناهل ، المغرب ، السنة٢٥ ، العدد٦٢/٦٣ ، صفر ١٤٢٢/ماي ٢٠٠١ .

- البعزاتي ، بناصر : الصلة بين التمثيل والاستنباط ، ضمن التحاجج .
- الراضي ، رشيد : الحجاجية اللسانية عند أنسكومبر وديكرو ، عالم الفكر ، العدد١ مجلد ٣٤ .
- روبول ، أوليفيي : طبيعة البلاغة ووظيفتها ، ترجمة الغروس المبارك ، مجلة نوافد ، النادي الأدبي بجدة ، العدد١٦ . ربيع الآخر١٤٢٢/يونيو٢٠٠١ .
- الرويض ، محمد : * حول مفهوم الحجاج و الفلسفة ، مجلة فكر ونقد ، الرباط ، العدد ٢٦ ، السنة الثالثة ، ٢٠٠٠ .
- العزاوي ، أبو بكر : * سلطة الكلام وقوة الكلمات ، مجلة المناهل ، وزارة الثقافة والاتصال المغربية ، السنة٢٥ ، العدد ٦٢/٦٣ ، صفر ١٤٢٢/٢٠٠١ .
* البنية الحجاجية للخطاب القرآني سورة الأعلى نموذجا ، مجلة المشكاة ، العدد ١٩ ، وجدة١٩٩٤ .
* تداخل الحجاج والتخييل ، ضمن التحاجج .
- الفيفي ، عبد الله بن أحمد : الإثارة-البنية-الأثر قراءة في «دلائل الإعجاز» في ضوء النقد الحديث ، مجلة جذور ، المجلد٢ ، العدد٤ ، سبتمبر٢٠٠٠ . .

٣)- المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

- Anscombre(JC) et Ducrot (O):
* L'argumentation dans la langue, Didier Larousse, juin1976.
- Ducrot .(O) :
* Les échelles argumentatives, Paris, Les éditions de minuit 1980. Didier Larousse, Juin 1976.
- Hélla (A) : Précis de l'argumentation, Fernand Nathon, éd lebor ; Bruxelles; 1983.
- Michel (M) :
* Question de rhétorique, éd Le livre de poche, paris, 1993

* Histoire de la rhétorique dés grec à nos jours. Livre de poche. Paris 1999.

* Logique langage et argumentation, édition Hachette , université de Paris.

- Moutawakil (A) : Réfléxions sur la théorie de la signification dans la penséé linguistique arabe

- Olivier (R):

* la rhétorique. Que sais-je ? paris 1984, 1ère édition .

* la figure et l'argumentation in de la métaphisique à la rhétorique ,Bruxelle 1986

* Introduction a la rhétorique ; Press Universitaires de France ; 2 édition corrigée ; 1994.

- Perleman ;(Ch) : La philosophie du pluralisme et la nouvelle rhétorique; in Revue internationale de philosophie (La nouvelle rhétorique the new rhétoric) n 127/128, 1979.

* L'empire rhétorique : rhétorique et argumentation, France, librairie phélosophique 1988.

* Traité de l'argumentation -la nouvelle rhétorique.Edition de l'université de Bruxelles. 5éme éd 2000.

* Logique et argumentation. PressesUniversitaires de Bruxelles. 1968.

- Ricoeur (P) :

* Rhétorique ,poétique et herméneutique .Bruxelle 1986 .

- Quintilien : Institution oratoire, les belles lettres,1980.

- Woods (J) et Walton (D): Critique de l'argumentation ; logiques des sophismes ordinaires ; traduit par M-F.Antona, M.Marcocciz, V.Traverso traduction coordonnée par Ch.Plantin, éd KIME,Pa ris,1992.

الفهـــــرس

إن الإرث الأرسطي هو النص المؤسس لبلاغة الإقناع أو الحجاج، وهو النص الملهم لانبعاث هذه البلاغة من جديد، إذ انطلقت منه وطورته دون أن تستطيع الفكاك منه. وهو نص يتميز بخاصيتين اثنتين تجعلانه المنطلق لأي دراسة نظرية أو تحليلية تروم دراسة الخطاب الإنساني دراسة حجاجية: وهما الشمولية والمرونة.

فشموليته تعني إلمامه بكل عناصر ومكونات الخطاب الحجاجي، على أساس أن إنتاج نص حجاجي يقتضي إعداد أدلة وبراهين تضع في حسبانها منتج الخطاب (الإيتوس)، ومتلقيه (الباتوس)، فتنوع مصادر احتجاجها من الجاهز إلى المبتكر (حجج غير صناعية وحجج صناعية). ثم بعد ذلك لا بد من ترتيب هذه الحجج، وكذلك ترتيب أجزاء الخطاب. وأخيرا تصاغ هذه الأدلة والبراهين المرتبة بأسلوب خطابي إقناعي.

إن الامتدادات والاتجاهات الحديثة في بلاغة الحجاج لم تخرج عن ثلاثية أرسطو (أدلة وترتيب وأسلوب)، فقد اهتمت الدراسات الحجاجية المنطقية بالأدلة والبراهين، بينما ركزت الدراسات اللغوية على الأسلوب، في حين حاولت الدراسات البلاغية الجمع بين المكونات الثلاثة.

أما مرونته فتتجلى في قدرته على استيعاب جل الإسهامات الغربية والعربية في بلاغة الإقناع القديم منها والحديث.

بلاغة الإقناع

دراسة نظرية وتطبيقية



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ص.ب 712577 عمان (11171) الأردن
هاتف 4655 877 فاكس 875 4655 6 962+
www.darkonoz.com
dar_konoz@yahoo.com info@darkonoz.com

darkonoz
darkonoz
darkonoz.almarefa



Cover Design: Mohammad Ayyoub